



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

العلماء



رسالة
عليكم يا صابغين

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

مِيقَاتُ الْحَجِّ

مؤلف: محمد بن عبد الله بن عبد الوهاب
مختصر: محمد بن عبد الوهاب
مختصر: محمد بن عبد الوهاب
مختصر: محمد بن عبد الوهاب

١٣

- ١- الحج بغير إجماع (١٦)
- ٢- حجة الوداع... تطهير وإزالة
- ٣- رملة، ذوات الحج، آثار مختلف، حجة الوداع
- ٤- توسعة الحرم، دراسة تقنية، دراسة تقنية
- ٥- لغة الحج، الضرورات، الحاجات (١٧)
- ٦- علماء الحرم، الشريف، شعر النور، الزاهر، حجاج
- ٧- أهم معبد، الطهارة
- ٨- أهمية الاستعدادات، إعداد، العهد، على العظمى



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دو فصلنامه « ميقات الحج »

کاتب:

محمدي ري شهري

نشرت في الطباعة:

مشعر

رقمي الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
٦	ميقات الحج المجلد ١٣
٦	اشارة
٦	الحج في احاديث الامام الخميني قدس سره
١٠	الحج في احاديث الإمام الخامنئى
١٢	عجالة موجزة في فروض المناسك
٣٠	جهة القبلة
٥٦	لقاء و حوار مع سماحة آية الله الهاشمى الرفسنجانى
٨٣	قرن المنازل (٣)
١٠١	مختارات شعرية حسان بن ثابت يرثى رسول الله صلى الله عليه و آله
١٠٩	البيت العتيق ... خَواطِر وأشجان
١١٧	الحج عبر الحضارات والأمم (٣) القدس - الكعبة
١٧٠	مهمات مشبوهة في الديار المقدسة (٥)
٢٠١	شخصيات من الحرمين الشريفين (١٠) ابو ذر الغفارى «وحده»
٢٣٠	رسالة في الترتيب بين أعمال الحج
٢٤٢	وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ
٢٧٣	تاملات في آيات الحج
٢٨٤	تعريف مركز

میقات الحج المجلد ۱۳

اشاره

عنوان و نام پدیدآور : میقات الحج [بیابند: مجله]
 مشخصات نشر : تهران: منظمه الحج و الزیارة، ۱۴۱۷ ق. - = ۱۳۷۵ -
 فاصله انتشار : شش ماه یکبار

یادداشت : عربی

فهرست نویسی براساس سال ۳ شماره ۵ سال ۱۴۱۷ق.

یادداشت : این نشریه در بیروت نیز منتشر می شود

یادداشت : مدیرالمسؤول: محمد محمدی ری شهری

رئیس التحریر: علی قاضی عسکر

یادداشت : کتابنامه

ترجمه عنوان : Mighat al - haj

موضوع : حج -- نشریات ادواری

شناسه افزوده : محمدی ری شهری، محمد، ۱۳۲۵، -مدیر مسئول

Muhammadi Reyshahri, Muhammad

قاضی عسکر، سیدعلی، ۱۳۲۵، - سردیر

شناسه افزوده : سازمان حج و زیارت

رده بندی کنگره : BP۱۸۸/۸

رده بندی ... : ۲۹۷/۳۵۷۰۵

ص: ۱

الحج في احاديث الامام الخميني قدس سره

ص: ٥

العدد الثالث عشر

الحجّ في أحاديث الإمام الخميني قدس سره

إنَّ حجاج بيت الله الحرام، الذين يتحررون من قفص البدن وقيود الدنيا، ويهاجرون إلى الله ورسوله، حيث يصبح البيت القلب، ولا شيء فيه غير المحبوب الحقيقي، بل لا شيء غيره في الداخل والخارج. يجب أن يعلموا أنَّ الحجَّ الإبراهيمي المحمدي صلوات الله عليهما وآلهما، مهجور وغريب منذ سنين طويلة سواء من الناحية المعنوية والعرفانية أم من الناحية السياسية والاجتماعية، ويجب على الحجاج الأعرّاء من سائر الدول الإسلامية أن يعيدوا الكعبة وبيت الله من غربتهما وبجميع أبعادهما...

إنَّ هذا المؤتمر الذي ينعقد بدعوة من إبراهيم ومحمّد وآلهما، ويقصد إليه من كلّ زوايا الدنيا، ومن كلّ فج عميق للإجتمع فيه، لأجل منافع النَّاس والقيام بالقسط، وللاستمرار بتحطيم الأصنام التي بدأ بتحطيمها إبراهيم ومحمّد، وطواغيت فرعون التي محاها موسى...

إنَّ فريضة الحجّ التي هي لبيك بحقّ، وهجرة إلى الله إنّما هي بركة إبراهيم ومحمّد صلوات الله عليهما وآلهما؛ بمعنى «لا» لجميع الأصنام و الطواغيت و الشياطين و أبنائهم ..

الحجّ في أحاديث الإمام الفارسي

ص: 6

الحج في أحاديث الإمام الخامنئ

- مدّ ظلّه العالی -

هذه المناسبة الخالدة التي يقدم الحجيج على أدائها، تشكّل بنفسها مجموعة ناطقة معبرة طافحة بالذکر والنشاط المعنوی والداخلي في إطار حركة وسعی وتنسيق بناء جماعي.

إنّ الحجّ - بتعاليمه المفعممة بالأسرار والرموز، وبمظاهره الرائعة الجامعة بين العظمة والتذلل، والافتدار والتواضع، والحركة الداخلية والخارجية - تجسيد لجهاد الإنسان المسلم في مجالی النفس والعالم باتجاه تحقيق الحياة الانسانية الطيبة، وتدريب للحاج على واجباته الكبرى في الحياة.

إنّ المجتمعات البشرية المختلفة - وهي تعاني اليوم من فراغ روعي وضیاع وحيرة من مآس وويلات اجتماعية وفردية فرضها طواغيت الثروة والقوة على الساحة العالمية - تحتاج إلى الإسلام وإلى تعاليمه ودروسه الكبرى. وإنّ الدعوة الإسلامية لتجعل عناصر الاستقطاب والنفوذ والأمل، ليس فقط للشعوب التي تحترق بنيران الفقر والاستضعاف، بل وبنفس القدر للشعوب التي تتخبّط في مستنقعات الفراغ والحيرة والفقر الروحي في البلدان الثرية المتطورة. وما تذكره

ص: ٧

الاحصائيات والدراسات من تزايد التوجه إلى الإسلام بين فئات الشباب وبين كل الرافضين لخواء الحياء المادية في البلدان الغربية المتطورة، دليل على هذا الاستقطاب والنفوذ.

المسلمون بتفهمهم لهذه الثروة الكبرى ومنحها ما يناسبها من وعى، سيكونون قادرين على أن يخلقوا تحولاً حقيقياً في حياتهم، وأن ينقذوا البلدان الإسلامية مما تعانيه اليوم من ضعف وتبعية وتخلف وانحطاط.

عجالة موجزة في فروض المناسك

ص: ٨

عجالة موجزة في فروض المناسك

السيد العلامة بحر العلوم

تحقيق: محمد الإسلامى اليزدى

المؤلف

هو السيد محمد مهدي بن السيد المرتضى بن السيد محمد الحسينى البروجردى المعروف ب (بحر العلوم) الطبائى من نسل إبراهيم الملقب ب (طباطبا) من ذرية الحسن المثنى (١).

ولد بكر بلاء المقدسة ليلة الجمعة فى شوال سنة ١١٥٥ هـ، وتوفى بالنجف الأشرف سنة ١٢١٢ هـ، ودفن قريباً من قبر الشيخ الطوسى رحمه الله.

دراسته:

فى كربلاء تربى و درس عند والده وفضلاء عصره المقدمات والسطوح وعمره لم يتجاوز الثانية عشرة، و حضر بعد ذلك خارج الأصول على والده المرتضى رحمه الله وعلى أستاذ الكل الوحيد البهبهانى رحمه الله و خارج الفقه على الفقيه الكبير الشيخ يوسف البحرانى (صاحب الحدائق) وذلك لمدة خمسة أعوام حتى بلغ درجة الاجتهاد.

ص: ٩

إلى النجف الأشرف:

وسافر إلى النجف الأشرف سنة ١١٦٩ هـ ليكمل أشواطه الباقية في الجهاد والاجتهاد، فحضر دروس أعلامها وهم الشيخ مهدي الفتونى (١١٨٣ هـ) والشيخ محمد تقي الدورقي (١١٨٦ هـ) والشيخ محمد باقر الهزارجربى (١٢٠٥ هـ) وغيرهم من الحجج والأعلام، وأصبح قطب رحي العلم والفضيلة في حين أن عمره المبارك بعد لم يتجاوز الثلاثين.

هو بحر العلوم بحر المعالي فالورى وارد إليه وصادر (١)

إلى إيران:

سافر إلى إيران، خراسان من سنة (١١٨٦-١١٩٣ هـ) و حضر درس الفيلسوف الشهير الميرزا مهدي الشهيدى الخراسانى رحمه الله حتى لقبه ب (بحر العلوم).

إلى بيت الحرام:

وتشرف لحج بيت الله الحرام سنة ١١٩٣ هـ و بقى فى مكّة سنتين أو أكثر؛ ليقيم المشاعر ويركز المواقيت على ضوء الشرع الصحيح، ويناقش علماء المذاهب الأربعة هناك.

مدرسته:

أمّا تلامذة مدرسته العلميّة التى نشأت على يديه فى النجف الأشرف، فلقد كانوا من عيون العلماء وكبار مفاخر الشيعة وهم كما عدّهم السيد محمد صادق بحر العلوم فى مقدّمته على كتاب رجال السيد بحر العلوم ما يقرب من ثمانين علماً، أشهرهم الشيخ أحمد النراقى- صاحب المستند- (١٢٤٥ هـ) الشيخ جعفر كاشف الغطاء (١٢٢٨ هـ) والسيد محمد جواد العاملى صاحب مفتاح الكرامة (١٢٢٦ هـ)

ص: ١٠

والسيد مير الطباطبائي صاحب الرياض (١٢٣١ هـ) والسيد محمد المجاهد صاحب المناهل (١٢٤٢ هـ) والسيد محسن الأعرجي الكاظمي صاحب المحصول (١٢٢٧ هـ) والشيخ محمد تقى الاصفهاني صاحب الحاشية على المعالم (١٢٤٨ هـ) (١). مؤلفاته:

للسيد بحر العلوم ما يقرب من ثلاثة وعشرين مؤلفاً، والمعروف منها: كتاب المصاييح، والفوائد الرجالية، والدرّة التحفية، ورسالة في مناسك الحج والعمرة وهي التي بين يديك. آيات الثناء عليه:

لقد شهد لمقامه العلمى المخالف والمؤلف، كيف لا وهو الزعيم الروحى والمرشد إلى طريق التقوى والسلوك والعرفان، والمرجع الدينى المطلق للشيعة على رأس القرن الثالث عشر للهجرة فى النجف الأشرف. ومن يراجع كتب التراجم والرجال يجد ما يرشد إلى هذا البحر المحيط. الرسالة:

وهى مع كونها موجزة ومختصرة فى مناسك الحج والعمرة كتبها السيد بحر العلوم إجابةً لطلب بعض إخوانه السالكين الناسكين، سهلة المرام، يستفيد منها الخاص والعام. ونسختها الخطية: هى النسخة الوحيدة المحفوظة بمكتبة المدرسة الفيضية برقم (٢١٨) كتبت على هامش كتاب المصاييح للسيد بحر العلوم رحمه الله وبخط نستعليق.

ص: ١١

ونسخة أخرى:

وذكرها العلامة آقا بزرك الطهراني بعنوان: «العجالة الموجزة في فروض المناسك» وهي موجودة عند السيد جعفر بن علي بحر العلوم من النجف الأشرف، تاريخ كتابتها ١٢٣٩ هـ (١).
وتم تحقيق الرسالة من الاستنساخ والتقطيع والاستخراج وغيرها بعون الله.

١-١ الذريعة إلى تصانيف الشيعة ١٥: ٢٢٣.

ص: ١٣

مناسك السيد بحر العلوم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ما طاف طائف في المسجد الحرام، ووقف واقف بالمشاعر العظام، والصلاة والسلام على مبین مناسك الحج للأنام محمد وآله الحجج الميامين الكرام.

وبعد: فهذه عجاله موجزة في فروض المناسك التي ما يعذر بجهالتها سالك، قصدت بها إجابة أحد إخواننا السالكين، وفقه الله تعالى لارتقاء معارج اليقين، وربتها على مقدمة، وأبواب، وخاتمة.

أما المقدمة: ففي محرمات الإحرام والحرم وجملتها تسعة عشر نوعاً.

الأول: صيد البر وهو الحيوان الممتنع بالأصالة مما يعيش في البر ويبيض ويفرخ فيه، وإن عاش في الماء، حلالاً كان أو حراماً، وإن اختص التكفير بالأول وهو محرم مطلقاً (١).

وعلى المحل في الحرم، اصطياًداً، أو أكلاً، أو إشارةً ودلالةً واغلاقاً.

الثاني: النساء طياً وتقبيلاً ونظراً ولمساً بشهوة، وعقداً له ولغيره وشهادةً عليه- وفي معناه الاستمناء باليد- أو الملاعبة أو التخيل أو غيرها.

الثالث: الطيب وهو كل ما يطيب ريحه، ويكون معظم الغرض منه التطيب، فيخرج عنه الفواكه والأبازير (٢) خلا الزعفران؛ لأن الغرض الأصلي منه الأكل والاستعمال فيه، والحناء لأن المقصود منها الخضاب والتداوى، وفي الريحان خلاف، والاجتناب أحوط.

وفي ثبوت الكفارة في غير

١-١ سواء كان في الحرم أو في غيره التوضيح من الكاتب في الحاشية.

٢-٢ الأبازير: التوابل الصحاح للجوهري ٢: ٥٨٩ مادة: بزر.

ص: ١٤

المسك والعنبر والكافور والزعفران والعود والورس (١) إشكال، والأقرب العدم.

ويحرم الطيب أكلًا ولو مع الممازج وبقاء الكيفية، وتطبياً اختياراً.

ومع الاضطرار يقبض على أنفه إن أمكن، ومن الاضطرار طيب الكعبة، إنما الخلق فإنه جائز اختياراً، وهو طيب معروف مركب من الزعفران وغيره.

وقيل: بجواز زعفرانها وحده أيضاً للمختار وهو قوى.

ويجوز الاجتياز في موضع يباع فيه الطيب إذا لم يكتسب منه، ويقبض على أنفه ويزيل ما أصابه ولو بنفسه على الأصح والأحوط، أو المحل بها إن أمكن.

الرابع: الإدهان بالدهن بعد الإحرام مطلقاً اختياراً، أو قبله بما فيه طيب تبقى رائحته بعده على الأصح.

الخامس: الاكتحال بما فيه طيب، وبالسواد للزينة اختياراً، والأحوط اجتنابه مطلقاً.

السادس: النظر في المرأة على الأشهر الأظهر (٢) فإن نظر فليتب.

السابع: إخراج الدم اختياراً على المشهور (٣) ولو بالاستياك، وحكّ الجلد، وقيل: بالكراهة، والأول أظهر.

الثامن: قصّ الأظفار وما في معناه إلّا إذا انكسر ظفر وآذاه، فيجوز له الإزالة، ويطعم مكان ظفر قبضةً من طعام.

التاسع: إزالة الشعر عن الرأس واللحية أو غيرهما بالحلق أو القص أو الطلّ، أو غيرها قليلاً كان أو كثيراً اختياراً، ويجوز مع الضرورة،

ولا يسقط بها الفدية، ولو وقع شيء من شعره بمسه في الوضوء، أو الغسل أو التيمم أو إزالة الخبث، لم يجب عليه شيء على الأصح،

ولو قطع عضواً عليه شعر جاز، ولا يلزمه شيء.

العاشر: لبس المخيط للرجال ولو كانت خياطته قليلة على إشكال، إلّا في الضرورة فيجوز، ولا يسقط به الفدية إلّا في لبس السراويل

لفاقد

١-١ الورس: نبت أصفر يكون باليمن يتخذ منه الحمره للوجه الصالح للجوهري ٣: ٩٨٨ مادة: ورس.

٢-٢ مختلف الشيعة ٤: ١٠٣.

٣-٣ مختلف الشيعة: ٤/ ١٠٣.

ص: ١٥

الآزار، فإنه يجوز من غير فداء، وفي التوسخ وما يشبهه إشكال، والاجتناب أحوط.
الحادي عشر: لبس مايستر ظهر القدم بتمامه كالخف والجورب، ويجوز لبس مايستر البعض كالنعل، والستر بغير اللبس ولو بالملبوس، ومنه الالتحاف والتوسد: ولا بأس بلبس النعال المخصوفة، ولو صدق عليها اسم المخيط.

الثاني عشر: لبس الخاتم للزينة على المشهور، وقيل يكره.

والأول هو الأصح، ويجوز لبسه للسنة قولاً واحداً (١).

الثالث عشر: تغطية الرأس أى مافوق الوجه بثوب أو طين أو دواء أو حناء أو حمل متاع أو غير ذلك، ولو بالارتماس فى الماء أو غيره كلباً أو بعضاً، إلبما هو منه، كئيدِه فإنه يجوز أن يستتر بعض جسده ببعض، أو بما لا بد منه فى العادة كما فى النوم، والأقرب دخول الاذنين فى الرأس فلا يجوز تغطيتهما، وكما تحرم التغطية ابتداءً تحرم استدامه، وهل يجب على الناسى تجديد التلبية دون الالقاء؟ الأظهر أنه مستحب...

الرابع عشر: التظليل للرجل السائر اختياريًا، ويجوز التظليل فى المنزل إجماعاً، والمشى تحت الظلال فى الطريق، ولو بحيث يصير ذو الظل فوق رأسه على الأقرب، والأحوط تركه فى الطريق مطلقاً.

الخامس عشر: لبس السلاح اختياريًا على الأشهر الأظهر (٢).

السادس عشر: قتل هوام الجسد بل قتل الحيوان مطلقاً إلبالموزيات، ولا يجوز إلقاء القمل بل كل ما كان فى الجسد، ويجوز النقل والتحويل وإلقاء ما ليس من هوام الجسد، كالقراد والحلم (٣) وغيرهما.

السابع عشر: الفسوق، وهو الكذب والسباب، وفى صحیحه على ابن جعفر «إنه الكذب والمفاخرة» (٤).

الثامن عشر: الجدل وهو قول:

لا والله وبلى والله، ويختص المنع بهذه الصيغة، فلا جدال بمثل لا عمري

١- ١ غاية المراد ١: ٣٩٧.

٢- ٢ مختلف الشيعة ٤: ١٠٥.

٣- ٣ الحلم: هو القراد الكبار واحده حلمة حياة الحيوان ١: ٢٣٧.

٤- ٤ التهذيب ٥: ٢٩٧. تفصيل وسائل الشيعة ١٢: ٤٦٥ ح ٤ باب ٣٢ أبواب تروك الاحرام.

ص: ١٦

وبلى العمرى.

وفى روايته هو قول: الرجل «لا والله وبلى والله وسباب الرجل» (١).

التاسع عشر: قطع شجر الحرم وحشيشه لا النخل وشجر الفواكه.

الباب الأول

فى ماهية التمتع:

وصورته أن يحرم من الميقات بالعمرة المتمتع بها إلى الحج فى وقته، ثم يطوف لها بالبيت سبعا، ثم يصلى ركعتى الطواف، ثم يسعى لها بين الصفا والمروة، ثم يُقَصِّر، ثم يحرم من مكة للحج، ثم يمضى إلى عرفه، فيقف بها إلى الغروب يوم عرفه، ثم يفيض إلى المشعر، فيقف به بعد طلوع الفجر، ثم يمضى إلى منى، فيرمى جمرة العقبة يوم النحر، ثم يذبح أو ينحر هديه، ثم يحلق أو يقصر، ثم يمضى فيه أو فى غده إلى مكة، فيطوف للحج ويصلى ركعتيه ويسعى للحج ويطوف طواف النساء ويصلى ركعتيه، ثم يمضى إلى منى، فيبيت بها ليالى التشريق، وهى ليلة الحادى عشر، والثانى عشر، والثالث عشر.

ويرمى فى هذه الأيام الجمار الثلاثة، يبدأ بالأولى، ثم الوسطى، ثم العقبة.

ولمن اتقى النساء والصيد فى إحرامه أن ينفر فى الثانى عشر، فيسقط عنه رمى يوم الثالث عشر والمبيت ليلته، ولا يجب فى التمتع غير ما ذكر على المشهور (٢).

وقيل: بل يجب فى عمرة التمتع طواف النساء، كما فى المفردة، وهو شاذ، ومستنده ضعيف.

والأركان من هذه الأفعال للعمرة، الاحرام والطواف والسعى، وللحج الإحرام والوقوفان وطواف الزيارة والسعى.

والركن منها ما يبطل بتركه النسك عمداً لا سهواً، ويختص الوقوفان منها بالبطلان بفواتهما مطلقاً، ولوفاته أحدهما فإن كان الوقوف بالمشعر مطلقاً بطل حجه، وإلا صحَّ،

١-١ تفصيل وسائل الشيعة ١٢: ٤٦٧ ح ٨ باب ١٣٢ أبواب تروك الاحرام.

٢-٢ مختلف الشيعة ٤: ٣٢٣.

ص: ١٧

وإن كان اضطرارى المشعر وحده على الأصح. والمعتمر يحل بالتقصير من كل شىء - أى محرّم الإحرامى دون الحرمى - على المشهور، ومن غير النساء على القول بوجوب طوافهن عليه، فيحل به منهن. والحاج يحلّ بالحلق أو التقصير من كل شىء إلا الطيب والنساء والصيد، وهو التحليل الأول، فإذا طاف طواف الزيارة، وسعى بين الصفا والمروة حلّ الطيب، وهو التحليل الثانى. فإذا طاف طواف النساء حلّ منهنّ ومن الصيد الإحرامى دون الحرمى، وهو التحليل الثالث.

الباب الثانى

فى تفصيل أفعال العمرة المتمتع بها إلى الحج وهى خمسة:

الأول: الإحرام والواجب فيه ثلاثة:

الأول: النية المعينة لكونه إحرام عمرة متمتع بالأصالة، أو النذر لنفسه، أو لغيره، أداءً وقضاءً تقرباً إلى الله تعالى.

الثانى: التلبيات الأربع وصورتها: «لبيك، اللهم لبيك، لبيك، لا شريك لك لبيك» والأحوط أن يضيف إليها بعد الأربع «إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك».

والأولى أن يوسطه بين الأخيرتين أيضاً بإسقاطه التوحيد بعد الثالثة، فيقول: «لبيك اللهم لبيك، لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك» كما ذكره جماعة من الأصحاب (١)، ولو اقتصر على الأول كان مجزياً.

الثالث: لبس ثوبى الإحرام يتزر بأحدهما ويتوشح بالآخر، أو يرتدى به، ونهى عن عقده وشده بشىء منفصل عنه، وروى الطبرسى فى الاحتجاج: أن محمد بن عبد الله بن جعفر الحميرى كتب إلى صاحب الأمر عليه السلام يسأله: هل يجوز أن يشدّ عليه مكان العقد تكة؟ فأجاب عليه السلام:

«لا يجوز شدُّ الميرز بشىء سواه من تكة أو غيرها» (٢).

١- ١ مختلف الشيعة ٤: ٨٠.

٢- ٢ الاحتجاج للطبرسى ٢: ٥٧٤.

ص: ١٨

وكتب أيضاً يسأله: أيجوز أن يشد الميرز على عقبه بالطول، أو يرفع من طرفيه إلى حقويه، ويجمعهما في خاصريه أو يعقدتهما ويخرج الطرفين الأخيرين بين رجليه، ويرفعهما إلى خاصريه ويشد طرفه إلى وركيه، فيكون مثل السراويل يستر ما هناك، فإن الميرز الأول كنا نتر به إذا ركب الرجل جملة انكشف ما هناك، وهذا أستر؟

وأجاب عليه السلام: «جاز أن يتزر الإنسان كيف شاء إذا لم يحدث في الميرز حدثاً بمقراظ ولا إبرة يخرج به عن حد الميرز وغرزه غرزاً (١) ولم يعقده، ولم يشد بعضه ببعض، وإذا غطى السيرة والركبة كليهما، فإن السنة المجمع عليها بغير خلاف تغطية السرة والركبتين، والأحب إلينا والأكمل لكل أحد شده على سبيل المألوفة المعروفة للناس جميعاً إن شاء الله تعالى» (٢).

ويشترط فيهما مما يجوز فيه الصلاة من حيث النوع والوصف، ولا يجوز بالحري، والجلد الغير المأكول، ولا في النجس، فإن أصابته نجاسة غسله فوراً، ويجوز الزيادة عليهما مراعيًا للشرط، وكذا الإبدال، والأفضل الطواف فيما أحرم فيه، ومع فقدهما يلبس القبا منكوساً.

ومحل الإحرام للمار على طريق المدينة كما هو الشائع في هذا الزمان (ذو الحليفة)، ولا يجزى الإحرام من غير المسجد على الأقوى وهو واد على ستة أميال من المدينة- والسقايف الحادثة خارجة عنه، فلا يصح الإحرام منها، والأحوط الإحرام من مسجد الشجرة، وهو بطن الوادي، بالقرب من الآبار المعروفة (بآبار على).

والجانب القبلي منه موضع يظن بعض الناس أنه المسجد وليس به، وإنما هو معرس (النبى صلى الله عليه وآله) وهو:

الموضع الذى يستحب النزول فيه للراجع على طريق المدينة.

والسقايف الحادثة خارجة عن المسجد، فينبغى الإحرام من وسطه،

١- ١ غرز الإبرة فى الشيء غرزاً وغرّزها: أدخلها لسان العرب ٥: ٣٨٦.

٢- ٢ الاحتجاج للطبرسى ٢: ٥٧٣.

ص: ١٩

وفى وجوب التلبية فى محل الإحرام، ومقارنة النية لها إشكال.

والأحوط أن يلبى فيه سرّاً مقارناً بينهما وبين النية، ثم يجهر بها إذا بلغ البيداء، ويقطع التلبية إذا شاهد بيوت مكة، وحدّها عقبه المدتيين، ومع الاشتباه، فالأحوط تعجيل القطع.

والأحوط فى الحج أن يلبى فى مكة سرّاً وفى المدعى سرّاً وجهراً، وإذا أشرف على الأبطح جهراً.

الثانى: الطواف وواجباته عشرة:

الأول: الطهارة من الحدث والخبث عن الثوب والبدن، والظاهر العفو عن دم القروح والجروح اللّازمة دون ما نقص على الدرهم.

الثانى: ستر العورة.

الثالث: الختان.

الرابع: النية المعينة مع القرية.

الخامس: العدد وهو سبعة أشواط، فلو نقص عنها أو زاد ولو خطوة بطل.

السادس: البداية بالحجر الأسود والختم به، ولا بدّ من الابتداء بأول الحجر والانتهاه إلى حيث ابتداء منه، ولو أدخل جزءاً من باب

المقدمة مع استصحاب النية وقصد الابتداء من حيث يحاذى صحّ، ولا يلتزم الزيادة كما فى إدخال جزء من الرأس فى غسل الوجه.

السابع: جعل البيت على يساره.

الثامن: خروجه بكله عن البيت.

التاسع: إدخال الحجر فى الطواف.

العاشر: كونه بين البيت والمقام مع اعتبار قدره من المسافة فى الجوانب كلها والمقام، وهو الحجر الذى عليه أثر القدم الشريفه، لا البناء.

الثالث: صلاة الطواف:

وهى ركعتان بعده فى مقام إبراهيم عليه السلام حيث هو الآن اختياراً، فإن تعدّر صلّى خلفه، أو فى أحد جانبيه مع تحرى الأقرب، والخلف أحوط.

والمقام هنا، البناء دون الصخرة،

ص: ٢٠

ويتخير فيهما بين الجهر والإخفات.

الرابع: السعى وواجباته ثلاثة:

الأول: النية المعينة مع القرية.

الثاني: البدء بالصفاء بحيث يلاصقه بالمرءة بحيث يلاصقها أصابعه.

والأحوط اعتبار اللصوق في الرجلين معاً فيهما، ولا يجب الصعود على الدرج وإن كان أولى.

الثالث: رعاية العدد وهو سبعة أشواط من الصفا إليه شوطان.

الخامس: التقصير:

والواجب فيه المسمى أى إزالة شئ من الشعر، أو الأظفار بحديد أو غيره.

الباب الثالث

في تفصيل أفعال حج التمتع وهي اثنا عشر فعلاً:

الأول: الإحرام ووقته ما بين فراغ الحاج من عمره التمتع إلى أن يضيق وقت الوقوف بعرفة، وأفضل أوقاته يوم التروية عند الزوال، ومحلّه مكة لا غير، وأفضل المواطن المسجد، وأفضله المقام والحجر، ويجب فيه ما يجب في إحرام العمرة.

الثاني: الوقوف بعرفة، ويجب فيه التية لكونه بعد تحقّق الزوال أحوط، والكون بها إلى الغروب اختياراً، فلو أفاض قبل الغروب عالماً عامداً فعليه بدنة، وإن لم يقدر صام ثمانية عشر، ولو عاد قبل الغروب لم يلزمه شئ.

والركن منه مسمى الكون فيما بين الزوال والغروب، فإن لم يتمكن تداركه ولو قبل طلوع الفجر يوم النحر، فإن لم يتمكن، أو تردّد فيه اجتزأ بالمشعر.

الثالث: الوقوف بالمشعر، والواجب منه في حق المختار مسمى الوقوف بين طلوع الفجر وطلوع الشمس يوم النحر، فلو أفاض قبل طلوع الفجر اختياراً أتم، وصحّ حجّه، ويجب عليه الجبران بشاءة على الأصح.

فالركن منه للمختار مسمى الوقوف من غروب الشمس ليلة

ص: ٢١

النحر إلى طلوع الشمس، ويجزى للمضطر مسمى الوقوف بعد طلوع الشمس إلى الزوال يوم النحر، وقيل: إلى الغروب وهو ضعيف (١).

الرابع: رمى جمرة القصوى وهي العقبة، وهو واجب على الأصح، ووقته يوم النحر مقدماً على النحر والهدى.

ويجب فيه النية، ورمى سبع حصيات حرمية أباكراً بما يسمى رمياً، وإصابة الجمرة بها بفعله، والتفريق في الرمي دون الوقوع.

الخامس: الهدى وهو واجب على من وجدته، ويجب فيه النية، وكون الذبح أو النحر بمنى، ووقوعه بعد الرمي قبل الحلق، أو التقصير، فلو أخلّ أثم وصح.

واجتماع أوصاف الهدى، وهي كونه من النعم الثلاث، فمن الإبل ما دخل في السادسة، ومن البقر والمعز ما دخل في الثانية، والأحوط ما دخل في الثلاثة، ومن الضأن يجزى الجذع لسنة، وهو ما لم يدخل في الثانية، والأحوط أن يكون له ستة أشهر فصاعداً، وأن لا ينقص عن واحد إلماً مع الاضطرار فيجوز الاشتراك فيه، وأن لا يكون ناقصاً، فلا تجزى العوراء، ولا العرجاء، ولا المقطوعة الاذن، ولا الخصى، وأن لا يكون مهزولاً، ولا يعتقد كونه كذلك، فلو اعتقد سميناً ثم بان مهزولاً، ولا مهزولاً ثم بان سميناً أجزأ عنه على الأصح. وفي وجوب الأكل من الهدى، والإطعام منه خلاف، والمشهور الاستحباب (٢)، والوجوب مع التمكن قوى.

ولا يجب قسمته أثلاثاً، وفاقد الهدى إن وجد ثمنه خلفه عند من يشتري له طول ذى الحجة، وإلا صام كما في الآية ثلاثة أيام في الحج وسبعة بعد الرجوع (٣).

السادس: الحلق والتقصير، ووقته يوم النحر بمنى بعد الذبح قبل الطواف ويتعين الحلق على الصرورة، والمُلبّد، والمُعَقِّص على الأصح، والتقصير في حق النساء.

١-١ مختلف الشيعة ٤: ٢٤٤ و ٢٤٨.

٢-٢ مختلف الشيعة ٤: ٢٩٤.

٣-٣ سورة البقرة: الآية ١٩٦.

ص: ٢٢

السابع: طواف الزيارة.

الثامن: ركعتاه.

التاسع: السعى بين الصفا والمروة.

العاشر: طواف النساء.

الحادى عشر: ركعتاه.

ويعتبر فيها مايعتبر فى طواف العمرة وصلاته، وسعيه، والترتيب فيها بينهما فلا يجوز تقديم السعى على طواف الزيارة، ولا تقديم طواف النساء عليه، وكذا بينهما وبين ماتقدم عليهما، فلا يجوز تقديم الطوافين والسعى على الوقوفين ومناسك منى إلا مع الضرورة، فيجوز فى الجميع على الأصح.

الثانى عشر: العود إلى منى لبقية المناسك قبل غروب الشمس، فيبيت بها لىالى التشريق الحادى عشر والثانى عشر، والثالث عشر لمن لم يتق الصيد والنساء فى حجه، أو غربت الشمس عليه يوم الثانى عشر بمنى، وإلا جاز له الاقتصار على الأوليين، ولو بات فى غيرها وجب عليه من كل ليلة شاء إلا إذا بات بمكة مشغلاً بالعبادة، أو خرج من منى بعد انتصاف الليل.

ويجب عليه أن يرمى كل يوم من أيام التشريق الجمار الثلاثة مراعيًا لشرائط الرمى المتقدمة، والترتيب يبدأ بالأولى ثم الوسطى، ثم يختم بالعقبه، ووقته من طلوع الشمس إلى غروبها، وبعد الزوال أحوط على الأصح الأشهر، ولا يجوز الرمى ليلاً إلا لعذر، ولو بات مع عدم الوجوب أو ترك معه ففى وجوب الرمى إشكال.

أمّا الخاتمة

ففيها بحثان:

البحث الأول: فى لوازم المحظورات:

محرمات الإحرام منها مالا يوجب فساداً، ولا كفارة، وهو الإدهان بغير الطيب على ماصرح به جماعة، والطيب الذى لا يدهن به كما هو ظاهر قول بعضهم، والمشهور أنه يوجب الكفارة (١).
ومنها ما يوجبها معاً وهو

ص: ٢٣

الجماع في إحرام الحج قبل الوقوف بالمشعر، وفي العمرة قبل السعي مع العلم بالتحريم، وذكر الإحرام فإنه يجب به الكفارة وهي بدنة، وقضاء النسك من قابل حجاً كان أو عمرة، وعليه إتمام ما أفسده مطلقاً، وفي حكم الجماع الاستمناء على قول قريب قوى (١). ومنها ما يوجب الكفارة خاصة دون الفساد وهو أقسام:

الأول: ما يوجب الكفارة مطلقاً مع العلم بالحكم والجهل، وتذكر الإحرام ونسيانه، وهو الصيد لا غير.

الثاني: ما يوجبها بشرط التعمد والعلم بالحكم مطلقاً من غير فرق بين المختار والمضطر، وهو لبس المخيط وإزالة الشعر وتقليم الأظفار، والإدهان بالطيب.

الثالث: ما يوجبها كذلك على المختار خاصة، كالتنظيل ولبس ما يستر ظهر القدم على قول (٢)، والأحوط ثبوت الكفارة في جميع المحرمات حتى الإدهان، وأنها لا تختص بالمختار في شيء منها إلا ما جرى فيه الاضطرار كالفسوق والجدال والترين؛ لقول الكاظم عليه السلام لأخيه علي بن جعفر: «لكل شيء خرجت من حجك فعليك دم تهريقه» (٣).

وقول الصادق عليه السلام في رواية عمر ابن يزيد فيمن عرض له الأذى أو وجع، فتعاطى مالا ينبغي للمحرم إذا كان صحيحاً: «فالصيام ثلاثة أيام، والصدقة على عشرة مساكين يشبعهم الطعام، والنسك شاء يذبحها فيأكل ويطعم وإنما عليه واحد من ذلك» (٤). وقد تجب الكفارة مع إباحة الفعل للمحرم اختياراً عند بعضهم كما في قلع الضرس (٥) وهو أحوط، وليبان مقادير الكفارات وتفصيلها محل آخر.

البحث الثاني

من فاته الحج سقط عنه أفعاله، ويتحلل بعمرة مفردة، وعليه الحج من

١-١ مختلف الشيعة ٤: ١٧١.

٢-٢ المقنعة: ٤٣٤.

٣-٣ قرب الاسناد: ١٠٤، تفصيل وسائل الشيعة ١٣: ١٥٨ ح ٥ باب ٨ أبواب بقية كفارات الاحرام.

٤-٤ تفصيل وسائل الشيعة ١٣: ١٦٦ ح ٢ باب ١٤ أبواب بقية كفارات الاحرام.

٥-٥ النهاية: ٢٣٥، مختلف الشيعة ح: ١٩٣.

ص: ٢٤

قابل إن استقر في ذمته.

وليكن هذا آخر ما أوردناه في هذه الرسالة.

ثم الرجاء من كاتب هذه الأوراق إلى ناظرها أن يذكره في تلك المشاعر.

الهوامش:

ص: ٢٦

جهة القبلة

العلامة الشيخ البهائي

تحقيق: هادي القبيسي

الحمد لله الذي عزفنا نفسه، وألهمنا شكره، ووفقنا لطاعته، وهدانا إلى قبيلته، والصلاة والسلام على خاتم رسله والأئمة من آله، المنقذين من الضلال، والهادين إلى الحق.

وبعد،

قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: بُني الإسلام على خمس: على الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، والولاية. الحديث (١).
وقال عليه السلام لسلمان بن خالد: ألا أخبرك بالإسلام، أصله وفرعه وذروة سنامه؟ قال: بلى جعلت فداك؛ قال: أما أصله فالصلاة، وفرعه الزكاة، وذروة سنامه الجهاد (٢).

وقال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في وصيته للحسن عليه السلام: الله الله في خير العمل فإنها عمود دينكم (٣).
فأول الأعمال وخيرها وأساسها الصلاة التي تشكّل العامل الأساسي في رُقيّ الروح، وشفاء النفس، وطهارة السريرة، وعلو الدرجات، كما قال

١-١ الوسائل ١: ١٣ باب ١ من أبواب مقدمات العبادات ح ١.

٢-٢ الوسائل ١: ١٤ باب ١ من أبواب مقدمات العبادات ح ٣.

٣-٣ الفقيه ٤: ١٩٠ باب رسم الوصية ح ٥٤٣٣.

ص: ٢٧

النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم:

«من حبس نفسه في صلاة فريضة فأتم ركوعها وسجودها وخشوعها ثم مجد الله عز وجل، وعظمه، وحمده، حتى يدخل وقت صلاة أخرى لم يبلغ بينهما، كتب الله له كأجر الحاج المعتمر، وكان من أهل عليين» (١).

فالصلاة من أجلى مصاديق تجسيد العبودية المتمخضة للمولى جل وعلا، فكل فعل من أفعال الصلاة يعطى معنى من معانى العبودية، فالسجود من أعظم مراتب الخضوع وأحسن درجات الخشوع والاستكانة، والركوع يظهر تواضع العبد واعترافه بعلو مرتبة ربه، والقيام أيضاً يذكر بالقيام بين يدي الله عز وجل، وأنه أمام ملك جبار.

وكذا الحال في التوجه إلى القبلة، فإنه في الحقيقة توجه إلى الله عز وجل، فلا بد أن يكون العبد متأدباً أمامه؛ لأن التوجه بالبدن يهتئ القلب إلى الانقطاع لله تعالى، لأننا إن لم نتوجه بقلوبنا وأبداننا يصرف الله وجه رحمته عنا.

ويؤيده قول الصادق عليه السلام: «إذا استقبلت القبلة فأيس من الدنيا وما فيها، والخلق وما هم فيه، واستفرغ قلبك عن كل شاغل يشغلك عن الله تعالى، وعاین بسرك عظمة الله تعالى، واذكر وقوفك بين يديه هنالك تبؤوا كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق» (٢).

، وقف على قدم الخوف والرجاء» (٣).

ثم إنه وقع الخلاف بين علماء الإسلام في كيفية التوجه إلى القبلة من بعيد، وفي العلامات المؤدية إلى جهتها.

فهذه الرسالة معقودة لبيان هذا الغرض المهم.

وفي كل حقبة من الزمن تبرز شخصيات فذة عظيمة الشأن يشار إليها بالبنان، قد تجلت فيها المواهب الحميدة، والطباع الكريمة، والهمم العالية، والنفوس الزاكية، فعاشت برهه من الزمن وغابت أشخاصها عنا، إلا أنها لا زالت تعيش في قلوبنا وأفكارنا، في محافلنا وأقلامنا العلمية، بل في كل كتاب

١- ١ الفقيه ١: ٢١١ باب فضل الصلاة ح ٦٤٢.

٢- ٢ يونس ٥: ٣٠.

٣- ٣ مصباح الشريعة: ٩١.

ص: ٢٨

وقرطاس، وكأنها خلقت لأكثر من زمانها التي عاشت فيه.

وليس بعيد هذا، لأنها كرسّت كل جهودها وطاقاتها لخدمة المذهب الشريف والدين الحنيف، فقد أنارت الدرب وخطت لنا نهجاً نسير عليه، ويحق لنا أن نقول: إنها عاشت لغيرها أكثر ممّا عاشت لأنفسها.

ومن هؤلاء الأفاضل شيخنا المترجم، العالم الأوحّد، علم الأئمة الأعلام، عضد الإسلام والمسلمين، الشيخ محمد بن الحسين بن عبد الصمد بن محمد الجبعي العاملي الهمداني، نور الله مرقده.

ولا يسعنا المجال بهذا المختصر ذكر إنجازاته وخدماته في الحقول العلمية والعملية، بل نحيل القارئ الكريم إلى المصادر المعقودة لهذا الغرض.

وكما سيأتي أن مصنفاته كثيرة وفي كل فنون الإسلام. فمن جملة مصنفاته هذه الرسالة التي بين يديك عزيزي القارئ.

ترجمة المؤلف

المترجمون لشيخنا الجليل كثيرون، ولا أريد أن أستوعب حياته الفدّة، لئلا يطول بنا المقام، وإنما أذكرها على سبيل الاختصار، وقد وقفت قليلاً على بعض النقاط المهمة في حياته قدس سره.

اسمه ونسبه:

هو الشيخ الجليل بهاء الدين، محمّد بن الحسين بن عبد الصمد بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن صالح الحارثي الهمداني الجبعي العاملي، نسبة إلى الحارث الهمداني، من خواصّ أمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام (١).

ولادته ونشأته:

وُلد في بعلبك - وقال أبو المعالي الطالوي: إنه وُلد بقزوين - يوم الخميس لثلاث عشرة بقين من شهر محرم الحرام - وفي السلافة عند غروب الشمس يوم

١- ١ أمل الآمل ١: ١٥٥، سلافة العصر: ٢٨٩-٣٠٢، لؤلؤة البحرين: ١٦، روضات الجنّات ٧: ٥٦، الأعلام ٦: ١٠٢، أعيان الشيعة ٩:

٢٣٤، رياض العلماء ٥: ٨٨.

ص: ٢٩

الأربعاء، لثلاث بقين من ذى الحجة الحرام - سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة (١).

ثم انتقل به والده وهو صغير إلى بلاد العجم، فنشأ في حجره بتلك الأقطار المحمية، وأخذ عن والده وغيره من الجهابذة، حتى أذعن له كل مناضل ومنابد، فلما اشتد كاهله، وصيفت له من العلم مناهله، وُلِّي بها شيخ الإسلام، وفوضت إليه أمور الشريعة الغراء، على صاحبها وآله الصلاة والسلام.

ثم رغب في الفقر والسياسة، واستهتب من مهاب التوفيق رياحه، فترك تلك المناصب، ومال لما هو لحاله مناسب، فقصد بيت الله الحرام، وزيارة النبي وأهل بيته الكرام، عليهم أفضل الصلاة والتحية والسلام، ثم أخذ بالسياسة، فساح ثلاثين سنة.. فإلى القدس مروراً بمصر، وإلى الحجاز ثم حلب، وإلى قزوین وغيرها من بلاد إيران، ثم رجع إلى إصفهان محتداه، وأوتى في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، واجتمع في أثناء ذلك بكثير من أرباب الفضل والحال، ونال من فيض صحبتهم ما تعذر على غيره واستحال، ثم عاد إلى مسكنه إصبهان، وهناك همى غيث فضله وانسجم، فألف وصنف، وقزط المسامع وشنف (٢).

عاش شيخنا البهائي وسط أسرة علمية، شريفة، كريمة، عريقة، حافلة بالمفاخر.

فوالده:

الشيخ عز الدين، الحسين بن عبد الصمد بن محمد الحارثي الهمداني الجبجي العاملی، كان عالماً ماهراً، محققاً، مدققاً، متبحراً، جامعاً، أدبياً، منشئاً، شاعراً، عظيم الشأن، جليل القدر، ثقة ثقة، من فضلاء تلامذة شيخنا الشهيد الثاني رحمه الله، له مناظرة لطيفة مع فضلاء حلب (٣).

وجده:

الشيخ عبد الصمد بن محمد بن علي الجبجي العاملی، كان فاضلاً عالماً (٤).

١-١ يقول الميرزا الأفندي رحمه الله في رياض العلماء ٥: ٩٧: ورأيت بخط بعض الأفاضل - نقلًا عن خط البهائي - أن مولده سنة ٩٥١.

٢-٢ سلافة العصر: ٢٨٩-٣٠٢، عنه أمل الآمل ١: ١٥٧-١٥٨، روضات الجنات ٧: ٦٢، لؤلؤة البحرين: ٢٢، أعيان الشيعة ٩: ٢٣٩، رياض العلماء ٥: ٩١، الأعلام ٦: ١٠٢.

٣-٣ أمل الآمل ١: ٧٤، الأعلام ٢: ٢٤٠، وقد طبعت مؤخرًا.

٤-٤ أمل الآمل ١: ١٠٩، عنه رياض العلماء ٣: ١٢٨.

ص: ٣٠

وقد عبّر عنه الحرّ في ترجمته ولده الحسين ب: الشيخ الصالح، العالم العامل، المتقى المتفّن، خلاصة الأختيار. وجدّ أبيه:

وهو الشيخ شمس الدين محمّد بن عليّ بن الحسين بن صالح الجبعي العاملي، فاضل، جدّ الشيخ حسين بن عبد الصمد العاملي، وقد أثنى عليه الشهيد الثاني قدس سره في إجازته لابن ابنه (١).

وعمّه:

الشيخ نور الدين أبو القاسم عليّ بن الشيخ عبد الصمد بن الشيخ شمس الدين محمّد الجبعي العاملي، فاضل، عالم، جليل، فقيه شاعر، من تلامذة الشهيد الثاني قدس سره، له رسالة «الدرّة الصفية في نظم الألفية» للشهيد الثاني، التي ذكر فيها أنّه من تلاميذه (٢).

وأخوه:

الشيخ عبد الصمد بن الحسين بن عبد الصمد العاملي، كان فاضلاً جليلاً، وقد صنّف لأخيه «الصمديّة» في النحو (٣).

وزوجته:

الشيخة بنت الشيخ عليّ المنشار العاملي، كانت عالمة، فاضلة، فقيهة، كان في جهازها يوم زُفّت إلى الشيخ البهائي كتب تامة في فنون العلم، وهي أربعة آلاف مجلّد.

وكان أبوها شيخ الإسلام بإصبهان أيام السلطان شاه طهماسب الصفوي، وكان قد جاء من الهند في سفره الذي سافر بكتب كثيرة، ولم يكن له غير هذه البنت، ولما مات انتقل كلّ ما كان عنده من الكتب والأموال والعقار إليها (٤).

وأولاده:

المشهور أنّه لم يعقب أولاداً، وقيل: أعقب بنتاً، يقول صاحب (الرياض):

١- ١ أمل الآمل ١: ١٣٨، رياض العلماء ٥: ٤٨، تكملة أمل الآمل: ٣٥٦.

٢- ٢ رياض العلماء ٤: ١١٤، أعيان الشيعة ٨: ٢٦٢، تكملة أمل الآمل: ٣٠٢.

٣- ٣ أمل الآمل ١: ١٠٩، رياض العلماء ٣: ١٢٣، أعيان الشيعة ٨: ١٦.

٤- ٤ رياض العلماء ٥: ٤٠٧، أعيان الشيعة ٢: ٢٧٥.

ص: ٣١

وكان لها حفدة معاصرون لنا (١). والبعض يقول: إنه كان عقيماً (٢).

أقوال العلماء فيه:

قال السيد عليّ خان المدني في «سلافة العصر»: علم الأئمة الأعلام، وسيد علماء الإسلام، وبحر العلم المتلاطم بالفضائل أمواجه، وفحل الفضل الناتجة لديه أفراده وأزواجه، وطود المعارف الراسخ، وفضاؤها الذي لا تحد له فراسخ، وجوادها الذي لا يؤمل له لحاق وبدرها الذي لا يعتريه محاق ... إليه انتهت رئاسة المذهب والملة، وبه قامت قواطع البراهين والأدلة ... فما من فنّ إلّوله فيه القدح المعلى، والمورد العذب المحلى، إن قال لم يدع قولاً لقاتل، أو طال لم يأت غيره بطائل ... (٣).

وقال الحر في الأمل: ... حاله في الفقه والعلم والفضل والتحقيق والتدقيق، وجلالة القدر، وعظم الشأن وحسن التصنيف، ورشاقة العبارة، وجمع المحاسن، أظهر من أن يذكر، وفضائله أكثر من أن تحصر.

وكان ماهراً، متبحراً، جامعاً، كاملاً، شاعراً أديباً منشئاً ثقة، عديم النظر في زمانه في الفقه، والحديث والمعاني والبيان والرياضي وغيرها (٤).

وقال السيد حسين بن السيد حيدر الكركي في بعض إجازاته: شيخنا الامام العلامة ومولانا الهمام الفهامة أفضل المحققين وأعلم المدققين خلاصة المجتهدين ...

كان أفضل أهل زمانه بل كان متفرداً بمعرفة بعض العلوم الذي لم يحم حوله من أهل زمانه ولا قبله على ما أظن (٥).

وقال السيد مصطفى التفرشي: جليل القدر، عظيم المنزلة، رفيع الشأن، كثير الحفظ، ما رأيت بكثرة علومه ووفور فضله، وعلو مرتبته أحداً في كل فنون الإسلام كمن كان له فنّ واحد (٦).

وقد أطراه جملة من العلماء الأعلام، أعرضنا عن ذكر مديحهم لئلا يطول المقام.

١- ١ رياض العلماء ٥: ٩٤.

٢- ٢ أعيان الشيعة ٩: ٢٤٢، تكملة أمل الآمل: ٤٤٧.

٣- ٣ سلافة العصر: ٢٨٩-٣٠٣، عنه في أعيان الشيعة ٩: ٢٣٤.

٤- ٤ أمل الآمل ١: ١٥٥.

٥- ٥ أعيان الشيعة ٩: ٢٣٤.

٦- ٦ نقد الرجال: ٣٠٣.

ص: ٣٢

أساتذته ومشايخه:

وهم كثيرون، نذكر منهم:

- ١- الشيخ عبدالعالى بن الشيخ على الكركى العالمى.
- ٢- الشيخ محمد بن الشيخ حسن (صاحب المعالم).
- ٣- السيد محمود بن على الحسينى المازندرانى.
- ٤- الشيخ عبدالله اليزدى.

تلامذته والرواة عنه:

كثيرون أيضاً، نخصّ منهم بالذّكر:

- ١- السيد حسين بن السيد حيدر الكركى.
- ٢- السيد ماجد البحرانى.
- ٣- المولى محمد صالح بن احمد المازندرانى.
- ٤- الشيخ زين الدين بن محمد بن صاحب المعالم.
- ٥- المجلسى الأول الشيخ محمد تقى.
- ٦- ملا محسن الفيض الكاشانى.

وفاته ومدفنه:

توفى سنة ١٠٣٠ هـ. ياصفهان وصلّى عليه تلميذه المجلسى الأول بحشد من الفضلاء والناس، ونقل إلى خراسان، ودفن فى المشهد الرضوى فى بيته الذى كان عند رجلى الضريح المقدّس (١).

وقال فى سلافة العصر: إنّه توفى سنة ١٠٣١ (٢)، وقيل: إنّه توفى سنة ١٠٣٥ هـ (٣).

تصانيفه (٤):

وهى كثيرة جداً نذكر بعضها على نحو الاستعراض:

الحديث:

- ١- شرح الأربعين حديثاً.

١- ١ رياض العلماء ٥: ٩٧، روضات الجنّات ٧: ٥٩، أعيان الشيعة ٩: ٢٣٤، الأعلام ٦: ١٠٢.

٢- ٢ سلافة العصر: ٢٨٩-٣٠٢.

٣- ٣ انظر: رياض العلماء ٥: ٩٢.

٤- ٤ أمل الآمل ١: ١٥٥-١٥٧، الأعلام ٦: ١٠٢، رياض العلماء ٥: ٨٨-٩٠، روضات الجنّات ٧: ٦٠-٦١، لؤلؤة البحرين: ٢٠-٢٢، أعيان الشيعة ٩: ١٤٤.

ص: ٣٣

الفقه:

- ١- الحبل المتين.
- ٢- رسالة في ذبائح أهل الكتاب.
- ٣- رسالة في الطهارة.
- ٤- الرسالة الاثنا عشرية في الصلاة.
- ٥- رسالة في الصوم.
- ٦- رسالة في الزكاة.
- ٧- رسالة في الحج.
- ٨- رسالة في الكفر.

الأصول:

- ١- حاشية شرح العضدي على مختصر الأصول.
- ٢- الزبدة في الأصول.
- ٣- لغز الزبدة.

الدراية:

- ١- رسالة في الدراية.

الرجال:

- ١- حاشية خلاصة العلامة مختصرة.

العقائد:

- ١- رسالة مختصرة في إثبات وجود صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف.
- ٢- رسالة في تحقيق عقائد الشيعة في الفروع والأصول، مفصلاً على اختصار.

التفسير:

- ١- حاشية البيضاوي.

ص: ٣٤

٢- رسالة في شرح قول البيضاوى في تفسير قوله تعالى: فسحقاً لأصحاب السعير الأديئة:

١- مفتاح الفلاح.

٢- الحديقة الهلالية.

٣- شرح الصحيفة السجادية، الموسوم ب: حدائق الصالحين.

البلاغة والنحو والأدب:

١- الكشكول، كبير.

٢- المخلاة.

٣- الصمدية.

٤- حاشية المطول.

٥- سوانح الحجاز، في شعره وإنشائه.

الفلك والهيئة والرياضيات:

١- رسالة في أن أنوار سائر الكواكب مستفاد من الشمس.

٢- رسالة الاضطراب، سماها: الصحيفة.

٣- خلاصة الحساب.

٤- رسالة في حل إشكالي عطارد والقمر.

٥- رسالة في القبلة (جهة القبلة).

نحن والرسالة:

وهي رسالة هيوية فقهية، تبحث عن أهم الموضوعات الفقهية التي يتوقف عليها عمل المكلف، وهو جهة القبلة، طبق القواعد الهيوية، مرفقة بشكل هندسى دقيق ذى زوايا قوائم وحواد ومنفرجات، حاول فيها المصنف إثبات الجهة بطريقة علمية متقنة، مع استعراض لآراء فطاحل العلماء، وإيراد الملاحظات على

ص: ٣٥

تعريفاتهم، وإثبات مدّعاه بقوة علمية كما سترى.

ثم إنَّ كلَّ من تعرّض من العلماء لترجمة شيخنا رحمه الله عدَّ هذه الرسالة من مصنّفاته (١) قائلاً: ورسالة في القِبلة، ولم يسمها، إلّا أن المصنّف رحمه الله قال في مقدمه الرسالة: ... إن تحقيق حقيقة جهة القِبلة، فالظاهر أنه استفيدت تسميتها من هذه العبارة.

ولذا قال العلّامة البحّاث الشيخ آقا بزرك الطهراني رحمه الله:

جهة القِبلة رسالة متوسّطة، تقرب من مائة وخمسين بيتاً، في بيان المراد من الجهة وما فسّرت به من السمات، للشيخ البهائي، المتوفى سنة ١٠٣١، أوّله:

أمّا بعد الحمد والصلاة، فيقول أقلّ العباد محمّداً، المشتهر ... إنَّ تحقيق حقيقة جهة القِبلة التي يجب على البعيد تحصيلها والتوجّه إليها، من المهمّات (٢).

نسخ الرسالة:

- ١- نسخة في مكتبة آية الله السيّد المرعشي النجفي قدس سره، ضمن مجموعة رقم ١٠٤، كتبت سنة ١٠١٨، ذكرت في فهرسها.
- ٢- نسخة في مكتبة البرلمان الإيراني السابق، ضمن مجموعة رقم ٣٢٨٠، كتبت سنة ١١١٧، ذكرت في فهرسها ١٠: ٨٩٨.
- ٣- نسخة في مكتبة البرلمان الإيراني السابق، ضمن مجموعة رقم ٣٣٤٧، كتبت سنة ١٠٩٠، ذكرت في فهرسها ١٠: ١١٤٧.
- ٤- نسخة في مكتبة البرلمان الإيراني السابق، ضمن مجموعة رقم ١٨٠٥، ذكرت في فهرسها ٩: ٣٦١.
- ٥- نسخة في مكتبة البرلمان الإيراني السابق، ضمن مجموعة رقم ٢٧٦١، ذكرت في فهرسها ٩: ١٦٣.
- ٦- نسخة في مكتبة البرلمان الإيراني السابق، ضمن مجموعة رقم ٤٤٧١، كتبت سنة ١٠٧٩، ذكرت في فهرسها ١٢: ١٥١.

١- ١ رياض العلماء ٥: ٩٠، روضات الجنّات ٧: ٦١، أعيان الشيعة ٩: ٢٤٤.

٢- ٢ الذريعة ٥: ٣٠١.

ص: ٣٦

٧- نسخة في مكتبة البرلمان الإيراني السابق، ضمن مجموعة رقم ٤٩٠٠، كتبت سنة ١٠٧٩، ذكرت في فهرسها ١٤: ٧٧.

٨- نسخة في مكتبة فاضل في خوانسار، رقم ١٤٧، كتبت سنة ١٠٦٢.

٩- نسخة في المكتبة المركزية لجامعة طهران، ضمن مجموعة باسم الدستور، رقم ٢١٤٤، كتبت سنة ١٠٧٩.

النسخ المعتمدة في التحقيق:

اعتمدت في عملي على نسختين:

١- نسخة محفوظة في مكتبة البرلمان الإيراني السابق، ضمن مجموعة ٤٤٧١، رقم الرسالة ١٦، مذكورة في فهرست المكتبة ١٢: ١٥١، وفي نهايتها كتب: تمت في ١٧ شعبان ١٠٧٩ هجرية، تقع هذه النسخة في ثلاث صفحات، كل صفحة تحتوي على ٢٥ سطراً، بقياس

١٧*٢٥ سم، وقد رمزنا لها ب (م).

٢- نسخة محفوظة في المكتبة المركزية لجامعة طهران، ضمن مجموعة كبيرة، باسم: الدستور، برقم ٢١٤٤، والرسالة في الورقة ٩٧

منها، مذكورة في فهرست المكتبة ٩: ٤٠٨، وعلى هامشها تعليقه من المصنّف أثبتناها في موضعها، وعلى هامشها في موضعين كلمة (بلغ) التي تدلّ على مقابلتها والعناية بها، وكتب في نهايتها: تمت في ١٧ شعبان ١٠٧٩، والملاحظ أنّ هذا الإنهاء يوافق إنهاء النسخة

السابقة، وهي في صفحتين، كل صفحة تحتوي على ٥٥ سطراً، وقد رمزنا لها ب (ج).

منهجية التحقيق:

اعتمدتُ عملية التلفيق بين النسختين مشيراً إلى الاختلاف في الهامش، فكان عملي كالتالي:

١- مقابلة النسختين والإشارة إلى الاختلاف في الهامش.

٢- تقويم النصّ وتقطيعه إلى فقرات.

ص: ٣٧

٣- تخريج الأحاديث الواردة من مصادرها الرئيسية.

٤- تخريج الأقوال الفقهية التي نقلها المصنف من مصادرها.

وفي الختام:

أقدم جزيل شكرى إلى كل من آزرنى وساعدنى على إخراج هذه الرسالة بحلّه لائقه، وأخص بالذكر مؤسس آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ومجلتها «تراثنا» التى نشرتها، كما أشكر إدارة مجلته ميقات الحج على إعادة نشر هذه الرسالة فى مجلتها المذكورة تعميماً لفوائدها القيمة ..

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

صورة الصفحة الأولى من نسخة (م)

ص: ٣٨

صورة الصفحة الأخيرة من نسخة (م)

ص: ٣٩

الرموز المذكورة في الرسالة مشيرة إلى هذا الشكل الهندسى الذى اعتمده المصنّف رحمه الله

ص: ٤٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد الحمد والصلاة؛

فيقول أقل العباد محمد، المشتهر ب: بهاء الدين العاملّي، عفا الله عنه:

إنّ تحقيق حقيقة جهه القبلة، التي يجب على البعيد تحصيلها، والتوجه إليها، من المهمّات؛ ليكون المتوجه عارفاً- في الجملة- بحقيقة ما يتوجه إليه ويستقبله.

وقد اختلف كلام فقهاءنا- قدس الله أرواحهم- في الكشف عنها، وبيان ماهيتها، مع أنه لا- مريّة لأحد في أنّها: «ما يكون العامل بالعلامات المقررة متوجّهاً إليها».

لكن، لما لم يكن هذا القدر كافياً في شرح حقيقتها- لكونه من قبيل تعريفها ب:

«ما يجب استقباله في الصلاة» وهو كالردّ إلى الجهالة- لأنّ الغرض شرح حقيقة ذلك الشيء الذي يجب استقباله، فلهذا لم يعول الفقهاء- رحمهم الله- على تعريفها بذلك، وأوردوا ما يشرح ماهيتها في الجملة:

[١] فعرفها العلامة- طاب ثراه- في المنتهى: ب «السمت الذي فيه الكعبة» (١).

وقد يُفسّر السمت هنا: بامتداد (٢) معترض في أحد جوانب الأفق.

[٢] وعرفها في التذكرة بأنّها: «ما يظنّ أنّه الكعبة حتّى لو ظنّ خروجه عنها لم تصحّ» (٣).

والظاهر أنّه أراد ب «ما يظنّ أنّه الكعبة» ما يظنّ اشتماله عليها، ويؤيده قوله:

«حتّى لو ظنّ خروجه عنها».

[٣] وعرفها شيخنا- قدس الله روحه- في الذكرى: ب «السمت الذي يُظنّ كون الكعبة فيه» (٤).

١-١ منتهى المطلب ١: ٢١٨.

٢-٢ في هامش «ج» تعليقه من المصنّف رحمه الله هذا نصّها: الظاهر أنّ المراد بالامتداد خطّ مستقيم، فإنّه هو المتبادر عند الإطلاق. منه.

٣-٣ تذكرة الفقهاء ٣: ٧، وعنه في مفتاح الكرامة ٢: ٧٥.

٤-٤ ذكرى الشيعة: ١٦٢، وعنه في مفتاح الكرامة ٢: ٧٥.

ص: ٤١

[٤] وقال شيخنا المحقق الشيخ عليّ - أعلى الله قدره - في شرح القواعد:

«الذي ما زال يختلج بخاطري أنّ جهة القبلة هي: المقدار الذي شأن البعيد أن يجوّز على كلّ بعض منه أن يكون هو الكعبة، بحيث يقطع بعدم خروجها عن مجموعه» (١).

[٥] وعرفها شيخنا الشهيد الثاني - نور الله مرقدته - في شرح الشرائع:

ب «القدر الذي يجوّز على كلّ بعض (٢) منه كون الكعبة فيه، ويقطع بعدم خروجها عنه، لأمانة يجوز التعويل عليها شرعاً» (٣).
[٦] وعرفها بعضهم بأنّها: «قوس من الأفق يجوّز على كلّ خطّ خارج من جهة الساجد (٤)، منتهياً إليه أن يمرّ بالكعبة». فهذه تعريفات (٥) سنّة للجهة.

وظنّي أنّه لا يسلم شيء منها من خلل، كما ستحيط به خبراً.

[٧] ولو عرّفَتْ بأنّها «أعظم سمّت يشتمل على الكعبة قطعاً أو ظناً، بحيث تتساوى نسبة أجزائه إلى هذا الاشتمال من غير ترجيح» لكان أقرب إلى السلامة، كما ستعرفه إن شاء الله تعالى.

تمثيل:

لنفرض دائرة أفقاً من الآفاق العراقية، كالكوفة، والمصلّى على مركزها وهو نقطة (د).

وقد أدّته الدلائل أو الأمارات إلى أنّ قبلة الكوفة في جانب الجنوب ..

إمّا بالسفر منها إلى مكة وتدبر الطريق.

أو للعمل بالأمارات المعروفة لأهل العراق، كجعل الجدي على المنكب الأيمن، والمغرب والمشرق (٤) على اليمين واليسار، ولنفرضه قاطعاً أو ظاناً وقوع الكعبة في امتداد (ب-ج) (٧).

بحيث يُجوّز على كلّ جزءٍ منه أن يكون فيه الكعبة، ويقطع بعدم خروجها عن مجموعه (٨).

١-١ جامع المقاصد ٢: ٤٩.

٢-٢ في المصدر: كلّ جزءٍ.

٣-٣ مسالك الأفهام ١: ١٥١.

٤-٤ في «م»: المساجد.

٥-٥ في «م»: تفرّعات.

٦-٦ في «م»: والمشرق والمغرب.

٧-٧ في «م»: ب-ح.

٨-٨ لفظ «عن مجموعه» لم يرد في «م».

ص: ٤٢

فخطُّ (ب-ج) هو السمُّ الذي هو عبارة عن جهة القبلة على التعريفات الخمسة الأولى، والسابع. فإذا استقبل المصلِّي أيَّ جزء من أجزائه كان مستقبلاً للقبلة، سواءً كان الخطُّ الخارج من موضع سجوده منتهياً إليه، مقاطعاً له على قوائمه كخطِّ (د-ه) أو حوَّادٍ ومنفراجات كخطِّ (د-ب)، (د-ج).

ومن ثمَّ حكموا باتساع الجهة واعتفارٍ يسير الانحراف، وربما نزلوا ما يترأى من التخالف بين علامات قبلة العراق، على ذلك. وأمياً على التعريف السادس: فسُمِّت القبلة - أعنى جهتها - هو: قوس (ط-ي) ووجه عدم حمل الجهة في التعريفات الأولى على هذا القوس، ظاهر، لظهور أنَّ الكعبة غير واقعة على محيط الأفق الحقيقي ولا الحسي.

ولو أُريد بالأفق ما ينصف الأرض فقط، لم يلزم وقوعها على محيطه أيضاً، وإنما يتحقَّق ذلك في بلدٍ يكون غايه ميل أفقه عن أفق مكة بقدر ربع الدور.

ثمَّ لا يخفى أنَّ مرور الخطِّ المذكور في التعريف السادس بالكعبة إنما يتحقَّق في موضع تكون الكعبة واقعةً فوق أفقه، فلا تغفل.

*** فصل

اعتراض شيخنا المحقق الشيخ عليّ - أعلى الله قدره - في (شرح القواعد) على تعريف (التذكرة): «بأنَّ البعيد لا يُشترط في صحته صلواته ظنُّ محاذاه الكعبة، وبأنَّ الصفَّ المستطيل يحكم بخروج بعضهم عنها، فيلزم بطلان صلواتهم، وأظهر منه مَنْ يصلِّي بعيداً عن محراب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأزيد من مقدار الكعبة» (١).

ثمَّ إنَّه رحمه الله أرجع تعريف (الذكرى) إلى تعريف (التذكرة) (٢)، وظاهر كلامه أنَّه

١-١ جامع المقاصد ٢: ٤٨ باختلاف يسير.

٢-٢ حيث قال: «وما ذكره لا يكاد يخرج عن كلام التذكرة» المصدر السابق ص: ٤٩.

ص: ٤٣

حمل (السمت) فيه على الخطّ المتوهم امتداده من المستقبل في الصوب الذي يستقبله. وهو كما ترى.

والظاهر أن مراد العلامة ما ذكرناه قبيل هذا، وأن المراد بالسمت في تعريف (الذكرى): هو الامتداد المعترض، لا الطولى. وكيف يُظنّ بهذين الشيخين - طاب ثراهما - القول بأن عين الكعبة قبله للبعيد؟! مع أنهما مصرّحان في كتبهما بخلافه، بل لم يذهب أحد من علمائنا إلى ذلك، وإنما هو مذهب بعض العامة (١).
توضيح:

الباعث على اشتراط الشيخين - أعلى الله قدرهما - أن يجوز على كلّ بعض من ذلك المقدار (٢) أن يكون هو الكعبة، المحافظة على طرد التعريف، لصدقه بدونه على مقدار يُقطع أو يُظنّ عدم وقوع الكعبة في بعض أجزائه، كمجموع خطّ (ز-ح) فإنّه يقطع بعدم خروج الكعبة عن مجموعها، مع أنّه ليس هو بمجموعه الجهة، وإنما الجهة بعضه، أعنى خطّ (ب-ج) (٣).
(فلا يجوز استقبال شيء من أجزاء خطّ (ز-ب) (٤).
، ولا خطّ (ج-ح)، وهذا ظاهر.

وأما سبب تقيدهما بالقطع بعدم خروج الكعبة عن مجموع ذلك المقدار، فلاّنه لولا هذا القيد لصدق التعريف على خطّ (ه-ج) (٥).
مثلاً، فإنّه يجوز على كلّ جزء منه أن يكون هو الكعبة، مع أنّه بعض الجهة لا نفسها، فإنّ الجهة تبطل الصلاة بالخروج عنها، وليس خطّ (ه-ج) كذلك.

ومن هذا يظهر عدم مانعيّة التعريف السادس، لصدقه على قوس (ك-ي) مثلاً.
ونحن لما اعتبرنا في التعريف الأخير «أعظم سمت» سلّم طرده من هذا الخدش.

١- ١ وهم: الجرجاني من الحنفيين وأحد قولى الشافعى.

انظر: المجموع ٣: ٢٠٧ و ٢٠٨، فتح العزيز ٣: ٢٤٢، شرح فتح القدير ١: ٢٣٥، الكفاية ١: ٢٣٥، شرح العناية ١: ٢٣٥، عمدة القارى ٤: ١٢٦، المغنى ١: ٤٩١ و ٤٩٢ و ٥١٩، نيل الأوطار ٢: ١٨٠.

٢- ٢ فى «م»: المقدر.

٣- ٣ فى «م»: ز-ب.

٤- ٤ ما بين القوسين لم يرد فى «م».

٥- ٥ فى «م»: ه-ح.

ص: ٤٤

تتمّة:

ثمره تقييد شيخنا الشهيد الثاني رحمه الله بقوله: «لأماره يجوز التعويل عليها شرعاً» إخراج الجهات الأربع للمتخير. وقد صرح - طاب ثراه - بذلك حيث قال: «احترزنا بالقيد الأخير عن فاقد الأمارات، بحيث يكون فرضه الصلاة إلى أربع جهات، فإنه يُجوز على كل جزء من الجهات الأربع كَوْن الكعبة فيه، ويقطع بعدم خروجها عنه، لكن لا لأماره شرعية» (١). انتهى. ومراده رحمه الله بالقطع المذكور: القطع بعدم خروج الكعبة عن مجموع أجزاء الجهات الأربع، لا ما يُعطيه ظاهر العبارة. فإن قلت: كل واحدة من الجهات الأربع جهة القبلة في حق المتخير، فكان الواجب إدراجها في التعريف لا إخراجها. قلت: لعله لما لم تبرأ الذمة بالتوجه إلى واحدة بعينها لم يجعلوها جهةً، فإن الجهة ما تبرأ الذمة من الاستقبال بالتوجه إليها. هذا، وأنت خير بأن زيادته رحمه الله هذا القيد على تعريف المحقق الشيخ علي - أعلى الله قدره - كالتصريح بعدم سلامه طرده بدونه.

وظني أنه - أعلى الله قدره - أراد بالمقدار: السم، على ما مر تفسيره، فلم يحتج إلى ذلك القيد، إذ لا قطع للمتخير بعدم خروج الكعبة عنه.

*** فصل

إذا حصل القطع بعدم خروج الكعبة عن سمت معين كسمت ز - ح مثلاً، وجوز على كل بعض من أبعاضه - كخطوط ز - ب، ب - ج، ج - ح، اشتماله عليها.

فلا يخلو:

ص: ٤٥

إمّا أن يكون جميع تلك الأبعاد متساوية الأقدام في احتمال هذا الاشتمال من غير ترجيح.

أو يكون اشتمال بعضها- كامتداد (ب-ج) مثلاً- أرجح في ظنه عن سائر الأجزاء.

وعلى الأول: لا ريب في أن مجموع ذلك السمّ هو الجهه في حقه، وأنّ ذمته تبرأ بالاستقبال أيّ بعض من الأبعاد شاء.

وأما على الثاني، فوجهان:

أحدهما: أن يكون حكمه كالأول من غير تحتم استقبال الأجزاء الراجحة الاشتمال.

والثاني: أن يجب عليه تخصيص الاستقبال بتلك الأجزاء، فلا تصحّ صلاته إلى الأجزاء المرجوحة الاشتمال.

وهذا هو الأصحّ، لفتح التعويل على المرجوح مع التمكن من الراجح، ولقول الصادق عليه السلام في موثقه سماعه: «تعمد القبلة

جهدك» (١).

ومن ثمّ، حكموا بوجوب رجوع من فزضه التقليد- في القبلة أو غيرها- إلى أعلم المجتهدين وأوثقهما.

وأنت خير بأنّ الاستفادة من تعريفى الشيخين في الشرحين هو الوجه الأول، وللبحث فيه مجال واسع، فلا تغفل.

إشارة:

اشترط (٢) الشيخين- طاب ثراهما- في الشرحين القطع بعدم خروج الكعبة عن ذلك المقدار، موضع نظر.

فإنه يعطى أن: من لم يقدر على تحصيل القطع المذكور، بل جوز على كلّ واحد من المقادير الأربعة في جوانب الأفق أن يكون فيه

الكعبة، لكن كان وقوعها في واحد معين منها أرجح في نظره من وقوعها (٣) فيما عداه، لم يكن (٤) ذلك المقدار

١- ١ الوسائل ٤: ٣٠٨ باب ٦ من أبواب القبلة ح ٢ و ٣، الكافي ٣: ٢٨٤ ح ١، التهذيب ٢: ٤٦ ح ١٤٧، و ٢: ٢٥٥ ح ١٠٠٩، والاستبصار

١: ٢٩٥ ح ١٠٨٩.

٢- ٢ في «م»: إشارة الشيخين.

٣- ٣ في «م»: وقوعهما.

٤- ٤ «لم يكن» جزاء «من لم يقدر».

ص: ٤٦

المظنون- وقوُع الكعبة فيه- جهةً في حَقِّه (١): لأنه غير قاطع بعدم خروج الكعبة عنه. وهو كما ترى.

والحقُّ: أن كونه جهةً (٢) في حَقِّه ممَّا لا ينبغي الامتراء فيه (٣).

إيضاح:

قد ذكر علماؤنا- رضى الله عنهم-: أنه إنما يجوز التعويلُ في تحصيل جهة القبلة على الظنِّ، مع العجز عن العلم. أمَّا مَنْ كان قادراً على تحصيل العلم بالجهة، من غير مشقة شديدة، عادةً، فلا- يجوز له التعويل على الظنِّ، وقد دلت على ذلك صحيحة زرارة، عن الباقر عليه السلام، قال: «يجزى المتحير (٤) أبداً أينما توجه إذا لم يعلم أين وجه القبلة» (٥). فإنها تعطى بمفهومها الشرطى (٦) أن التحرى- أعنى: الاجتهاد- إنما يجزى إذا لم يكن للمكلف طريق إلى العلم. وبهذا يظهر أن تعريف (المنتهى) أقرب إلى الصواب من تعريفى (التذكرة) و (الذكرى)؛ لشموله ما فيه الكعبة قطعاً، وما هي فيه ظناً لا غير، واختصاصهما (٧) بالظنِّ، فيختل عكسهما بالجهة المقطوع كون الكعبة فيها. تنبيه:

يظهر ممَّا تلونا عليك سابقاً: أن التعريفات الثلاثة- أعنى تعريف: المنتهى، والتذكرة، والذكرى- منتقضة الطرد بالسمت الذى يُقطع بخروج الكعبة عن بعض أجزائه، إذا قطع أو ظنَّ اشتمال الأجزاء الأخر عليها. كما أن الثانى والثالث منها مُنتقضا العكس بالجهة المقطوع كون الكعبة فيها. وأمَّا تعريف الشيخين فى الشرحين (٨): فقد لَوْحنا إليك قبيل هذا بما يُشير إلى اختلالهما أيضاً طرداً وعكساً.

١- ١ فى «م»: «جهة» بدل «حقه».

٢- ٢ فى «م»: حجة.

٣- ٣ كتب فى هامش «ج» هنا: «بلغ».

٤- ٤ فى «ج»: المتحرى.

٥- ٥ الوسائل ٤: ٣١١ باب ٨ من أبواب القبلة ح ٢، الفقيه ١: ١٧٩ ح ٨٤٥.

٦- ٦ فى «م»: بمفهومها الشرعى.

٧- ٧ فى «م»: واختصاصها.

٨- ٨ وهما: الشهيد الثانى فى شرح الشرائع، والكركى فى شرح القواعد.

ص: ٤٧

أما الطرد: فبالسمت المقطوع عدم خروج الكعبة عنه، إذا ترجح وقوعها في بعض أجزائه على الوقوع في البواقي، فإنَّ الجهة إنما هي الأجزاء المظنونة الاشتمال عليها لا غير.

وأما العكس: فبالسمت الذي يُظنَّ عدم خروج الكعبة عنه مع العجز عن تحصيل القطع بذلك.

وأما التعريف السادس: فهو وإنَّ سَلِمَ طرده ممَّا انتقض به طردُ التعريفات الثلاثة، الأوَّل من سمت المقطوع بخروج الكعبة عن بعضه، كما سلم عكسه ممَّا انتقض به عكس الثاني والثالث من الجهة المقطوع كون الكعبة فيها، لكنَّه لم يَسَلِمَ طرده من الانتقاض ببعض أجزاء الجهة، وبما انتقض به طرد تعريفيَّ الشيخين - قدس الله روحهما -.

تبصرة:

قد استبان لك عدم سلامة شيء من التعريفات الستة من اختلال في الطرد، أو العكس، أو فيهما معاً.

فلنعدُّ إلى التعريف السابع، الذي اخترناه، فنقول:

إنَّما اعتبرنا فيه «أعظم سمت» لئلاَّ ينتقض طرده ببعض أجزاء الجهة.

ولم تقتصر على الظنِّ - كما في تعريفيَّ التذكرة والذكري - لئلاَّ ينتقض عكسه بالسمت الذي يُقطع بعدم خروج الكعبة عنه.

ولا على القطع - كما في تعريفيَّ الشيخين - لئلاَّ يُنتقض بالجهة المظنون كون الكعبة فيها، عند العجز عن تحصيل القطع بذلك.

وأما قيد الحيثية؛ فلا إخراج سمتٍ يكونُ اشتمال بعض أجزائه على الكعبة أرجح، إذ الحقُّ: أنَّ الجهة - حينئذٍ - ليست مجموع ذلك السمات، بل بعضه، أعنى:

الأجزاء التي يترجَّحُ اشتمالها على الكعبة، بشرط تساوى نسبة الرجحان إلى جميعها، فلا يجوزُ للمصلِّي استقبال الأجزاء المرجوَّه الاشتمال عليها، خلافاً

ص: ٤٨

للمستفاد من تعريفي الشرحين.
والله سبحانه أعلم (١) بحقائق الأمور.

هذا ما خطر بالبال، الكثير الاختلال، مع ضيق المجال، وتراكم الأشغال، والحمد لله أولاً وآخراً، وباطناً وظاهراً (٢).
مصادر التحقيق:

- ١- أعيان الشيعة: للسيد محسن الأمين، دار التعارف، بيروت.
- ٢- الاستبصار: للشيخ الطوسي، دار الأضواء، بيروت.
- ٣- الأعلام: لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت.
- ٤- أمل الآمل: للحزب العامل، مكتبة الأندلس - بغداد.
- ٥- تذكرة الفقهاء: للعلامة الحلي، مؤسسه آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم.
- ٦- تكملة أمل الآمل: للسيد حسن الصدر، منشورات المكتبة العامة للمرعشي النجفي، قم.
- ٧- تهذيب الأحكام: للشيخ الطوسي، افسيت دار الأضواء، بيروت.
- ٨- جامع المقاصد: للمحقق الكركي، مؤسسه آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم.
- ٩- الدرعية: لآقا بزرك الطهراني، افسيت دار الأضواء، بيروت.
- ١٠- الذكرى: للشهيد الأول، مكتبة بصيرتي، قم.
- ١١- روضات الجنات: للميرزا باقر الخوانساري، مؤسسه إسماعيليان، قم.
- ١٢- رياض العلماء: للميرزا الأفندي، منشورات المكتبة العامة للمرعشي النجفي، قم.
- ١٣- سلافة العصر: للسيد علي خان المدني، المكتبة المرتضوية، طهران.
- ١٤- شرح العناية: لمحمد بن محمود البابرتي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ١٥- شرح فتح القدير: لكamal الدين محمد بن عبد الواحد، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١- ١ في «م»: عليهم.

٢- ٢ ورد في نهاية «م» و «ج»: تمت في ١٧ شعبان تسع وسبعين وألف.

ص: ٤٩

- ١٦- عمدة القارى: لبدر الدين أبى محمّد محمود بن أحمد العيني، دار الفكر، بيروت.
- ١٧- فتح العزيز: لأبى القاسم عبد الكريم بن محمّد الرافعى، دار الفكر، بيروت.
- ١٨- الكافى: لثقة الاسلام الكلينى، افسيت دار الأضواء، بيروت.
- ١٩- الكفاية: لجلال الدين الخوارزمى الكرلانى، دار إحياء التراث العربى، بيروت.
- ٢٠- لؤلؤة البحرين: للشيخ يوسف البحرانى، مؤسسه آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم.
- ٢١- المجموع: لأبى زكريا محبى الدين بن شرف النووى، دار الفكر، بيروت.
- ٢٢- مسالك الأفهام: للشهيد الثانى، مؤسسه المعارف الاسلاميه، قم.
- ٢٣- المغنى: لموفق الدين وشمس الدين ابنى أبى قدامه، دار الفكر، بيروت.
- ٢٤- منتهى المطلب: للعلامة الحلّى، إيران.
- ٢٥- من لا يحضره الفقيه: للشيخ الصدوق، مؤسسه النشر الإسلامى التابعه لجماعه المدرسين، قم.
- ٢٦- نقد الرجال: للسيد مير مصطفى التفريشى، انتشارات الرسول المصطفى، قم.
- ٢٧- نيل الأوطار: لمحمّد بن على بن محمّد الشوكانى، دار الجيل، بيروت.
- ٢٨- وسائل الشيعه: للحرّ العاملى، مؤسسه آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم.
- الهوامش:

لقاء و حوار مع سماحة آية الله الهاشمي الرفسنجاني

ص: ٥٢

لقاء و حوار مع سماحة آية الله الهاشمي الرفسنجاني

: سماحة آية الله الهاشمي! نشكركم في بدء هذا اللقاء على ما خصصتموه لنا من وقتكم وكما تعلمون أن مؤتمر الحج العظيم يُقام في كل عام على أبهى صورته بحضور حشد غفير من مسلمي العالم. نرجو أن تبينوا لنا كم مرة تشرفتم إلى حج بيت الله الحرام، ومتى كان أول سفر لكم إلى تلك الديار؟

الشيخ الهاشمي: تشرفت بحج بيت الله الحرام أربع مرّات حتّى الآن؛ مرّتان قبل الثورة، ومرّتان بعد انتصار الثورة. كنت في السفر الأوّل شاباً صغيراً حينما عزم والدي ووالدتي على الذهاب إلى مكّة. وبما أنني كنت أدرس العلوم الدينيّة وأعرف شيئاً من اللّغة العربيّة، وكان بإمكانني أن أكون لهما عوناً، فقد اصطحباني معهما. وكان ذلك الحجّ نيابة عن شخص متوفّي من أقاربنا.

وصادف سفرنا حينذاك في فصل الصيف وكان الجوّ حارّاً، والمستلزمات الضروريّة لدى القوافل قليلة جداً. وكان السفر يتّصف بالمشقّة الشديدة؛ إذ لم يكن هناك ماء وطعام بالقدر الكافي، ولم يكن النقل يجري على النحو

ص: ٥٣

المطلوب. وخلاصة القول هي أنّ شؤون الحجّ كانت تدار إدارةً ضعيفةً.

وكان المطوّفون يؤذون الحجّاج كثيراً.

وفي المرّة الثانية ذهبت أيضاً على نحو مشابه لتلك الصورة، غير أنّ سفري في هذه المرّة كان برفقة بعض طلبه العلوم الدينية

المتوائمين فكرياً، فكُنّا أكثر ارتياحاً من هذا الجانب. بيد أنّ الوضع لم يختلف عمّا كان عليه في السابق.

وعلى العموم فإنّ السفر إلى مكّة لم يكن قبل الثورة أمراً سهلاً.

: كم كان عمركم في الحجّ الأوّل؟

الشيخ الهاشمي: أظنّ أنّ ذلك كان في عام ١٩٥٢ أو عام ١٩٥٣ وكان سنّي فيه أقلّ من عشرين سنه.

: ما هو شعوركم في أوّل مرّة وقد وقع فيها بصركم على بيت الله الحرام؟

الشيخ الهاشمي: لقد انتابني شعور غامر؛ فالإنسان في سنّ الشباب يتّصف عادةً بالشوق والاندفاع، وكنت طوال سفري أفكّر في كل

لحظة وأتمنّى أن أرى الحرم والكعبة، وبعد رجوعي إلى إيران كنت كلّما أتوجّه نحو القبلة للصلاة أشعر وكأنني داخل الحرم، وبقي

هذا الشعور يساورني على نحو قوي. كان الحجّ في تلك الأيام من الأمانى التي قلّما تُنال.

وبعد انتصار الثورة ذهبت مرّة واحدة لأداء الحجّ الواجب، وكان آخر سفر لي في العام الماضي لأداء العمرة.

: بما أنّكم تشرفتم بزيارة مكّة المكرمة والمدينة المنورة قبل وبعد

ص: ٥٤

الانتصار الباهر للثورة الإسلامية، ما هي التغييرات التي شاهدتموها في إقامة شعائر الحج؟

الشيخ الهاشمي: في تلك الأيام أيضاً كان الحجاج يتصفون بحالات روحية ومعنوية طيبة، فهذه المشاعر لا تختص بحالة الحجاج في الوقت الحاضر. غير أن هذا السفر كان له انعكاسات أكثر في بناء الذات وتهذيب النفس بسبب المصاعب التي كانت تتخلله. كُنّا في تلك المرحلة نعيش في أجواء التقية، وكُنّا على استعداد لتحمل أي لون من ألوان الرياضة الروحية.

كانت العربية السعودية تعاني حينذاك من أزمة شديدة في المياه، وكُنّا مضطرين لشراء الماء حتى لأغراض الغسل! كانت القوافل تعاني صعوبة في توفير الطعام؛ إذ كان توفير الطعام في تلك الأجواء الحارة موكولاً إلى الحجاج أنفسهم، أما في الوقت الحاضر فقد أخذ بنظر الاعتبار توفير مستلزمات رفاهية خاصة للزوّار. ويوجد في كل قافلة شخص أو عدة أشخاص كمرشدين روحيين ينهضون بمهمة تعليم وإرشاد الحجاج، وتوجد هناك أيضاً برامج ثقافية وإعلامية من قبيل توزيع النشرات باللغة الفارسية للحجاج الإيرانيين.

وبعبارة أخرى: أن وضع الحج حالياً لا يمكن مقارنته بما كان عليه قبل الثورة. في تلك الأيام كان أكثر الحجاج يتوجهون إلى الحج وهم يحملون مشاعر الغربة، حتى كان يُتخيل بأن التقشف والرياضة الروحية كانت جزءاً من مناسك الحج!

أما من حيث العلاقات الاجتماعية والدينية والسياسية فلم تكن الحالة المطلوبة هي الحالة السائدة في حج ما قبل الثورة. لكن الحج اتخذ طابعاً سياسياً في مقطع تاريخي تزامن مع جهاد الشعب الجزائري مثلاً. كان الجزائريون والفلسطينيون ناشطين في الحج، وكانوا يجمعون التبرعات

ص: ٥٥

للمجاهدين ويوزعون البيانات في الحرم، وكُنّا نشاهد الجزائريين والفلسطينيين يلقون الخطابات الثورية هنا وهناك، وكان الكلام الذي نسمعه هناك بمثابة شيء جديد متحف لنا. وكُنْتُ أرى في ذلك الحين أنّ الحج مقرون بالسياسة. وكان يترآى لي أنّ المملكة العربية السعودية لا تمنع من قيام مجاهدي البلدان الاخرى بنشاط إعلامي سياسي على أراضيها. لقد اتخذت تلك الشعائر السياسية في الوقت الحاضر طابعاً أكثر رسمياً وصارت تُعقد على شكل «مراسم البراءة» وما شاكلها.

كان يحصل أحياناً أننا نتباحث مع علماء السنّة، وكانت أكثر النقاشات وتبادل الآراء يدور حول محور المسائل الكلامية وكذلك المسائل السياسية في إطار جهاد الشيعين الفلسطيني والجزائري، على اعتبار أنّهما كانتا تمثّلتان القضيتين الأساسيتين في العالم الإسلامي آنذاك.

والحقيقة هي أنني لم يكن لدى في السفرين الأوّلين استعداد كافٍ في مجال المباحث السياسية والحكومية.

: سماحة الشيخ الهاشمي! بما أن عام ١٣٧٨ هـ. ش [وفقاً للتقويم الهجري الشمسي المتخذ في إيران كتقويم رسمي للبلاد] قد أُعلن من قبل قائد الثورة باسم عام الإمام الخميني (قدّس سرّه)، يرجى من سماحتكم أن تسلّطوا الأضواء على الرؤى العامّة لسماحة الإمام الخميني ونظراته إلى مختلف أبعاد الحجّ.

الشيخ الهاشمي: للإمام الخميني أقوال معروفة بشأن الحج. وقد وصف الحج ب «المؤتمر العبادي- السياسي». هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى بما أنّ سماحته كان يحمل نزعة تعبدية ويميل إلى العرفان والسلوك، فهو كان يعير أهميّة كبيرة للأبعاد المعنوية لهذه الفريضة، ولا ينبغي أن يتوهّم أحد بأنّه

ص: ٥٦

كان يعطى الغلبة للمسائل السياسية في الحج. وأنا إنما أطرح هذا الادعاء بناءً على ما كنت أستوحيه من كلامه قبل الثورة. فأنا أتذكر بأننا حينما كنا نتحدث عن الحج في مجالسه آنذاك، ما كان يرضى لنا بأن نعطي الحج نشاطاً سياسياً واسعاً بحيث يطغى على المسائل العبادية.

ولا زال يحضرنى أن سماحته كان يؤكد على هذا الحديث، وهو أن الحاج يصبح بعد الطواف وكأنه قد وُلد من جديد. إذاً أقل ما ينبغي استحصاله من الحج هو أن يتطهر الحاج مما لحق به من دنسٍ في الماضي، وعند العودة إلى وطنه يبدأ حياته من جديد بتلك الطهارة التي ولدته عليها أمه.

أما بالنسبة إلى الأفق السياسي في الحج فينبغي القول: إن الإمام الخميني قد أحيا هذا الجانب الذي كان متروكاً. ومما يسترعى الانتباه هو أن هذا البعد قد دخل في فلسفة الحج كحكم ديني وليس بالضرورة كنزئيه سياسيه. والحج الحقيقي كان مقروناً بالسياسة منذ بدايته، غير أن هذا الجانب قد أهمل منذ مدةٍ مديدة، وبقي البعد السياسي للحج يجرى على نحو غير رسمي، ويقتصر مجاله على عدد محدود من القوى الثورية والجماعات المجاهدة. بيد أن هذا النوع من النظرة إلى الحج لم تكن شائعة بين عموم الناس. ولم يكن اتخاذ الحج كأرضية للعمل السياسي أمراً مقبولاً لدى الحكومات. وما كانت الحكومات ترجو من الحجاج الذين تبعثهم لزيارة بيت الله سوى الاكتفاء بالمسائل العبادية للحج.

وأنا أظن أن هذا التغيير الذي حصل في نظرة الحكومات إلى فلسفة الحج كان من ابتكار الإمام الخميني، ولكن كان له وجود سابق لدى الأحزاب والتيارات والحركات السياسية التي كانت تستفيد من الحج لأهدافها بسبب ما فيه من حشد جماهيري غفير. ولما كان الإمام الخميني إلى جانب قيادته، مرجعاً للتقليد، فقد نفذ

ص: ٥٧

كلامه- ولحسن الحظ- في أعماق قلوب أبناء شعبنا والكثير من أبناء الشعوب الأخرى، وأدى إلى أن تصطبغ شعائر الحج بصبغة جديدة وذات طابع رسمي. ولكن من المؤسف أن هذا المكسب العظيم تلوث بمسائل مثيرة للاختلاف والنزاع والتخاصم وغيرها من المشاكل والحوادث الأخرى التي خلقت معوقات في طريق تكامله.

واعتقد لو أننا أرسينا أسس حركة البراءة هذه وفقاً لرؤيته واقعية وبالتنسيق مع الحكومة السعودية وبعض الدول المؤثرة بحيث يحظى طرح المسائل السياسية للعالم الإسلامي ولل قضايا الإسلامية الدولية في الحج بقبول رسمي ولا يجابه معارضة من بقية الدول الإسلامية، فسيكون لها تأثير بناء إلى حد بعيد.

: لا شك في أن مؤتمر الحج يشكل أهم تجمع إسلامي، وتشارك في هذا الملتقى الإسلامي الواسع تيارات شتى من تيارات الثقافة الإسلامية وشخصيات يحملون رؤى مختلفة. فما هي في رأي سماحتكم الفوائد المهمة التي يمكن جنيها من شعائر الحج، خاصة في المجال الثقافي؟

الشيخ الهاشمي: إنني اعتبر المعطيات السياسية لهذا السفر الديني مهمة إضافة إلى ما فيه من فوائد ثقافية. وعلى كل حال فإن المناخ الذي يوفره حضور الحجاج هناك يختلف عن الأجواء الفكرية والثقافية الأخرى؛ فالشخص الذي يتوجه إلى بيت الله الحرام لأداء مناسك الحج ينطلق من داره إلى هناك بنوع من الاستعداد والتأهب لاستلهاام الحقائق الثقافية والمسائل العرفانية والحياة المعنوية التي سيلقاها هناك. والجو الثقافي الذي يعيشه الحجاج هناك يختلف عن الأجواء الثقافية الموجودة في ملتقيات أخرى كالملتقيات الشعرية، أو المسابقات الرياضية أو المؤتمرات السياسية

ص: ٥٨

والاقتصادية وما شاكل ذلك. فالحج يسوده مناخ خاص، والمستمعون فيه مستمعون أجلاء. ولو أنّ البعض هناك يقللون من حدّة العصبية القومية والمذهبية ويتحلّون بدل ذلك بروح متحرّرة؛ لأصبح ذلك المكان موضعاً للبحث الجاد فى سبيل اختيار الأفضل، ولتستنى لبلدان العالم الإسلامى أن ترسل إلى هناك مفكرين يحملون رؤى فكرية متباينة، لكى يطرحوا هناك الشؤون الثقافية والاجتماعية لبلدانهم فى أجواء ودية وحرّة وبعيداً عن التعصّب والمطبات التى تعترض سبيل التفكير، امثالاً لأمر وجدلهم بالتي هى أحسن واتخاذ الخطوات الجادة لبلوغ وضع أفضل من خلال الحوارات البناءة المشفوعة بالتدبير السليم.

تعلمون أنّ العالم الإسلامى يعيش مشاكل كثيرة، ابتداءً من اندونيسيا وجزيرة تيمور، وإلى المغرب، والصحراء الغربية، والجزائر، وايران، والعراق، وأفغانستان، وتركيا، وافريقيا، وأكثر بلدان آسيا الوسطى والقوقاز، بل لا يوجد لدينا أساساً مكان خالٍ من المشاكل. وحتى فى البلدان الغربية كأمرىكا واوربا حيث يعيش المسلمون كأقلية، يلاحظ أن المسلمين يواجهون هناك مشاكل من نوع خاص. وحينما تؤخذ بنظر الاعتبار فرصة فريدة من نوعها اسمها الحج - وهى فرصة تُتاح سنوياً بشكل تلقائى وبدون حاجة للدعاية والإعلان، وإذا أخذنا بنظر الاعتبار العمرة أيضاً تكون القضية أشد حساسية - فمعنى ذلك أننا نستطيع أن نقيم على الدوام تجمّعاً عالمياً ضخماً يتجدّد حُضْرُه باستمرار، بيد أن موضوعاته يمكن تكرارها، ثم تدوّن نتيجة المناقشات وتطبع سنوياً ككتاب يوزع فى كلّ مكان. ويجب أن تتولّى العربية السعودية هذا العمل بصفتها الدولة المتولّية للحج. من حسن الحظّ أن علاقاتنا حالياً مع المملكة العربية السعودية تسير

ص: ٥٩

نحو التحسن، والوقت مؤاتٍ حالياً لنطرح أفكارنا عليهم، ونتوضّل إلى تنسيق في هذا المجال. ويجب أن تشارك مصر أيضاً في القرارات التي تتخذ بصفتها بلداً فيه جامعة دينية ومفكرون كثيرون. ولا بدّ من أن تكون هناك نواة ثابتة تؤخذ بنظر الاعتبار عند بحث المسائل وإعلان نتائجها النهائية.

ولو تحققت هذه الغاية لاتخذت حصيله العمل طابعاً مركزياً يتسم باستعداد نفسي فريد لا نظير له في أيّ مكان من العالم ولا حتى في منظمة الأمم المتحدة.

تعلمون أن الأمم المتحدة يوجد فيها مندوبون رسميون من جميع البلدان ولهم مهام معينة. في حين أن مركز مؤتمر الحج يعقد إلى جوار منطقة مقدّسة سواء في المدينة أم في مكّة وهو غني بخصائص وطاقات هائلة وقرها الباري تعالى للعالم الإسلامي. فلو أننا تحرّكنا قليلاً وتمكّنا من استغلال تلك الطاقات، واستفدنا من تلك البقعة بما يتناسب ومتطلبات العصر، لوجد كلام الإمام الخميني الذي اعتبر فيه الحج مؤتمراً مهماً ودائماً طريقه إلى حيز التطبيق.

: أنتم على بينة من أن لأعمال ومناسك الحج أسراراً ورموزاً كثيرة، نذكر على سبيل المثال أن شعائر الطواف أو السعي بين الصفا والمروة أو الوقوف بعرفات لها معانٍ يستشعرها المرء بكلّ جلاء، وبما أن سماحتكم على معرفة بمختلف الأديان وشتى الأفكار، نرجو أن تبيّنوا لنا الأسرار والرموز التي تستوحونها من شعائر الحج، وما هي الدروس التي نستقيها منها؟

الشيخ الهاشمي: سأجعل سفرى الأول للحج أساساً للإجابة عن سؤالكم هذا، ومع أن ذلك السفر مضت عليه مدّة طويلة، بيد أن حلاوته لا زالت عالقة في

ص: ٦٠

ذهني. فالحاج يعتريه شعور جديد منذ اللحظة التي يتحرك فيها من داره بقصد زيارة بيت الله. وعندما يكون في الطريق ينهمك بقراءة أذكار معينة.

وعندما يركب الطائرة ويلبى يعلن التزامه بعهدته مع الله طوال الطريق وعلى جميع الأحوال، ويقطع عهداً على نفسه بأن يكون عبداً مخلصاً لله.

وتبقى هذه الحالة مهيمنة على الإنسان منذ البداية وإلى حين انتهاء مناسك الحج، وتقترب بحالات من الشدة والضعف. وأنا شخصياً شعرت منذ لحظة ارتدائي لثياب الإحرام بأنني دخلت عالماً جديداً مختلفاً عما سبقه. فخلع الثياب السابقة، والاكْتفاء - بعد الاغتسال - بستر البدن بثوبي الإحرام يخلق لدينا شعوراً بالانقطاع عن جميع الشائخ غير الإلهية، وأنا قد فوّضنا أنفسنا إلى الله وأنا عبيد حقيقيون له. ومن المحتمل أن هذا الشعور وهذا الشغف يحصل للآخرين أيضاً.

في المرة الأولى التي سرتُ فيها نحو الحرم الطاهر لم أكن واثقاً هل خطواتي ستساعدني على المسير ريثما أصل إليه أم لا؟ تصوّر اللحظات التي أدخل فيها بيت الله ويقع فيها بصرى على ذلك البناء! تُعيدُ حالات عرفانية وثمانية جداً، ولكنها في الوقت ذاته لا دوام لها، ومن الممكن أن تتكرر غير أنها لا تحمل سمتها الروحية الأولى. شعرت في اللحظة التي دخلتُ فيها من الباب الأخير، ووقع بصرى على ذلك البناء الحجري بأنني لا أودّ أن أغمض عيني أو أُحوّل عنه بصرى إلى مشهد آخر. وكنت لا أرى قدمي إلا بصعوبة بالغة. عندما يطوف الحاج حول بيت الله أول مرة، يرى الحجر الأسود، ويشاهد مقام إبراهيم، وهذه المشاهد تسمو كلّها في تلك اللحظة بروح الإنسان.

وهكذا الحال أيضاً في المرة الأولى التي يرى فيها الحاج الصفا والمروة

ص: ٤١

ومنى وعرفات؛ إذ تتسارع فيها دقات قلبه. وأنا لا أرى - من الوجهة المعنوية - فارقاً بين هذه الأماكن. وأعتقد بأن هذه المشاعر تبلغ ذروتها عندما يقع البصر على الكعبة ويكمن سر ذلك كله في الشعور بالارتباط الوثيق مع الله، واستشعار العبودية بين يديه. في ذلك الموقف تمر المشاعر أمام عين الإنسان، ومتى ما بلغت نقطة معينة تعتريه عندها مشاعر جياشة ويواصل مسيرته؛ وهذا أشبه ما يكون برسم خط تصاعدي وتنازلي على ورقة.

إن زائر بيت الله الحرام يستلهم المعاني من رمال صحراء منى وحتى من أبواب الحرم ومن المرايا والشمعدانات، ومن كل واحدة من تلك المفردات، توحى إليه بشعور معين. وأنا أتحدث هنا عن تجربتي الشخصية فحسب، ولا أدري إن كان الآخرون أيضاً تراودهم هذه المشاعر نفسها، خاصة في بداية الدخول إلى ذلك المكان المقدس، أم لا؟ لا يستبعد أن كل شخص تبلغ مشاعره الدينية وعشقه الإلهي ذروته في نقطة معينة بما يتناسب مع حالته وطبيعته.

وأقول في ضوء ما مر ذكره: إنني لست بصدد إثبات أن نكتة جديدة قد انكشفت لي في منى وعرفات والكعبة وما إلى ذلك، كلاً، ولكن كانت هناك حالة عرفانية دائمة ولكنها عرضة للصعود والهبوط؛ ومثل ذلك كمثل إنسان يرتقى تلاً ضمن سلسلة تلال؛ ثم ينحدر منه، فالمسیر متواصل ولكن الحالات متغيرة.

: لاحظنا في السنوات الأخيرة حصول تغييرات كثيرة في مكة المكرمة والمدينة المنورة. فما هو تقييم سماحتكم لها؟

الشيخ الهاشمي: إنني أرى في هذه التغييرات شيئاً إيجابياً. وقد شاهدت مشاريعهم

ص: ٤٢

العمرانية فى المرّة الأخيرة التى سافرت فيها إلى المملكة العربية السعودية.

وقدم لى المهندسون والمعماريون توضيحات وافيه فى هذا المصمار، واطلعت على تلك المشاريع وأهدافها. ففى ذلك السفر ذهبت إلى أحد المراكز العلميه فى جامعه أم القرى، وأعتقد أنهم كانوا قد أعدوا لى معرضاً خاصاً يتضمن مشاريعهم الموضوعه قيد البحث من أجل الارتقاء بمستوى الخدمات التى تُقدّم للزوّار، وكمثال على ذلك عرضوا دراساتهم حول بئر زمزم منذ بداية ظهوره، وحينما يدق الناظر فيه يعرف حتى سبب ارتفاع وانخفاض ماء زمزم، وما هى العوامل المؤثرة فيه، وعرضوا أمام أنظار المتفرجين طرقات لتقليل شدة الزحام فيما يخص رمى الجمرات والمشاكل التى تواجه الحجاج بسبب كثرة العدد. وكان هناك كلام حول العدد المتزايد للحجاج سنوياً، وأن وجود مثل هذا العدد فى بلد واحد يؤدى إلى حدوث بعض المضاعفات. ثم طرحت على بساط البحث كيفيه الاستفادة من أوقات السنه الأخرى حيث يقلّ الازدحام. وبعد اطلاعى على تلك المشاريع أدركت بأنّ الحكومه السعوديه تعمل برغبه وشعور بالمسؤوليه.

ومن جمله الأعمال الباهره التى أنجزوها ويمكن أن يُضرب بها المثل هو توسيع الحرم والشوارع المفضيه إليه. وأنجزوا فى منى مشروع نقل الماء الحلو، ومخازن ضخمة ومنشآت هائله لتحليه مياه البحر، وقد شجروا أماكن كثيره من منى وعرفات، وكانوا يفكرون بإنشاء أبنيه بدلاً من الخيام التى كانت على الدوام سبباً للمشاكل. إلّا أن النكته الجديره بالالتفات هى أن هذه الأبنيه يُستفاد منها مدّه ثلاثه أيام فقط وتبقى سائر أيام السنه خاليه لا يُستفاد منها. واستقر رأيهم فى نهايه المطاف على أن نصب الخيام أفضل! على أن تكون خياماً مجهزه وكفيله بتوفير الراحة للحجاج والحيلولة دون حدوث مخاطر.

ص: ٤٣

وقاموا بأعمال كبيرة في المدينة المنورة على جوانب الحرم الشريف.

وأنشأوا خارج المدينة تأسيسات للتهوية تمتد إلى مسافة سبعة أو ثمانية كيلومترات تحت سطح الأرض وتنتهي بمرأب للسيارات، وهو عمل جدير بالمشاهدة. كما توجد لديهم مشاريع لتوسيع جوانب الحرم الشريف. وأعتقد أن خطواتهم في هذا المجال محسوبة ومنطقية في ضوء الإنفاق السخي الذي يبذونه في هذا المجال، وانطلاقاً من المشاريع الموضوعه قيد التنفيذ.

: تعدد صيانة الآثار الوطنية والدينية من جملة الأمور التي تُخصص لها استثمارات هائلة في العالم كله. وقد لاحظنا في السنوات الأخيرة أن تلك الآثار المذكورة قد دُمرت أو أصبحت معرضة للأفول بفعل زحف المشاريع العمرانية. فما العمل الذي ينبغي القيام به- في رأي سماحتكم- من أجل أن تتواصل مشاريع العمران إلى جانب الحفاظ على الآثار الدينية القيمة؟

الشيخ الهاشمي: لقد وضعتم اصبعكم دقيقاً على نقطة ضعف الحكومة السعودية، وقد نبهتكم إلى هذا الموضوع أيضاً. عندما كنا في الرياض أخذونا لمشاهدة قلعة كانت قد سقطت في أيدي آباءهم السعوديين عندما أرادوا البدء بمحاربة خصومهم. وهذه القلعة موضوعه حالياً تحت حراسة مشددة وهم يحفظون حتى بعض التفاصيل التاريخية عن الطرق التي دخلوا منها والمعارك التي دارت فيها. وبعد الانتهاء من زيارة تلك القلعة المثيرة كتبت في دفتر المذكرات الذي وضعوه هناك: أن الحفاظ على مثل هذه إجراء جدير بالثناء، ويا حبذا لو يجرى على الأماكن الأخرى في هذا البلد.

يوجد في كل شبر من أرض المدينة المنورة أثر ومعلم من عهد

ص: ٤٤

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهناك مليار ونصف مليار مسلم مشدودة أبصارهم إلى هذه الأرض ويعشقونها من أعماق قلوبهم. فالأماكن التي جلس فيها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أوقام فيها بعمل تاريخي معين، وكذلك دور الصحابة والتابعين والأئمة المعصومين ينبغي أن لا تهمل وتتعرض للتخريب على مر الزمان.

ومن جهة أخرى اثرت هناك مبحثاً حول ما يُستشف من القرآن الكريم من وجود آثار للأنبياء السابقين في العربية السعودية، ألا ينبغي السعى في سبيل إحياء تلك الآثار واستخراجها من تحت الأرض؟ ألا يجب أن يجرى إعداد تعريف بها وتقديم دعوة عامة إلى العالم الإسلامي لزيارتها؟ ومن المؤسف أن هذه الإجراءات لم تُنفَّذ، ويُعزى أحد أسباب ذلك إلى أننا لم تكن لدينا علاقات سليمة مع المملكة العربية السعودية. ولو كانت لدينا في السنوات السابقة مثل هذه العلاقات الحسنه الموجودة حالياً مع هذا البلد؛ لكنا قد استطعنا المشاركة في مشروع توسيع الحرم. ومن المؤسف أن بعض الآثار التاريخية في هذا البلد قد مُحيت من الوجود كلياً ولا توجد إمكانية لإعادة بنائها. ولكن يمكن بطبيعة الحال بناء أماكن مشابهة لها في مواضع أخرى، وقد عرضت عليهم هذا الاقتراح.

وأنا أعتقد بإمكانية الحفاظ على تلك الآثار التي تُعدُّ بمثابة هوية للعالم الإسلامي، إلى جانب مواصلة تجميل المدن، ولكن توجد هناك في السعودية قيود في هذا المجال وذلك بسبب وجود مذهب خاص وبسبب الرؤية التي يحملها علماءهم. وأنا لم تسنح لي الفرصة الكافية للتباحث مع علمائهم. وهذه واحدة من النقاط التي يجب القيام بها حيث ينبغي أن نتباحث مع علمائهم ونثبت لهم أن العناية بالبقاع الشريفة لا تُعتبر شركاً أو عبادة أو ثان. ولا ريب في أن التباحث مع العلماء السعوديين والتوصل إلى نقطة مشتركة من خلال هذه المباحث يعدُّ أمراً واجباً وملحاً.

ص: ٦٥

لا تواجه العربية السعودية مشكلة مالية في هذا المجال. وحتى إذا كانت لديها، يمكنها أن تدرجها في جدول أعمال منظمة المؤتمر الإسلامي، كي تخصص البلدان الأخرى مبالغ لغرض إحياء الآثار التاريخية في هذا البلد على اعتبار أن هذه المسألة تخص العالم الإسلامي كله.

وعلى كل الأحوال فأنا أظنّ تعصب الزعماء السعوديين أصبح أقلّ على إثر المباحثات التي أجريناها معهم، أو لأنهم اكتسبوا على مرّ الزمن رؤية أكثر انفتاحاً، وسنشهد في المستقبل تطورات على هذا الصعيد بإذن الله.

: نظراً إلى أنكم تتحدّثون عن الحج وأعماله باندفاع وحماس فائق، وحينما تتحدّثون يبدو التأثير واضحاً عليكم، سؤالنا في هذا المجال هو:

في أي أعمال الحج يبلغ الحج ذروة عظمته في رأيكم؟

الشيخ الهاشمي: تجربتي الخاصّة كما أشرت سابقاً هي أنني انتابني شعور خاص عند ارتداء ثوبي الإحرام، وبقي هذا الشعور يرتفع حيناً وينخفض حيناً آخر.

وفي الكعبة وعرفات ومنى تبرز مثل هذه الحالة أيضاً؛ خاصة في منى. كان المبيت في ذلك المكان مرهقاً جداً في العام الذي ذهبْتُ فيه، ونتيجة لذلك الإرهاق تتسامى روح الإنسان، غير أن الذروة النهائية وقمة هذا المنحنى الافتراضي تكون عند رؤية الكعبة. وهذه تجربتي الذاتية. ولعل تجربة الآخرين تكون على نحو آخر.

: كانت إحدى رؤى الإمام الخميني للحج هي إيجاد الوحدة الإسلامية وإزالة أسباب التوتر، فكيف تقيمون نجاح سماحته في هذا الميدان؟

الشيخ الهاشمي: عندما ذهبنا إلى مكة قبل انتصار الثورة كُنّا قلقين حول كيفية أداء الأدعية والأعمال الخاصّة بالشيعة، وكانت تساورنا هواجس حول جواز

ص: ٦٦

أو عدم جواز المشاركة في صلاة الجماعة للسنة.

ومن دواعي السرور أن سماحة الإمام الخميني قد اقتلع هذه الهواجس من نفوسنا بسلاح الفتوى، وذلك بقوله: عندما تذهبون إلى هناك نحو النزعات المذهبية جانباً وشاركوا في صلاة جماعتهم وتصرفوا مثلهم كي لا تكونوا مدعاة للفرقة... فجعل الحج أطيّب طعماً عبر ما أبداه من تسهيلات في هذا المجال.

وأرى لزاماً علينا هنا أن نعرب عن تقديرنا لآراء الإمام رحمه الله، ومن بعده للمراجع الآخرين الذين قدّموا فتاوى بالترخيص والتخفيف. ونحن لا نواجه في الوقت الحاضر مشكلة في هذا الجانب. وشباب اليوم أقل معرفة بالهواجس المثيرة للاضطراب التي كان يعاني منها حجّاج الأمس.

: كيف تقيمون دور فتوى سماحة الإمام بشأن تعامل الإيرانيين مع سائر الحجّاج؟

الشيخ الهاشمي: كان لها تأثير فاعل في تخفيف حدّة الفرقة والاختلافات. وأدرك جميع الناس بأنّ الاتحاد وتآلف القلوب ينطوي على قيمة أكبر من الجمود على ظواهر بعض مناسكنا. وهناك طبعاً من يذهب إلى القول بأننا يجب أن نعطي الأصالة لهذا الجانب في حين أن الأمر ليس كذلك.

: لاحظنا في السنوات الأخيرة أن العلاقات الإيرانية السعودية شهدت تطوّراً باهراً، وأخذت تسير نحو التحسّن، وكان لسيادتكم دور

أساسي في ذلك. نرجو أن تبينوا لنا كيفية بلورة هذا التطوّر ومدى ضرورته؟

الشيخ الهاشمي: قررت منذ أن أصبحت مسؤولاً تنفيذياً أن أتعامل مع المملكة العربية السعودية من باب الصداقة. وكان واضحاً لديّ بأننا لو كانت لنا

ص: ٦٧

علاقات طيبة مع السعودية وكانت هناك ثقة متبادلة بيننا، لكنت الأمور تسير على نحو أفضل فيما يخص قضايا النفط، والحرب، والتطورات السياسية في المنطقة والنشاطات الدينية والتعليمية التي نمارسها في العالم.

بدأت نشاطي في هذا الاتجاه منذ مؤتمر قمّية البلدان الإسلامية الذي عقد في السنغال. حيث كان الأمير عبدالله هناك، وتقرّر أن يجرى لقاء بيننا. كان من المقرّر في البداية أن يأتي هو إلى الجناح الذي كنت أنا فيه من قاعة المؤتمر. ولكن اتّضح لاحقاً بأنّه كان يتوقّعني أن أذهب أنا إليه! وذهبت أنا إليه وكان دافعي إلى ذلك سبب واحد وهو شعوري بأنّ هذا التنازل سيساعد على تحسين العلاقات. ووجهت هناك دعوة إلى الملك «فهد» لزيارة إيران، ولكنهم قالوا: بأنّه يعاني من مشاكل صحّية في رجله وركبته ويتعذّر عليه السير.

وعلى العموم فقد كنت طوال عهد مسؤوليتي مهتماً بحلّ المسائل العالقة بين إيران والسعودية. ولكن كانت هناك معوقات ظاهريّة من قبيل «مراسم البراءة»، وأخرى خفية تتمثّل في العراقيل التي كانت تضعها أمريكا والآخرين على هذا الطريق. إلّا أنّ الرسائل والزيارات المتبادلة كانت متواصلة ممّا أدّى إلى زوال حالة التنافر وإلى ترطيب أجواء العلاقات. وبلغ هذا النجاح ذروته في إسلام آباد في باكستان وفي آخر اجتماع لرؤساء بلدان المؤتمر الإسلامي، حيث كنّا قد اتّفقنا أنا والأمير عبدالله مسبقاً على عقد لقاء بيننا. ولكن كان من المتوقّع أن يأتي هو إلى هذه المرّة في ضوء ما حصل في اللقاء السابق حيث كنت أنا الذي ذهبت إليه في السنغال. ووصلني الخبر بأنّ الأمير عبدالله ينتظركم! فقلت: نحن ننتظر أن يأتي هو.

ص: ٦٨

ومع ذلك نهضتُ من مكاني وذهبتُ إلى قرب غرفته، وفجأةً خرج هو من غرفته وقال: أريد المجيء إلى غرفتك! قلتُ: لا فرق في ذلك، ها أنا ذا قد جئتُ الآن! هذه أيضاً غرفتنا. ولكنّه لم يوافق. ويبدو أن المعتمدين الذين كانوا ينقلون الرسائل الشفوية بين غرفتنا قد أخطأوا وألغوا الموعد الأول الذي كان من المقرر أن يأتي فيه الأمير عبدالله إلى غرفتي. وقد يكون لذلك العمل سبب آخر. وعلى كل حال، حينما وصلت الامور إلى هذا الحدّ، جاء هو إلى غرفتي وتحدّثنا هناك حول جميع القضايا بشكل صريح. وكان أحد الموضوعات الأساسية التي تحدّثنا حولها هو أن يعقد المؤتمر القادم لزعماء البلدان الإسلامية في طهران. والعجيب في ذلك هو أن البيان الذي صدر في جدّة قبل ذلك اللقاء بيوم واحد كان قد عين مكاناً آخر لعقد المؤتمر القادم. فطرح المسألة على الأمير عبدالله في ذلك اللقاء وطلبت توضيحاً لذلك الموقف. وكان وزير خارجيتهم موجوداً واستطعنا حلّ المسألة هناك.

وكانت تلك هي الثمرة الأولى لذلك اللقاء. وبعد ذلك حلّ موعد الغداء وكُنّا في حينها ضيوفاً على السيد نواز شريف رئيس وزراء باكستان آنذاك، وفي تلك الأثناء ركب ولي العهد السعودي في سيارتي وخرجنا وسط أجواء مثيرة مدهشة، وشاهد عدد كبير من الأشخاص هذا الحدث النادر. فأنتم تعلمون بأنّ للشخصيات حماية وموكب شرف وكوكبة ومرافقين. إلّا أنه تركها كلّها وركب في سيارتي، وكان عمله هذا خلافاً للأعراف السائدة، وجاء كثمره لذلك الاجتماع الودّي والصريح. وهو موقف لم يبق خافياً على من شاهدوه.

ومنذ ذلك الحين لاحظت أن الكثير من المسائل التي كانت عالقة بيننا قد حُلّت. وقزّر ولي العهد السعودي بعد ذلك أن يدعم مؤتمر طهران، وجاء

ص: ٦٩

إلى طهران، وأتحت لنا الفرصة للتحدّث مع بعضنا أكثر. وساعد سفرى إلى المملكة العربية السعودية وسفر السيد الخاتمي إليها على إكمال هذا الشوط إلى حدّ بعيد.

: ما هي في رأى سماحتكم التأثيرات التي تتمخض عن توسيع العلاقات الايرانية السعودية، على الصعيد الدولي، خاصة فيما يتعلّق بالاستفادة من الحج إلى أقصى حدّ ممكن؟

الشيخ الهاشمي: تقييمي لهذا الجانب هو أنّ تحسين العلاقات بين ايران والسعودية يُعتبر ضرورة؛ لأنّ تعاون هذين البلدين يُعتبر أهم قاعدة لتقوية مواقف العالم الإسلامي على الصعيد السياسي والاقتصادى والأبعاد الأخرى.

والواقع هو أنّ أصدقاءنا وأصدقاء السعودية مُختلفون في وجهات نظرهم، وتقليص الهوة الفاصلة بيننا وبين السعودية ستكون له معطيات إيجابية في الأوساط والمؤتمرات الدولية، وأحد تلك المعطيات يتعلّق بقضية النفط.

فقد لاحظنا أنّ جشع مستهلكى النفط وكيفية عرضه وطلبه في الأسواق العالمية أدّى إلى هبوط قيمته إلى أقلّ من عشرة دولارات للبرميل الواحد. وهذا غبن فاحش للدول المنتجة للنفط خاصة للدول الإسلامية المطلّة على حوض الخليج الفارسي؛ لأنّ قوام وجودها مرتبط بهذه المادة الحيوية. وقد أدّى تحسين العلاقات بين طهران والرياض إلى حلّ الكثير من المشاكل، وإلى تقليل حدّة التوتر في الخليج الفارسي.

قضية العراق مهمّة جدّاً بالنسبة لنا، ولو أننا تعاوننا لسكنت بؤرة التوتر هذه في المنطقة.

أمّا القضية الأساسية التي لم نتناولها على نحو جاد حتّى الآن فهي القضية الفلسطينية؛ إذ يوجد اختلاف طفيف في وجهات النظر في هذا المجال. ولو

ص: ٧٠

كان بيننا تعاون جاد بشأن القضية الأفغانية لما شاهدنا الوضع القائم حالياً. وأعتقد أن تعاوننا ببناء في الكثير من قضايا العالم الإسلامي. ونأمل بتحقيق بعض النجاحات تدريجياً من خلال البحث وإقناع بعضنا الآخر.

وقد تحدثت مع ولي العهد السعودي حول هذه الموضوعات في الاجتماعات الخاصة الودية التي عقدناها. والأوضاع تسير نحو الأفضل تدريجياً.

: من المؤسف أن إيران والسعودية لم تكن بينهما في السنوات الأخيرة علاقات على صعيد الأوساط العلمية والدينية والمذهبية، وقد لحقتنا بسبب ذلك خسائر كبيرة. فما هو رأيكم في ذلك؟ وما مدى الأهمية التي تعيرونها لإيجاد هذه العلاقة؟ وما هو اقتراحكم في هذا الصدد؟

الشيخ الهاشمي: الأمر كما تقولون. ففي الوقت الحاضر لم يحصل تقارب خاص مع المملكة العربية السعودية على النطاق العلمي؛ سواء على صعيد الطاقات العلمية الجامعية أم على صعيد علماء الدين، بنفس المستوى الذي حصل فيه تقارب على مستوى العلاقات بين رجال الدولة والشخصيات السياسية. وأنا أعتقد بوجود وضع برنامج يتيح لعلماء كلا البلدين لقاء بعضهما الآخر والتحاوور بعيداً عن التعصب من أجل تقريب وجهات نظرهم. فعلماء الدين في كل من إيران والسعودية كان لهم دور مؤثر في بلدهم، وهناك ضرورة محسوسة للتقارب بينهما. إن دعامة العلاقات السياسية والاقتصادية الموجودة بيننا وبين السعودية هو التعاون الديني، ويبدو موسم الحج فرصة مناسبة لتحقيق هذه الغاية. وعلى علماء الدين الذين يذهبون من إيران إلى الحج في كل عام أن يتخذوا الإعدادات الكفيلة بإقامة علاقات مع العلماء العرب ودعوتهم للسفر إلى إيران

ص: ٧١

وزيارة مدن كمشهد وقم ومشاهدة حوزاتنا وجامعاتنا. فأنا لازلت استشعر في نفسي تأثير زيارتي للجامعات والمراكز العلمية في المملكة العربية السعودية، حتى إن هذا الشعور يزداد لدى أحياناً.

: منذ سنوات وهناك كلام يدور هنا وهناك حول جعل مسؤوليه نقل الحجاج إلى الديار المقدسة بعهدة القطاع الخاص بعد أن كان هذا الأمر بيد الدولة (منظمة الحج والزيارة) ألن يكون في تطبيق هذه الفكرة- نظراً للظروف الخاصة للمملكة العربية السعودية- ضرر لنا، إضافة إلى الأضرار التي لحقتنا من جراء تبني القطاع الخاص سفر الزوار إلى سوريا؟

الشيخ الهاشمي: لست على اطلاع بمدى اثاره هذه المسائل. والكيفية التي يُدار فيها الحج إلى الآن مرضية لنا وللحجاج وللمملكة العربية السعودية؛ حيث كانوا يقولون لنا في السعودية: بأن حج إيران أكثر نظماً من حج جميع العالم الإسلامي، ويُعزى هذا النظم إلى أن الدولة هي التي تتولى إدارة شؤون الحج. ونحن لا ننظر إلى هذه القضية بمنظار اقتصادي، إضافة إلى أننا نراعي جميع الجوانب في القضية الاقتصادية؛ فنحن لا نتقشف في الإنفاق إلى الحد الذي يحول دون رفاه الحجاج ورضاهم، ولا ننفق إلى حد الإسراف.

الخلل الوحيد البارز للعيان هو أن بعض الأشخاص سَجّلوا أسماءهم للحج مبكراً، وبعض آخر من الناس لا يستطيعون الذهاب إلى الحج في السنة التي تتوفر لهم فيها الاستطاعة. ويجب علينا العمل لحل هذه المعضلة.

في السابق لم يكن من الممكن لنا التفاهم مع الحكومة السعودية. غير أن إمكانية هذا التفاهم أصبحت متوفرة لدينا في الوقت الحاضر. وعلينا أن نسعى للوصول إلى مرحلة إرسال الحاج إلى مكة في السنة التي يرغب

ص: ٧٢

فيها. وعلى العموم فنحن - وكما أشرت - لا نحمل ذكرى طيبة عن تجربة خصخصة السفر إلى سوريا. من جملة المكتسبات الكبرى التي تمخضت عن زيارتكم إلى الحرمين الشريفين هي أنكم وفقتم للدخول إلى داخل الكعبة وضريح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. نرجو أن تبينوا لنا ما هو الشعور الذي راودكم أثناء دخولكم إلى تلك الأماكن؟ وشرحوا لنا الوضع في داخل هذين المكانين المقدسين. فرؤية هذه الأماكن سعادة كبرى قلما ينالها شخص.

الشيخ الهاشمي: الحقيقة هي أن الله تعالى منّ عليّ بهذا التوفيق نتيجة لكثرة الدعاء.

فحينما دخلت ضريح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقدت صوابي، ولم ألتفت إلى المسائل والدقائق التي يلتفت إليها السائح عادةً. وفقدت نقوش الباب والجدران وشكل الضريح والستائر والسقف وأمثال ذلك أهميتها عندي. ولهذا السبب لم يبق شيء منها عالقاً في بالي، وكل من سألتني عن شيء بهذا الخصوص بعد سفري ذاك، لم يكن لدي جواب أقدمه له. وهذه الحالة تختص طبعاً بمن يسافر إلى تلك الأماكن للمرة الأولى. أما في المرات اللاحقة فالقضية تصبح عادية تقريباً. ويعود سبب ذلك إلى أن المرء يشعر في الزيارة الأولى وكأن أمينه بعيد المنال كان قد أفنعه نفسه بتصويرها في ذهنه عمراً طويلاً، قد تحققت أمام عينيه. ولكن هذه الحالة تصبح عادية في المرات اللاحقة.

وعندما دخلت إلى الكعبة، كنتُ بصدد أداء الأعمال والمناسك الواردة في هذا الخصوص، إذ من المستحب الصلاة في عده نقاط من ذلك المكان المقدس.

وقمتُ بأداء ذلك العمل. وقد شعرتُ في ذلك الموقف بسكينه خاصية. وبعد الانتهاء من الصلاة، أخذت أتأمل الآفاق المعنوية الموجودة في ذلك

ص: ٧٣

المكان. فقد كان الجلال المعنوي هناك خليقاً عندي بالنظر والمشاهدة.

وقد راودني شعور مشابه لهذا الشعور في ضريح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؛ إذ كان هناك مرقد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وإلى هناك منه بيت السيدة الزهراء عليها السلام أو قبر تلك السيدة الكريمة. وإن كانت الكتابات غير قابلة للقراءة بسبب ظلمة المكان.

وعند دخول البقيع اتابنتنا حالة من نسيان الذات أيضاً، وقادتنا أقدامنا لا إرادياً نحو أقرب مسافة إلى قبور الأئمة المعصومين، وجلسنا هناك على الأرض.

: منذ سنوات والبقيع باقٍ على حالته هذه. وأنتم تعلمون أن هذا المكان يؤلم قلب كل مسلم بسبب هذا الوضع الذي يظهر فيه أمام أعين الزوّار.

فهل تحدّثتم مع المسؤولين السعوديين حول إعادة بناء البقيع، وإذا كان ردّهم إيجابياً فما الذي قالوه في هذا المجال؟ الشيخ الهاشمي: نعم تحدّثت مع الكثير من المسؤولين هناك. وقلت لهم: إنكم تصرّفتم وفقاً لعقيدة علماء يحملون أصولاً غير منطقية، وعقيدتهم غير مقبولة لدينا، وتركتم هذه المقبرة على حالها هذا. وهذا الوضع يؤلم الملايين من الشيعة المحيّنين لأهل البيت الذين يأتون إلى هنا من أقصى بقاع العالم ويشاهدون هذا المشهد. فما الذي تجنونونه من هذا الألم؟ إن هذا يمنع وحدة العالم الإسلامي ويتسبب في إيذاء قلوب المسلمين. وأضفت قائلاً: لدينا اطروحة معتدلة في هذا الخصوص. وهي أن تأذنوا لنا برصف ساحة مقبرة البقيع بحجر إيراني وبنى حائطاً حول قبور الأئمة، وبنى ظللاً للزوّار على مسافة معقولة من المقابر.

ولم يقدم لنا المسؤولون ردّاً سلبياً، وإنما أكلوا الأمر إلى موافقة العلماء.

وكنتُ راغباً في التحدّث مع كبار العلماء في السعودية حول هذا الموضوع.

ص: ٧٤

وفى مكّة تحدّثت مع متولّي الحرم وإمام الجمعة وكان شخصاً متنوّراً إلى حدّ بعيد، ووجدته شخصاً يقبل التفاهم. ولكن أُعلن وجوب استحصال رأى العلماء الأصليين من أهل الفتوى مثل «ابن باز» فى هذا المجال. وقد وضعوا مقابلة ضمن جدول أعمالى، إلّا أنّ تلك المقابلة لم تتمّ.

ويبدو أنّهم لم يأخذوا انطباعاً حسناً عن الفكرة التى قدّمناها حول إصلاح ظاهر مقبرة البقيع، ولم يحصل لقاء حتّى مع العلماء الآخرين، وبقيت القضية معلّقة. ومعنى هذا أنّها تحتاج إلى فرصة أخرى.

وتحدّثت معهم أيضاً حول مقبرة «أحد». فهذا المكان الذى يعتبر مزاراً للشهداء، لا يبدو مشهده لطيفاً. وبعد رؤيتى لذلك المكان قلتُ للمسؤولين المعنيين: إنكم لم تتصرّفوا مع المزارات الأخرى على هذا النحو. فما ضرّ لو أوجدتم هنا أجواءً يمكن تحمّلها؟

: أثناء وجودكم فى المدينة المنوّرة ومشاركتكم فى صلاة الجمعة، أورد خطيب الجمعة فى صلاته بعض المطالب المهيئة، وقد واجه ردّ فعل من قبل سماحتكم. ونحن نرغب فى سماع أصل القضية من لسانكم- إن رأيتم مصلحة فى ذلك- لتدوّن فى التاريخ، وليطّلع عليها قرّاء مجلة «مبقات الحجّ».

الشيخ الهاشمى: نعم، لقد كانت تلك القضية مريرة، إلّا أنّ خاتمتها كانت طيبة. فقد وصلنا فى ذلك اليوم إلى صلاة الجمعة ونحن فى حالة تعب مفرط من جزاء السفر، ولم يكن لدينا غرض سوى الإسهام فى التقارب والوحدة. وجلسنا كما هو المعتاد لسماع الخطب؛ غير أن خطيب الجمعة تكلم فى أثناء خطبته بكلام غير صحيح. وكان يجلس إلى جانبى أحد الوزراء فى الحكومة السعودية، وكان يرافقتنى عادة، فقلت له: «نظراً للكلام الذى قاله هذا

ص: ٧٥

الشخص، فنحن لا يمكننا الصلاة خلفه».

فقال الوزير: «وأنا أيضاً لا أرى تبريراً لهذا العمل».

كنتُ في شك هل ذلك الخطيب قد انتبه أصلاً إلى مجيئى أم لا؟ لأنَّ المسجد كان يغطُّ بالحاضرين، وكانوا قد حجزوا لنا مكاناً من قبل.

فنهضنا وذهبنا إلى غرفة مخصَّصة لنا من غرف الحرم، وصلينا مع الايرانيين والعرب الذين جاءوا معنا إلى الغرفة. ولم أنطق بعد ذلك بكلمة واحدة حول ذلك الموضوع. إلى أن جاءنى عالم من العلماء المتولين لشؤون الحرم وقال لى: «هذا هو دأبه، وهو يتحدث كما يشاء من غير أن يأخذ سياسة الدولة بنظر الاعتبار، فلا تضمروها فى قلبكم، وكونوا على ثقة بأننا لن نترك هذا العمل بلا جواب، ونحن نشعر كأننا نحنُ أهنا أيضاً».

والإساءة إلى الضيف جرم قبيح فى عاداتنا».

وبعد ذهابنا إلى الفندق اتصل بى الأمير عبدالله هاتفياً وأعرب عن كامل أسفه، واعتبر كلام خطيب الجمعة تصرفاً فردياً صريحاً وإهانة للمسؤولين السعوديين. وقد حاولت التخفيف من شدة غضب ولى العهد السعودى، فقلت:

«نحن ندرك حالات علماء الدين أكثر منكم، ونعلم أنه تقع من بعضهم أمثال هذه الامور». فأكد لى مرة أخرى بأنكم ستشاهدون لاحقاً بأننا لا نتحمل توجيه إهانة لضيوفنا، أو تصرفاً مخالفاً لسياستنا. والحقيقة أنهم وفوا بعهدهم، مع أننا لم نطلب منهم متابعة القضية.

: نرجو أن تبينوا لنا شيئاً من الذكريات المثيرة والمسائل المهمة التى وقعت لكم فى سفركم إلى المملكة العربية السعودية.

الشيخ الهاشمى: كان سفرى إلى العربية السعودية طويلاً وكانت جميع مراحلها

ص: ٧٦

مثيراً. فقد عنت لي أثناء زيارتي لمنى وعرفات اطروحات عرضتها عليهم، وكان بعضها موضع قبول لديهم. وكان السفر إلى منطقة «أصحاب الحجر» في العلى سفراً جميلاً عندي؛ حيث كان ذلك المكان موضع وقوع بعض قصص القرآن، وكنت راغباً في مشاهدة ذلك المكان عن كثب. فاليوت التي كانت منحوتة في الجبال، والمكان الذي خرجت منه ناقة صالح، وبقاء المكان على تلك الهيئة ليكون عبرة للآخرين كانت خليفته بالمشاهدة. وقد سمعت أن المكان المذكور قد ازدهر وكثرت زيارة الناس له بعد زيارتنا لتلك المنطقة وإذاعة خبر تلك الزيارة.

كنتُ أطلع طوال سفرى على المشاريع الاقتصادية في السعودية وأوضاع الجامعات هناك. والحقُّ أقول: إن لدى السعوديين جامعات جيدة وقد أحرزوا تقدماً مشهوداً. وقد زرتُ مستشفياتهم المجهزة وحرسهم الوطنى وهو أشبه ما يكون بحرس الثورة الإسلامية لدينا، ويضطلع هناك بمهيمية الأمن والمخابرات. وتعاملوا مع الاستيضاحات المتعلقة بتلك الأجهزة الأمنية برؤية منفتحة تنم عن مستوى صداقتنا وثقتهم بنا. وتحدثت قائد ذلك الحرس الوطنى وهو نجل الأمير عبدالله خلال اجتماع أُقيم فى قاعه واسعة وضم كبار القادة وحضرناه نحن أيضاً، وقال أثناء حديثه: «قال لى أبى أن أجيب عن جميع أسئلتكم». وقد حاولت أن أتجنب طرح الأسئلة التي كانت الإجابة عنها أمام ذلك الحضور تنطوى على محذور بالنسبة لهم، وتركت ذلك الأمر إلى اجتماعات أكثر خصوصية.

توصلت من خلال تجوالى فى مناطق «جبل» الصناعية إلى نتيجة، وهى أنهم قد أحرزوا تقدماً فى مجال الصناعة، وهم فى وضع أفضل مما فيما يتعلق

ص: ٧٧

بالصناعات البتروكيماوية.

وتفقدت قوتهم البحرية في ساحل الخليج الفارسي، وقال قائد القوة الجوية هناك: «لقد أمروني أن لا أترك أسلحتكم بلا جواب، يمكنكم أن تسألوني عن كل ما تشاءون».

وبما أنني لدى إمام بالمسائل العسكرية وأعرف التفاصيل الجزئية المتعلقة بقاعدتنا في بندر عباس، فقد أخذت أطرح عليهم في القاعدة السعودية أسئلة فنية، وكان القائد المذكور يجيب عن أسئتي. وعلى كل الأحوال فقد وجد هناك جو من الثقة بيننا. بعد ذلك أخذونا إلى الطائف وشاهدنا هناك أشياء جديدة بالمشاهدة.

وقد رأينا تقريباً جميع الأشياء التي كنا نرغب بمشاهدتها في المملكة العربية السعودية من غير أن يخلوا علينا بشيء من ذلك. وإذا لم نكن قد حصلنا في بعض الحالات على المعلومات، فذلك يُعزى إلى ضيق وقتنا.

وذهبنا أيضاً لرؤية جامعة النفط في الظهران، ورأينا الأوضاع هناك جيدة، وكان لديهم مركز بحوث ومختبرات متطورة.

: أشكركم على هذه التوضيحات. ما هو المقترح الذي تقدمونه لمسؤولي الحج وعموم أبناء الشعب للاستفادة من الحج بشكل أفضل؟

الشيخ الهاشمي: أعتقد أن المسؤولين عن إقامة شعائر الحج بما لديهم من إحاطة وخبرة، وبما يحملونه من أفكار وطروحات في هذا يعلمون أفضل مني ما الذي يجب عمله، وأنا لا أعرف أكثر منهم. وأؤكد فقط على توفير أجواء يتسنى لنا فيها عقد لقاءات بين العلماء في أيام الحج كي تتمكن من إتمام المباحث غير التامة. وهذا الأمر يتوقف إلى حد ما على طبيعة تعاملنا وجهودنا.

ص: ٧٨

: سنكون لكم شاكرين لو عرضتم لنا رأيكم بشأن مجلة «ميقات الحج».
الشيخ الهاشمي: هذه المجلة تعجبني. وعندما تصلني كل مرة أنظر إلى عناوينها، وإذا أثار انتباهي فيها موضوع أقرأه. وإصدار هذه
المجلة عمل إيجابي.

قرن المنازل (٣)

ص: ٧٩

قرن المنازل (٣)

على إبراهيم المبارك البحراني

الهدى:

معجم البلدان (١): هدى: بالفتح منقول عن الفعل الماضي من هدى يهدى إذا أرشد: موضع في نواحي الطائف. وقال: الهدأة: موضع بين عُسفان ومكة، وكذا ضبطه عبيد البكري الأندلسي، وقال أبو حاتم: يقال لموضع بين مكة والطائف الهدأة، بغير ألف وهو غير الأول.

وقال أيضا في نفس الصفحة: الهدأة: وهو موضع بين مكة والطائف والنسبة إليها هدوى، وهو موضع القروود وقد خفف بعضهم داله. ووصفه لها بأنها موضع القروود يدل على أنها هي الهدى المعروفة الواقعة في جبل كرا، والتي يقع عندها ميقات وادى محرم حيث قد ذكر العياش والكردي (٢):

أن جبل كرا مملوء بالقروود، ومع ذلك لم يذكر ياقوت أنها ميقات أو مكان يحرم منه الحاج ولا يمرّ على طريقها. نعمان:

قال ياقوت في (٣): نعمان بالفتح وآخره نون هو فعلان من نعمه العيش وهو

١-١ معجم البلدان- ياقوت الحموي ٥: ٥٩٣.

٢-٢ مقتطفات من رحلة العياشي: ١٠٨- التاريخ القويم- محمد طاهر الكردي ٢: ٢٧.

٣-٣ معجم البلدان- ياقوت الحموي ٥: ٢٩٣.

ص: ٨٠

غضارته وحسنه، وهو نعمان الأراك: وهو واد يُنبته ويصب إلى ودان، بلد غزاه النبي وهو بين مكة والطائف، وقيل: واد لهذيل على ليلتين من عرفات. وقال الأصمعي: نعمان واد يسكنه بنو عمرو بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل، بين أدناه ومكة نصف ليل، به جبل يقال له: المدراء، ونعمان من بلاد هذيل وأجبالها الأصدار، وهي صدور الوادي التي يجيء منها العسل إلى مكة، وقول بعض الأعراب فيه دليل على أنه واد:

ألا أيها الركب اليمانون عرجوا علينا فقد أضحي هوانا يمانيا
نسائلكم هل سال نعمان بعدنا وحبب إلينا بطن نعمان واديا
عهدنا به صيداً كثيراً ومشرباً به ننعق القلب الذي كان صاديا
وقال أبو العميثل في نعمان الأراك:

أما والراقصات بذات عرق ومن صلى بنعمان الأراك

لقد أضمرت حبك في فؤادي وما أضمرت حباً من سواك

ولم يذكر ياقوت في نعمان كونه يمرّ على الميقات ولا طريقاً للحاج، وأما قول ابن العميثل: ومن صلى بنعمان الأراك، فإنه إنما ذكر الصلاة بنعمان لقربها من عرفة واتصاله بها، قال الفرزدق:

دعون بقضبان الأراك التي جنى لها الركب من نعمان أيام عرفوا

محمد بن عبد المنعم الحميري في (١): نعمان بفتح أوله وادى عرفة دونها إلى مكة، وهو كثير الأراك قال الشاعر:

تضوع مسكاً بطن نعمان إذ مشت به زينب في نسوة خفرات

وقال الفيروز آبادي (٢): نعمان كسيحان أيضا وادى وراء عرفة.

١- ٤ الروض المعطار- عبد المنعم الحميري: ٥٧٧.

٢- ٥ القاموس المحيط- الفيروز آبادي ٤: ٢٥٨.

ص: ٨١

وكلام صاحب الروض المعطار مخالف لما في القاموس؛ لأن ظاهر ما في الروض أنه بين منى وعرفات، والصحيح ما ذكره القاموس.
كرا:

ذكرها ياقوت (١) قال: ورواه ابن دريد والغوري كراء بالفتح والمد: ثنية بيثه وقيل بالطائف.

مقارنة المسافة بين مكة والطائف على الطريقين:

من الشواهد التي تدلنا على أن قرن المنازل هو السيل دون الهدى، هو المسافة بين قرن المنازل ومكة والطائف؛ لأنها إنما تناسب السيل دون الهدى، وليبان هذه الدعوى نذكر المسافات بين قرن المنازل وبين مكة والطائف، ثم نقارنها بالمسافات بين كلاً من السيل والهدى، وبين مكة والطائف، لنرى أيهما أنسب بقرن المنازل.

المسافة بين قرن المنازل ومكة:

اختلفت تعبيرات القدماء في تحديد المسافة بين قرن المنازل ومكة فبعضهم حددها بمرحلتين (٢) وبعضهم قال: على يوم وليلة (٣) أو ليلتين (٤)، ولكن الاختلاف لفظي؛ لأن المرحلة مسير يابض يوم أو سواد ليلة (٥) والمراد باليوم هو اليوم الشرعي الذي هو النهار من طلوع الفجر إلى غروب الشمس (٦)، والليلة من غروب الشمس إلى طلوع الفجر والليلة تساوي مرحلة، فالمرحلة تساوي ٢٨ ميلاً تقريباً قد تزيد وقد تنقص. والمرحلتان تساوي ٤٨ ميلاً.

وقال الحسن بن محمد المهلبى (٧): قرن قرية بينها وبين مكة ١٥ ميلاً.

إذاً المسافة بين قرن المنازل ومكة تتراوح بين ٤٨ ميلاً (٥٥٢/٨٨) وبين ٥١ ميلاً (٤٢٠/٩٣).

بين قرن المنازل والطائف:

قال المهلبى (٨): وبينها وبين الطائف ذات اليمين ٣٦ ميلاً، وهو ما يساوي ب (١٨٦.٥٦) كيلو متراً.

١- ٦ في معجم البلدان ٤: ٤٤٢.

٢- ٧ الكردى فى التاريخ القويم ٤: ٢٨٨- مرآة الحرمين ١: ٢٢٦- الرياض ٦: ١٩٠- كشف اللثام ١: ٣٠٦- الجواهر ١٨: ١٣٣.

٣- ٨ القاضى عياض- معجم البلدان ٤: ٣٣٢.

٤- ٩ المبسوط.

٥- ١٠ المصباح المنير الفيومى: ٢٢٣.

٦- ١١ الحدائق الناضرة- البحرينى ١١: ٣٠٣.

٧- ١٢ معجم البلدان- ياقوت الحموى ٤: ٣٣٢.

٨- ١٣ معجم البلدان- ياقوت الحموى ٤: ٣٣٢.

ص: ٨٢

وذكر الحربى والكردى (١): أن الطريق بين مكة والطائف على قرن المنازل ثلاثة أيام وهى تساوى ٧٢ ميلاً، فإذا طرح منها يومان التى هى المسافة بين مكة وقرن بقى يوم وهو يساوى ٢٤ ميلاً (٧٧٢/٤٣).

المسافة بين مكة والطائف على قرن المنازل:

ذكر الحربى فى طريق الطائف إلى مكة بقرن المنازل: أنه ثلاثة أيام فإذا كان اليوم كما تقدم يساوى ٢٤ ميلاً (٧٧٦/٤٣) تكون المسافة ٧٢ ميلاً وهى (٣٢٨/١٣١).

وما ذكره المهلبى: أن بين مكة وقرن المنازل ٥١ ميلاً، وبين قرن والطائف ٣٦ ميلاً يكون المجموع ٧٨ ميلاً، وتساوى (٨٨٦/١٥٨) كيلومتراً.

هذه هى المسافات بين قرن المنازل وبين مكة والطائف والمسافة بين مكة والطائف على الطريق المار بقرن المنازل، وقد عرفت أن هناك طريقين وهما مسلوكان قديماً وحديثاً، أحدهما الطريق السالك على السيل، والآخر الطريق السالك على الهدى، وإذا أردنا أن نعرف أن قرن المنازل واقع على أى الطريقين؛ ليتعين أيهما هو قرن المنازل، فلا بد من معرفة المسافات على كلا الطريقين، ومقارنتها بالمسافات المتقدمة فى قرن المنازل.

أولاً: السيل:

بين السيل ومكة:

حدّدها دهيش (٢): تبعد عن مكة ٨٠ كم وعن الطائف ب ٣٥ كم، وحددها الفالح (٣) ب ٧٨ كم من بطن الوادى و ٧٥ من المكان الذى يحرم منه الحج والمعمرون، كما حدّدها مغنية (٤) ب ٩٤ كم، وفى خرائط المهندس زكى محمد على فارسى (٥) يظهر أن بين السيل ومكة ٩٥ كم.

بين السيل والطائف

ذكر دهيش (٦) أن قرن المنازل يبعد عن الطائف ب ٥٣ كم.

١- ١٤ كتاب المناسك - إبراهيم الحربى: ٦٥٣-٦٥٤؛ التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ٢: ٢٧.

٢- ١٥ حاشية كتاب أخبار مكة للفاكهى - عبد الملك دهيش ٥: ١٠٠

٣- ١٦ مواقيت الحج والعمرة المكانية - مساعد الفالح: ٢٧.

٤- ١٧ فقه الإمام الصادق - محمد جواد مغنية.

٥- ١٨ أطلس الطرق السعودية: ت ٩

٦- ١٩ حاشية أخبار مكة للفاكهى ٥: ١٠٠

ص: ٨٣

بين مكة والطائف على طريق السيل

محمد صادق باشا (١): والزمن الذي استغرقناه في قطع الطريق من مكة إلى الطائف ٣٦ ساعة أمطينا فيها الإبل.

من كلام دهيش يظهر أن المسافة بين مكة والطائف على طريق السيل ١٣٣ كم، كما أن مقدار مسير ٣٦ ساعة على الإبل تقدر ب ٢٤ فرسخاً وهي تساوي ٧٢ ميلاً / ٣٢٨ / ١٣١.

وذكر إبراهيم رفعت باشا (٢) في جداول المسافات بين مكة ومهمات المدن الإسلامية: أن بين الطائف ومكة ٤٠ ميلاً، وهي تساوي ٧٢ / ٩٦ كيلومتراً.

ملحس (٣): الطائف تبعد عن مكة ١٣٧ كم عن طريق السيل.

ثانياً الهدى:

بين الهدى ومكة:

يظهر من فارسي (٤): أن بين الهدى ومكة ٥٩ كم. وذكر (٥): أن بين مكة والطائف ٨٨ كم وذكر أيضا (٦): أن بين الهدى والطائف ١٥ كم، فتكون المسافة بين الهدى ومكة ٧٣ كم.

وفي معجم البلدان (٧): أنها ٢٤ ميلاً (٧٧٦ / ٤٣) كم.

بين الهدى والطائف:

ذكر فارسي أنها ١٥ كيلو متراً، ويظهر من معجم البلدان، أنها ١٢ ميلاً وتساوي (٨٨٨ / ٢١) كم.

إبراهيم رفعت باشا (٨): وبساتين الطائف قليلة وأشهرها (الهدى) غربى البلد بثلاث ساعات.

إذا كانت المرحلة التي هي مسير يوم (١٢ ساعة) تساوي ٢٤ ميلاً، فثلاث ساعات تقارب ٦ أميال / ١١ كيلو متراً تقريباً.

١- ٢٠ مرآة الحرمين - إبراهيم رفعت باشا ١: ٣٤٧.

٢- ٢١ مرآة الحرمين - إبراهيم رفعت باشا ١: ٣٦٧.

٣- ٢٢ تعليقه كتاب أخبار مكة للأزرقي ٢: ١٥٧.

٤- ٢٣ أطلس الطرق السعودية: ت ٩.

٥- ٢٤ أطلس الطرق السعودية: جدول المسافات بين مدن المملكة الرئيسية.

٦- ٢٥ أطلس الطرق السعودية: ١٨.

٧- ٢٦ كما هو المستفاد من قوله: مسيرة يوم للطالع من مكة - معجم البلدان ٤: ٨.

٨- ٢٧ مرآة الحرمين - إبراهيم رفعت باشا ١: ٣٤٧.

ص: ٨٤

بين مكة والطائف على طريق الهدى:

محمد صادق باشا (١): ولها طريقان يقطع أقصرهم في ١٨ ساعة، وهي تساوي يوماً ونصفاً، وتساوي ٣٦ ميلاً (٦٤٨ / ٦٥).

وقال (٢)(٣): فتكون المسافة من الطائف إلى مكة خمسة عشرة ساعة وربعاً بالغال، وبعض الناس يقطعها في ١٣ ساعة.

ومقدار مسير ١٥ ساعة وربع / ٣٠ ونصف ميل / ٦٣٢ / ٥٥، أو أقل؛ لأن مسير البغال أسرع من مسير القطار من الإبل الذي هو المقياس في السير.

الكردي (٤): فتكون المسافة بين مكة والطائف عن طريق كرا الجديد حوالي ٨٥ كم.

و الحربى (٥): حدّد المسافة على طريق كرا بيومين وهي تساوي ٤٨ ميلاً (٥٢٢ / ٨٧).

زكى فارسي (٦): حدّد لها ب ٨٨ كم.

الروض المعطار (٧): الطائف مخلاف من مخاليف مكة على مرحلتين من مكة.

والمرحلتان تساوي ٤٨ ميلاً (٥٢٢ / ٨٧) كم.

أقول: ما ذكره الروض المعطار وإن لم يذكر أنه على أى طريق إلا أنه لا يتفق إلا على طريق الهدى.

الحموي (٨): والطائف: هو وادي وج، وهو بلاد ثقيف، بينها وبين مكة اثنا عشر فرسخاً، وهي تساوي ٣٦ ميلاً (٨٦٦ / ٦٥) كم.

أقول: وهو لا يتفق إلا على طريق الهدى، والشاهد على ذلك أنه قال في ص ٨: وبالطائف عقبه وهي مسيرة يوم للطالع من مكة ونصف يوم للهابط إلى مكة، عمّرها عبد نوبى وزرّ لأبى الحسين بن زياد صاحب اليمن في حدود سنة ٤٣٠، فعمر هذه العقبة عمارة يمشى في عرضها ثلاثة جمال بأحمالها.

وهذه العقبة هي جبل كرا، واليوم يساوي ٢٤ ميلاً، ونصف اليوم يساوي

١- ٢٨ مرآة الحرمين - إبراهيم رفعت باشا ١: ٣٤٤ نقلًا عن كتاب دليل الحج للوارد إلى مكة من كلّ فج، لمؤلفه محمد صادق باشا من ضباط أركان الحرب ومن المهندسين.

٢- ٢٨ مرآة الحرمين - إبراهيم رفعت باشا ١: ٣٤٤ نقلًا عن كتاب دليل الحج للوارد إلى مكة من كلّ فج، لمؤلفه محمد صادق باشا من ضباط أركان الحرب ومن المهندسين.

٣- ٢٩ مرآة الحرمين - إبراهيم رفعت باشا ١: ٣٥٣.

٤- ٣٠ التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ٢: ٢٧.

٥- ٣١ المناسك - إبراهيم الحربى: ٦٥٣، ٦٥٤.

٦- ٣٢ أطلس الطرق السعودية - زكى محمد على فارسي ٣٠

٧- ٣٣ الروض المعطار: ٣٧٩.

٨- ٣٤ وفي معجم البلدان ٤: ٩

ص: ٨٥

١٢ ميلاً، فيكون المجموع ٣٦ ميلاً و هي تساوي ١٢ فرسخاً و تساوي (٦٥ / ٨٦٦) كم.

المسافة قرن المنازل الهدى السيل

مكة ٨٧ / ٥ - ٩٣ / ٨ ٤٣ - ٥٩ / ٧٨ - ٩٥

الطائف ٤٣ / ٧ - ٦٦ / ٦ ٥٣ ٢١

المجموع ١٣١ - ١٥٩ / ٦ ١٤٨ - ١٣١ ٨٠ - ٦٤ / ٨

الطريق بين مكة والطائف

على قرن على الهدى على السيل

١٣١ - ١٥٨ / ٧ ٦٥ - ١٣٣ ٨٨ / ٥ - ١٥٩ / ٧

بالمقارنة بين المسافات نجد أن المسافة بين قرن المنازل ومكة والطائف تقارب المسافة بين السيل وكل منهما، بينما يكون الفارق كبيراً مع مقارنة المسافات بينهما وبين قرن المنازل بالمسافة بينهما وبين الهدى، وكذلك أن مسافة الطريق بين مكة والطائف على طريق قرن المنازل تتقارب جداً مع طريق السيل بينما يكون الفارق كبيراً مع طريق الهدى.

ومن هذا نستنتج أن قرن المنازل لا يقع على طريق الهدى، بل على طريق السيل.

إشكال:

قد يورد على كون قرن المنازل هو السيل وتأيداً لكونه الهدى؛

أنه ورد في كلمات بعض اللغويين والفقهاء:

معجم البلدان (١): قال الغوري: وهو ميقات أهل اليمن والطائف.

وقال الحسن بن محمد المهلبى (٢): وهي ميقات أهل اليمن.

قال ابن خربوذ (٣): قرن المنازل قرية عظيمة وهي ميقات أهل اليمن للحج

١- ٣٥ معجم البلدان- ياقوت الحموى ٤: ٢٣٣.

٢- ٣٦ معجم البلدان- ياقوت الحموى ٤: ٢٣٣.

٣- ٣٧ صبح الأعشى - أبو العباس القلقشندى ٥: ٤٣.

ص: ٨٦

يحرمون منها.

وقال الأزرقى (١): وعكاظ وراء قرن المنازل بمرحلة على طريق صنعاء.

وذكر الحميرى (٢) فى موضع عكاظ: وقيل: هى وراء قرن المنازل بمرحلة فى طريق صنعاء.

كما ورد فى بعض الروايات أن قرن المنازل ميقات أهل اليمن أيضاً.

عن على بن رثاب (٣): قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الأوقات التى وقتها رسول الله للناس، فقال عليه السلام: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وقت لأهل المدينة ذا الحليفة وهى الشجرة، ووقت لأهل الشام الجحفة، ووقت لأهل اليمن قرن المنازل ولأهل نجد العقيق.

وروى على بن جعفر (٤) عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام قال: سألته عن إحرام أهل الكوفة وخراسان ومن يليهم وأهل مصر من أين هو؟

قال: إحرام أهل العراق من العقيق ومن ذى الحليفة، وأهل الشام من الجحفة، وأهل اليمن من قرن المنازل، وأهل السند من البصرة أو مع أهل البصرة.

وفى قرب الإسناد (٥) عن عبد الله بن بكير ... قال: فدخلنا على أبى عبد الله عليه السلام فقال ضريس بن عبد الملك: إن هذا زعم أنه لا ينبغى الإحرام إلا من العقيق.

قال: صدق، ثم قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وقت لأهل المدينة ذا الحليفة، ولأهل الشام الجحفة، ولأهل اليمن قرن المنازل، ولأهل نجد العقيق.

وهذا لا يتناسب مع كونه السيل، الذى يقع فى الشمال الشرقى عن مكة، وإنما يتناسب مع كونه وادى محرم القريب من الهدى، الذى يقع فى الجنوب الشرقى لمكة؛ لأن اليمن تقع إلى الجنوب من مكة مع انحراف إلى جهة الشرق.

والجواب:

أولاً: أن جلّ الفقهاء من العامة ذكروا أن قرن المنازل ميقات أهل نجد وعليه عامة رواياتهم، وعلماء الإمامية اتفقوا على أن قرن المنازل ميقات أهل الطائف

١- ٣٨ أخبار مكة- أبو الوليد الأزرقى ١: ١٩٠

٢- ٣٩ الروض المعطار- محمد بن عبد المنعم الحميرى: ٤١١.

٣- ٤٠ الوسائل ٨، باب ١ من أبواب المواقيت ح ٧.

٤- ٤١ الوسائل ٨، باب ١ من أبواب المواقيت ح ٨.

٥- ٤٢ قرب الإسناد للحميرى القمى: ٨١.

ص: ٨٧

وعليه أكثر الروايات، وقد ورد في بعض الروايات أنه ميقات أهل نجد، كما ورد في بعضها كما مرّ أنها ميقات أهل اليمن، كما أن في بعض الروايات أن النبي وقت لأهل نجد العقيق، كما وقت لأهل اليمن يلملم.

وقد أجابوا (١) عن هذا بأن لنجد طريقين أحدهما يمرّ بالعقيق والآخر بقرن المنازل، وقد أتفق الفقهاء على أن المواقيت مواقيت لأهلها ولمن مرّ عليها من غير أهلها، وأنه لو سلك أهل ميقات طريقاً غير طريق ميقاتهم أحرموا من ذلك الميقات، ولا يلزمهم الرجوع إلى ميقاتهم، وبمثل هذا الجواب نجيب عن هذا فإنّ لليمن طريقين: أحدهما يمرّ على قرن المنازل، والآخر يمرّ على يلملم، ونذكر ما يؤيد ذلك:

١- روى الشافعي في الأم (٢): عن سعيد بن سالم قال: أخبرنا ابن جريج قال: أخبرني عطاء: أن رسول الله وقت لأهل المدينة ذا الحليفة، ولأهل المغرب الجحفة، ولأهل المشرق ذات عرق، ولأهل نجد قرناً، ومن سلك طريق نجد من أهل اليمن وغيرهم قرن المنازل، ولأهل اليمن يلملم.

٢- قال أبو زيد الكلابي (٣): نخلة واد من الحجاز بينه وبين مكة مسيرة ليلتين، إحدى الليلتين من نخلة يجتمع بها حجاج اليمن وأهل نجد، ومن جاء من قبل الخط وعمان وهجر ويبرين فيجتمع حاجهم بالوباءة، وهي أعلى نخلة، وهي تسمى النخلة اليمانية. وقد بينا موقع النخلة اليمانية والوباءة، فيتين أنّ لأهل اليمن طريقاً يمرّ بقرن والنخلة اليمانية.

٣- ذكر الحربى (٤) طريقين لليمن إلى مكة أحدهما طريق البحر والآخر طريق على تهامة، [ثم ذكر طريق البحر من صنعاء إلى أن قال]: ومن يشئ إلى تباله، ومن تباله إلى أجرب، ومن أجرب إلى كراء، وهي حرة بنى سليم، ومن كرا إلى تربة، ومن تربة إلى صفن، ومن صفن إلى أوقح، ومن أوقح إلى الفتق، ومن

١- ٤٣ الحدائق الناضرة: مواقيت الاحرام.

٢- ٤٤ الأم: ١٣٧.

٣- ٤٥ المناسك: ٦٤٣.

٤- ٤٦ المناسك: ٦٤٦.

ص: ٨٨

فتق إلى قرن، ومن قرن إلى نخلة وهي البستان ومن نخلة إلى مكة.

وذكر الطريق الآخر وهو طريق تهامة من صنعاء [إلى أن قال]: ومن الليث إلى مركوب، ومن مركوب إلى يلملم، ومن يلملم إلى ملكان، ومنها إلى مكة (١).

وذكر طريق حضرموت (٢) [إلى أن قال]: ومنها إلى وادي عقيل، ومنها إلى الكراء، ومنها إلى تربة، ومنها إلى صفن، ومنها إلى أوقح، ومنها إلى العقيق، ومنها إلى قرن، ومنها إلى نخلة، ومنها إلى مكة.

وكراء في كلام الحربى ليس هي جبل كراء؛ لأنه عرّفها بأنها حرّة بنى سليم، إضافة إلى أن جبل كراء لا تقع بين تبالة وتربة، وقال الجاسر (٣): كراء واد عظيم معروف ينحدر، فيشق الحرّة حتى يفضى إلى واد، وقال: إن الصواب حرّة بنى هلال وتسمى الآن حرّة البقوم، وفي

معجم البلدان (٤): وقيل: واد يدفع سيله في تربة، وذكر الفرق بينها وبين جبل كراء: قال ابن السكيت في قول عروة بن الورد:

تحل بواد من كراء مضلة تحاول سلمى أن أهاب وأحصرا

قال: كراء هذه التي ذكرها ممدودة هي أرض بيشة، كثيرة الأسد، وكراء غير هذه، مقصورة: ثنية بين مكة والطائف.

ووادى عقيل قال الجاسر (٥): المقصود منه عقيق عقيل المعروف الآن بإطم وادى الدواسر. وفي معجم البلدان (٦): ومنها العقيق الذى

في بلاد بنى عقيل. قال أبو زيد الكلابي: عقيق بنى عقيل فيه منبر من منابر اليمامة، وقال السكوني: عقيق اليمامة لبنى عقيل.

والعقيق الذى مرّ في كلام الحربى أيضاً ليس هو العقيق الذى تقع فيه ذات عرق، والذى هو ميقات أهل العراق، بل هو عقيق اليمامة

المسمى بعقيق تمرّة. قال الحموي (٧) قال أبو منصور: وفي بلاد العرب أربعة أعقة وهي أودية عادية شقتها

١- ٤٧ انظر هذه الأماكن في أطلس الطرق السعودية خارطة ب ١٧.

٢- ٤٨ حاشية كتاب المناسك: ٦٤٧.

٣- ٤٩ حاشية كتاب المناسك: ٦٤٤.

٤- ٥٠ معجم البلدان- ياقوت الحموي ٤: ٤٤٢.

٥- ٥١ حاشية كتاب المناسك: ٦٤٨.

٦- ٥٢ معجم البلدان- ياقوت الحموي ٤: ١٣٩.

٧- ٥٣ معجم البلدان- ياقوت الحموي ٤: ١٣٩.

ص: ٨٩

السيول، وقال الأصمعي: الأعقة الأودية، قال: فمنها عقيق عارض اليمامة: وهو واد واسع مما يلي العرمة يتدفق فيه شعاب العارض وفيه عيون عذبة الماء. قال السكوني: عقيق اليمامة لبني عقييل فيه قرى ونخل كثير. ويقال: أهل عقيق تمره، وهو عن يمين القرط منقطع عارض اليمامة في رمل الجزء، وهو منبر من منابر اليمامة عن يمين من يخرج من اليمامة يريد اليمن، عليه أمير. وعن القاضي عياض في ذكر الأعقة: ومنها عقيق تمره: قرب تبالة وبيشة، وقد مر وصفه في زبيته، وقيل: عقيق تمره هو عقيق اليمامة وقد ذكر ..

وقال: (١) قال الواقدي: تربة وزبيته واديان بعجز هوازن، وقال عرام: وفي حد تبالة قرية يقال لها: زبيته، وفيه عقيق تمره (٢). وبيشة وتبالة وتربة معروفات حتى الآن، ويمكنك مراجعة خرائط المملكة السعودية (٣) لتعرف أماكنها، وتعرف على الطريق الذي ذكره الحربى فإنه لا يمر على الهدى، وإنما يمر شرق الطائف إلى طريق قرن المنازل الذي هو السيل ثم نخلة. الهدى أعلى قرن المنازل:

هناك محاولة من بعض الكتاب لإدخال الهدى في قرن المنازل، نذكرها؛ لنرى هل تعارض ما قدمناه من شواهد على كون السيل هو قرن المنازل أم تكون مؤيدة له؟

الفالح (٤): وقد اشتهر اسم هذا الميقات الآن باسم السيل الكبير، ويتصل هذا الوادى بوادى محرم المسمى قرناً، والذي يمر به الطريق المسمى كرا المتجه إلى مكة.

أما وادى محرم فهو أعلى من قرن المنازل، وكذا من السيل الكبير. ووادى محرم يطلق عليهما اسم قرن الميقات المذكور، فمن أحرم من أحدهما فقد أحرم من الميقات الشرعى، ولذلك لا يعتبر وادى محرم ميقاتاً مستقلاً من حيث الاسم؛ لأنه هو قرن المنازل، فاسم قرن شامل للوادى كله سواء عن طريق ما يسمى بالسيل الكبير، أو عن الطريق المسمى الآن بالهدا.

١- ٥٤ معجم البلدان- ياقوت الحموى ٣: ١٣٣.

٢- ٥٥ انظر أطلس الطرق السعودية رقم ٣١.

٣- ٥٦ أطلس الطرق السعودية، رقم ١٣، ب ٥١-٦١.

٤- ٥٧ مواقيت الحج والعمرة المكانية: ٢٧.

ص: ٩٠

وفى الحاشية قال: وهذا ما أكدته تقرير كتبه لجنة علمية شكلت بتوجيه من سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم حيث قال الشيخ: بعد أن سعى في تسهيل طريق كرا، وغلب على ظني نجاح ذلك، صرت إلى مزيد من الاحتياط لهذا الميقات المسمى محرماً، فعمدت إلى لجنة علمية، مؤلفة من عالمين فاضلين، لديهما من الملكة العلمية والخبرة الوطنية والفقهاء والنباهة ما لا يوجد عند كثير من أضرابهما، وهما: الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن جاسر رئيس هيئة التمييز للمنطقة الغربية، والشيخ محمد ابن علي البيز رئيس محكمة الطائف، أن يذهبا إلى وادي محرم المذكور، وينظرا هو أعلى وادي قرن المسمى بالسيل، فذهبا ونظرا وبذلا وسعهما واستصحبا في مسيرهما خبراء من أهل تلك الناحية، وتحصل لديهما أنه هو أعلى وادي قرن المنازل، وكتبا لنا بذلك كتابة صريحة واضحة بأنه هو أعلى وادي قرن المنازل، وقد صرحت كثير من وثائق عقارات أهل وادي محرم الموجودة في سجلات محكمة الطائف بما لا يدع مجالاً للشك: أن وادي محرم هو وادي قرن، ولا نظن أن تلك العقارات هي في أسفل الوادي المسمى بالسيل، بل كلها أو أكثرها في أعلاه إلى وادي محرم كالدار البيضاء وقرية المشائخ ونحوها.

نقل ذلك عن الشيخ ملخصاً فضيلة الشيخ عبد الله البسام في كتابه الاختيارات الجلية من المسائل الخلافية ٢: ٣٧٩.

ونستفيد من هذا الكلام اموراً:

الأول: أن الطريق السالك قديماً كان هو طريق السيل، وأن الناس كانوا يحرمون منه حتى سهل طريق كرا فأصبح صالحاً لسلوك الحجاج، وهذا يظهر أيضاً من تعبير بعضهم - كالبلادي والكردي - عن طريق السيل بالقديم.

الثاني: أن الشيخ محمد بن إبراهيم كان في بدء أمره شاكاً في كون وادي محرم من الميقات الشرعي، وأنه هل هو واقع في وادي قرن بحيث يكون من الميقات الشرعي أم أنه خارج عن قرن، وهذا التشكيك من مثل الشيخ محمد بن إبراهيم

ص: ٩١

يكشف لنا عن عدم كونه معروفاً بأنه من الميقات الشرعية من قبل.

الثالث: أن الشيخ محمداً لم يشك في كون السيل هو الميقات الشرعي وأنه قرن المنازل بل هو قاطع بذلك، لذلك أوصى الشيخين بالذهاب إلى وادي محرم لينظرا:

هل وادي محرم أعلى وادي قرن المسمى بالسيل أم أنه خارج عنه؟

أما نتيجة تتبع هذه اللجنة وبحثها فهو أن وادي محرم هو أعلى وادي قرن، وقد اعتمدوا على أمرين:

الأول: ما أفاده أهل الخبرة أو من أهل المنطقة من أن وادي محرم أعلى وادي قرن.

الثاني: أن الوثائق المسجلة للعقارات الموجودة في أعلى وادي السيل إلى وادي محرم كالدار البيضاء وقرية المشايخ مسجلة باسم قرن. المناقشة:

ويمكننا أن نناقش في هذه النتيجة بأمور:

أولاً: أننا لم نجد تصريحاً لأحد من المتقدمين بأن وادي قرن يشمل الهدى أو أن الهدى في قرن المنازل، ولا أنه يصل إلى حد جبل كرا، بل أن كل الشواهد تشير إلى أن قرناً واقع عند النخلة اليمانية وقريباً من البستان.

أما أن إطلاق قرن على هذا الوادي فغير معروف من قبل، كما يظهر من كلام الذين وصفوا كلا الطريقين كالحربي والكردى وغيرهما، فإنه لم يذكر أحد أن طريق كرا يمر بقرن، ولو كان وادي قرن شاملاً للهدى لذكروا مرور طريق كرا (طريق الهدى) عليه كما ذكروا مرور طريق قرن بالنخلة اليمانية ويدعان وغيرها، وكما ذكروا مرور طريق الهدى بكرا وبنعمان الأراك وبعرفة... الخ.

ثانياً: لو سلمنا بشمول قرن إلى وادي محرم الواقع عند قرية الهدى، فإن الشواهد التي ذكرناها في تحديد الميقات كلها تشير إلى كونه في أسفل الوادي، وهو ما يسمى بالسيل الكبير، وقد مرّت كلها مفصلة، ومنها مكان إحرام الرسول الذي

ص: ٩٢

ذكرناه في طريقه إلى مكة عائداً من غزوة الطائف حيث أحرم بالعمرة.

ثالثاً: أما السجلات فإنه قد تعدد منطقة تابعه لمنطقة أخرى في الإدارات، فتسجل العقارات والإجراءات القانونية والعمرائية في البلديات والمحاكم وغيرها باسم تلك المنطقة المتبوعه، وهذا أمر متعارف في هذه الأزمنة، لكنه لا يعنى شمولها لها حتى في مثل المواقيت الشرعية، التي لا ربط لها بالمقررات الدوليّة والقوانين الوضعيّة.

وعلى أى تقدير فإنّ القدر المتيقن من الميقات الشرعى الذى هو قرن المنازل هو السيل الكبير، وهو المتسالم عليه الذى لا شك فيه ولا شبهة تعتريه.

مصادر البحث:

- ١- الأزهار الأرجية- الشيخ فرج العمران.
- ٢- أخبار مكة فى قديم الدهر وحديثه- عبد الله بن محمد بن إسحاق الفاكهى- تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهبش- ط الثانية ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م- نشر دار خضر للطباعة والنشر- بيروت.
- ٣- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار- أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقى- تحقيق رشدى الصالح ملحس- ط الثالثة ١٤٠٢ هـ ١٩٨٣ م- نشر دار الأندلس- بيروت.
- ٤- إرشاد السارى إلى مناسك ملا على القارى.
- ٥- أطلس الطرق السعودية ودليل السياحة- زكى محمد على فارسى- ط الأولى ١٤١٥ هـ، ١٩٩٥ م.
- ٦- الأغانى- أبو الفرج الأصفهاني.
- ٧- الأم- محمد بن إدريس الشافعى.
- ٨- أودية مكة المكرمة- عاتق بن غيث البلادى- نشر دار مكة- ط الأولى ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.

ص: ٩٣

- ٩- تاج العروس.
- ١٠- التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم- محمد طاهر الكردي- ط الأولى ١٣٨٥ هـ.
- ١١- تاريخ الطبرى.
- ١٢- تحفة الناسك بأحكام المناسك- سليمان بن عبد الله بن عبد الوهاب- ط ١٣٦٤ هـ- مكة المكرمة.
- ١٣- الجواهر- الشيخ محمد حسن النجفى- ط دار الكتب الإسلامية قم ١٣٧٣ هـ.
- ١٤- حاشية أخبار مكة للفاكهى- عبد الملك بن عبد الله بن دهبش [مع كتاب أخبار مكة للفاكهى].
- ١٥- حاشية أخبار مكة للأزرقى- رشدى الصالح ملحس- مع كتاب أخبار مكة للأزرقى.
- ١٦- حاشية الجامع الصحيح.
- ١٧- حاشية كتاب المناسك للحربى- حمد الجاسر [مع كتاب المناسك].
- ١٨- الروض المعطار- محمد بن عبد المنعم الحميرى- ط مكتبة لبنان.
- ١٩- الحدائق الناضرة- الشيخ يوسف آل عصفور- ط جماعة المدرسين- قم.
- ٢٠- رياض المسائل- السيد على العاملى- ط جماعة المدرسين ١٤١٥ هـ.
- ٢١- السيرة النبوية- ابن هشام.
- ٢٢- شرح السيوطى على النسائى- السيوطى.
- ٢٣- صحاح اللغة.
- ٢٤- صبح الأعشى- أبو العباس القلقشندى- ط وزارة الثقافة والإرشاد القومى- مصر.
- ٢٥- فقه الإمام الصادق- محمد جواد مغنیه.
- ٢٦- القاموس المحيط- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى- ط الأولى- دار إحياء التراث العربى- بيروت- ١٤١٢ هـ- ١٩٩١ م.
- ٢٧- كشف اللثام- الطبعة الحجرية.
- ٢٨- لسان العرب- ابن منظور- ط الأولى الجديدة المحققة- بيروت ١٤١٦ هـ- ١٩٩٥ م.
- ٢٩- مختار الصحاح. ٣٠- مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع- صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق

ص: ٩٤

- البغدادى- تحقيق على محمد البجاوى- ط الأولى ١٣٧٤ هـ، ١٩٥٥ م- نشر دار المعرفة للطباعة والنشر- بيروت.
- ٣١- مرآة الحرمين- اللواء إبراهيم رفعت باشا- ط الأولى- مط دار الكتب المصريه- القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ ١٩٢٥ م.
- ٣٢- المصباح المنير- أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي ط الثانية ١٤١٤ هـ- نشر دار الهجرة- إيران.
- ٣٣- معالم مكة التاريخية- عاتق بن غيث البلادى- نشر دار مكة- ط الثانية ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م.
- ٣٤- معجم البلدان- ياقوت بن عبد الله الحموى- ط دار إحياء التراث العربى- بيروت.
- ٣٥- معجم متن اللغة- أحمد رضا.
- ٣٦- معجم مقاييس اللغة.
- ٣٧- المغازى.
- ٣٨- المغرب- المطرزي.
- ٣٩- المطالعة السعودية- عبد الجبار الرفاعى.
- ٤٠- كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة- إبراهيم بن إسحاق الحربى تحقيق حمد الجاسر- نشر دار اليمامة للبحث والترجمة- الرياض.
- ٤١- مقتطفات من رحلة العياشى (ماء الموائد)- لعبد الله بن محمد العياش (١٠٩٠ هـ)- حمد الجاسر- ط الأولى ١٤٠٤ هـ، ١٠٨٤ م- نشر دار الرفاعى- الرياض.
- ٤٢- مواقيت الحج والعمرة المكانية- مساعد بن قاسم الفالح- ط الأولى ١٤١٣ هـ- ١٩٩٣ م نشر مكتبة المعارف- الرياض.
- ٤٣- ميقات الحج (مجلة)- عدد ٥- السنة الثانية ١٤١٧ هـ.
- ٤٤- النهاية- ابن الأثير.

ص: ٩٥

الهوامش:

ص: ٩٦

مختارات شعريه حسان بن ثابت يرثى رسول الله صلى الله عليه و آله

ص: ٩٧

مختارات شعريه حسان بن ثابت يرثى رسول الله صلى الله عليه و آله
بطيبه رسم للرسول ومعهد مثير وقد تغفو الرسوم وتهمد
ولا تمنحى الآيات من دار حزمه بها منبر الهادي الذي كان يصعد
وواضح آيات وبقى معالم ورثع له فيه مصلى ومسجد
بها حجرات كان ينزل وسطها من الله نور يستضاء ويوقد
معالم لم تطمس على العهد آيتها أتاها البلى فالأى منها تجد
عرفت بها رسم الرسول وعهده وقبرا به وراه فى التراب ملحد

ص: ٩٨

ظَلَلْتُ بِهَا أَبْكَى الرَّسُولَ فَأَسْعَدْتُ عُيُونَ وَمِثْلَهَا مِنَ الْجَفْنِ تُشْعِدُ
تَذَكَّرُ آلَاءَ الرَّسُولِ وَمَا أَرَى لَهَا مُحْصِيًّا نَفْسِي فَنَفْسِي تَبَلَّدُ
مُفَجَّعَةٌ قَدْ شَفَّهَا فَقَدْ أَحْمَدُ فَظَلَّتْ لِآلَاءِ الرَّسُولِ تُعَدُّ
وَمَا بَلَغَتْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عَشِيرَهُ وَلَكِنَّ نَفْسِي بَعْضَ مَا فِيهِ تَحْمَدُ
أَطَالَتْ وَقُوفًا تَذْرِفُ الْعَيْنُ جُهْدَهَا عَلَى طَلَلِ الْقَبْرِ الَّذِي فِيهِ أَحْمَدُ
فَبُورِكَتَ يَا قَبْرَ الرَّسُولِ وَبُورِكَتَ بِلَادُ تَوَى فِيهَا الرَّشِيدُ الْمَسْدُدُ
وَبُورِكَتَ لِحْدُ مِنْكَ ضَمَنْ طَيِّبًا عَلَيْهِ بِنَاءٌ مِنْ صَفِيحٍ مُنْصَدُّ
تَهِيلُ عَلَيْهِ التُّرْبُ أَيْدٍ وَأَعْيُنٌ عَلَيْهِ وَقَدْ غَارَتْ بِدَلِكُكَ أَسْعُدُ
لَقَدْ غَيَّبُوا حِلْمًا وَعِلْمًا وَرَحْمَةً عَشِيَّةً عَلَوُهُ التُّرَى لَا يُوسَدُ
وَرَا حُوا بُحْرِنٌ لَيْسَ فِيهِمْ نَبِيَّهُمْ وَقَدْ وَهَنْتَ مِنْهُمْ ظُهُورٌ وَأَعْضُدُ
يُبْكُونَ مَنْ تَبْكِي السَّمَوَاتُ يَوْمَهُ وَمَنْ قَدْ بَكَتَهُ الْأَرْضُ فَالنَّاسُ أَكْمَدُ

ص: ٩٩

وَهَلْ عَدَلْتُ يَوْمًا رَزِيئُهُ هَالِكِ رَزِيئُهُ يَوْمَ مَاتَ فِيهِ مُحَمَّدٌ
تَقَطَّعَ فِيهِ مَنْزِلُ الْوَحْيِ عَنْهُمْ وَقَدْ كَانَ ذَا نُورٍ يُغَوَّرُ وَيُنْجَدُ
يَدُلُّ عَلَى الرَّحْمَنِ مَنْ يَتَّقِدِي بِهِ وَيُنْقِدُ مِنْ هَوْلِ الْخَزَايَا وَيُزْشِدُ
إِمَامٌ لَهُمْ يَهْدِيهِمُ الْحَقَّ جَاهِدًا مُعَلِّمٌ صَدَقَ إِنْ يُطِيعُوهُ يَسْعُدُوا
عَفْوًا عَنِ الزَّلَاتِ يَقْبَلُ عُذْرَهُمْ وَإِنْ يُحْسِنُوا فَاللَّهُ بِالْخَيْرِ أَجْوَدُ
وَإِنْ نَابَ أَمْرٌ لَمْ يَقُومُوا بِحَمْدِهِ فَمِنْ عِنْدِهِ تَيْسِيرٌ مَا يَتَشَدَّدُ
فَبَيْنَاهُمْ فِي نِعْمَةِ اللَّهِ بَيْنَهُمْ دَلِيلٌ بِهِ نَهَجُ الطَّرِيقَةِ يُقْصَدُ
عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَحِيدُوا عَنِ الْهَدَى حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَسْتَقِيمُوا وَيَهْتَدُوا
عَطُوفٌ عَلَيْهِمْ لِأَيْتُنِي جَنَاحَهُ إِلَى كَنْفٍ يَخْنُو عَلَيْهِمْ وَيَمْهَدُ
فَبَيْنَاهُمْ فِي ذَلِكَ النُّورِ إِذْ غَدَا إِلَى نُورِهِمْ سَهْمٌ مِنَ الْمَوْتِ مُقْصَدُ
فَأَصْبَحَ مُحَمَّدًا إِلَى اللَّهِ رَاجِعًا يُبَكِّيه جَفْنُ الْمُرْسَلَاتِ وَيَحْمَدُ

ص: ١٠٠

وَأَمْسَتْ بِلَادُ الْحَزْمِ وَحَشًا بَقَاعُهَا لِعَيْبِهِ مَا كَانَتْ مِنَ الْوَحْيِ تَعْهَدُ
فَقَارًا سِوَى مَعْمُورَةِ اللَّحْدِ ضَافَهَا فَقِيدٌ يُبْكِيهِ بِلَاطٌ وَعَزَقْدُ
وَمَسْجِدُهُ فَالْمُوحِشَاتُ لِفَقْدِهِ خَلَاءٌ لَهُ فِيهِ مَقَامٌ وَمَقْعَدُ
وَبِالْجَمْرَةِ الْكُبْرَى لَهُ ثُمَّ أَوْحَشَتْ دِيَارٌ وَعَرَصَاتٌ وَرَبِيعٌ وَمَوْلِدُ
فَبَكَّى رَسُولَ اللَّهِ يَا عَيْنُ عَجْبَةٌ وَلَا أَعْرِفَنَّكَ الدَّهْرُ دَمْعَكَ يَجْمَدُ
وَمَا لَكَ لَا تَبْكِينَ ذَا النُّعْمَةِ الَّتِي عَلَى النَّاسِ مِنْهَا سَابِغٌ يَتَعَمَّدُ
فَجُودِي عَلَيْهِ بِالذُّمُوعِ وَأَعُولِي لِفَقْدِ الَّذِي لَا مِثْلَهُ الدَّهْرُ يُوجَدُ
وَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ وَلَا مِثْلَهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يُفَقَدُ
أَعْفَ وَأَوْفَى ذِمَّةً بَعْدَ ذِمَّةٍ وَأَقْرَبَ مِنْهُ نَائِلًا لَا يُنَكِّدُ
وَأَبْدَلَ مِنْهُ لِلطَّرِيفِ وَتَالِدٍ إِذَا ضَنَّ مَعْطَاءً بِمَا كَانَ يُنْدُدُ
وَأَكْرَمَ حَيًّا فِي الْبُيُوتِ إِذَا انْتَمَى وَأَكْرَمَ جَدًّا أَبْطَحِيًّا يُسَوِّدُ

ص: ١٠١

وَأَمْنَعُ ذُرُوتَ وَأَثْبَتَ فِي الْعُلَى دَعَائِمَ عِزِّ شَاهِقَاتٍ تُشَيِّدُ
وَأَثْبَتَ فِرْعَاءَ فِي الْفُرُوعِ وَمَنْبِتًا وَعُودًا غَدَاةَ الْمُزْنِ فَالْعُودُ أَعِيدُ
رَبَاهُ وَلِيدًا فَاسْتَتَمَ تَمَامَهُ عَلَى أَكْرَمِ الْخَيْرَاتِ رَبِّ مُمَجِّدُ
تَنَاهَتْ وَصَاءُ الْمُسْلِمِينَ بِكَفِّهِ فَلَا الْعِلْمَ مَحْبُوسٌ وَلَا الرَّأْيُ يُفْنَدُ
أَقُولُ وَلَا يُلْفَى لِقَوْلِي عَائِبٌ مِنَ النَّاسِ إِلَّا عَارِبُ الْعَقْلِ مُبْعَدُ
وَلَيْسَ هَوَائِي نَازِعًا عَنْ تَنَائِهِ لَعَلِّي بِهِ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ أَخْلُدُ
مَعَ الْمُصْطَفَى أَرْجُو بِذَاكَ جِوَارَهُ وَفِي نَيْلِ ذَاكَ الْيَوْمِ أَسْعَى وَأَجْهَدُ

مَا بَلَّ عَيْنِكَ لَاتَنَامُ كَأَنَّمَا كُحِلَتْ مَا قِيَهَا بِكُحْلِ الْأَرْمَدِ
جَزَعًا عَلَى الْمَهْدِيِّ أَصْبَحَ ثَاوِيًا يَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الْحَصَى لَا تَبْعُدِ
وَجْهِي يَقِيكَ التُّرْبَ لَهْفِي لَيْتَنِي عُيِّتُ قَبْلَكَ فِي بَقِيْعِ الْغَرْفِدِ
بَابِي وَأُمِّي مَنْ شَهِدْتُ وَفَاتَهُ فِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ النَّبِيُّ الْمُهْتَدِي

ص: ١٠٢

فَظَلَّتْ بَعْدَ وَفَاتِهِ مُتَبَلِّدًا مُتَلَدِّدًا يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوَلِّدِ
أَأَقِيمُ بَعْدَكَ بِالْمَدِينَةِ بَيْنَهُمْ يَا لَيْتَنِي صُبَّحْتُ سَمَّ الْأَسْوَدِ
أَوْ حَلَّ أَمْرُ اللَّهِ فِينَا عَاجِلًا فِي رَوْحِهِ مِنْ يَوْمِنَا أَوْ فِي غَدِ
فَتَقُومَ سَاعَتُنَا فَتَلْقَى طَيِّبًا مَحْضًا ضَرَائِبُهُ كَرِيمَ الْمُحْتَدِ
يَا بَكْرَ أَمَنَةَ الْمُبَارَكِ بِكُرْهَا وَلَدَتُهُ مُحْصَنَةً بِسَعْدِ الْأَسْعَدِ
نُورًا أَضَاءَ عَلَى الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا مَنْ يُهْدِ لِلنُّورِ الْمُبَارَكِ يَهْتَدِي
يَا رَبِّ فَاجْمَعْنَا مَعًا وَنَبِينَا فِي جَنَّةٍ تَشْبِي عُيُونَ الْحَسَدِ
فِي جَنَّةِ الْفُرُودِ فَانْكُتِبْهَا لَنَا يَا ذَا الْجَلَالِ وَذَا الْعُلَا وَالسُّودِ
وَاللَّهِ أَسْمَعُ مَا بَقِيَتْ بِهَالِكِ إِلَّا بِكَيْتِ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدِ
يَا وَيْحَ أَنْصَارِ النَّبِيِّ وَرَهْطِهِ بَعْدَ الْمُغَيْبِ فِي سَوَاءِ الْمَلْحَدِ
ضَاقَتْ بِالْأَنْصَارِ الْبِلَادُ فَأَصْبَحَتْ سُودًا وَجُوهُهُمْ كَلَوْنَ الْإِثْمِدِ

ص: ١٠٣

وَلَقَدْ وَلدَنَا وَفِينَا قَبْرُهُ وَفُضُولُ نِعْمَتِهِ بِنَا لَمْ يُجْحِدِ
وَاللَّهُ أَكْرَمَنَا بِهِ وَهَدَىٰ بِهِ أَنْصَارَهُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ مَشْهَدِ
صَلَّى الْإِلَهِ وَمَنْ يَحْفُ بِعَرْشِهِ وَالطَّيِّبُونَ عَلَى الْمُبَارَكِ أَحْمَدِ

آلَيْتُ مَا فِي جَمِيعِ النَّاسِ مُجْتَهِدًا مِّنِّي أَلَيْتُهُ بَرٌّ غَيْرِ إِفْنَادِ
تَاللَّهِ مَا حَمَلْتُ أُنْثَىٰ وَلَا وَضَعْتُ مِثْلَ الرَّسُولِ نَبِيِّ الْأُمَّةِ الْهَادِي
وَلَا بَرَا اللَّهَ خَلْقًا مِّنْ بَرِيَّتِهِ أَوْفَىٰ بِذِمَّتِهِ جَارٍ أَوْ بِمِيعَادِ
مَنْ الَّذِي كَانَ فِينَا يُسْتَنْصَأُ بِهِ مُبَارَكِ الْأَمْرِ ذَا عَدَلٍ وَإِرْشَادِ
مُصَدِّقًا لِلنَّبِيِّينَ الْأَلَىٰ سَلَفُوا وَأَبْدَلَ النَّاسِ لِلْمَعْرُوفِ لِلْجَادِي
يَا أَفْضَلَ النَّاسِ إِنِّي كُنْتُ فِي نَهْرٍ أَصْبَحْتُ مِنْهُ كَمِثْلِ الْمَفْرَدِ الصَّادِي
أَمْسَىٰ نِسَاؤُكَ عَطَّلَنَ الْبُيُوتَ فَمَا يَضُرُّ بَنَ فَوْقَ قَفَا سِتْرٍ بِأَوْتَادِ
مِثْلَ الرَّوَاهِبِ يَلْبَسُنَ الْمُسُوحَ وَقَدْ أَيْقَنَ بِالْبُؤْسِ بَعْدَ النِّعْمَةِ الْبَادِي

البيت العتيق ... خَواطِر وأشجان

البيت العتيق ... خَواطِر وأشجان

محمّد النَّقدي

تقديم: منذ عدة أشهر والحكومة السعودية تضرب طوقاً خشبياً حول الكعبة الشريفة، قِبلة المسلمين في العالم، للقيام ببعض التعميرات وإصلاح الشقوق التي أَلْمَتْ بالسقف وترميم الخسف الحاصل بأرض البيت الحرام. هذا الذي بين يديك، عزيزي القارئ، يضمُّ مُشاهدات أحد رجال الدين الذين تشرفوا بالدخول إلى عمق البيت العتيق في رحلة العمرة المفردة، نهاية شهر يور عام ١٣٧٥ شمسي (جمادى الأولى ١٤١٧ هـ / أيلول ١٩٩٦ م). الذين سَعدوا ونالوا شرف زيارة مكة المكرمة يعلمون جيداً أيّ شعور ينتاب من تكتحل عيناه برؤية ذلك المكان الطاهر وهو يطوى الأرض باتجاه المسجد الحرام. هناك تنقلب حاله بمجرد وقوع بصره على قِبلة المسلمين وملاذهم الوحيد، فتسيل دموعه جارية دون إرادة، وتخرج الآهات المصحوبة باللوعة من أعماق صدره خلال مناجاته ربّ الأرباب.

ص: ١٠٥

إنَّ عظمة الكعبة المشرفة وبهاءها، والأروقة البديعة المحيطة بالمسجد الحرام، ومقام إبراهيم وحجر إسماعيل، والميزاب الذهبي المُشرف من سطح البيت العتيق، ... كلُّ واحد من تلك المشاهد المقدسة والمعالم الطاهرة تنبئ بالجلال والعظمة، وتأسر فؤاد أيِّ ناظر إليها لا محالة، ومهيَّجة في نفس الملهوف عليها ذكريات تاريخية خالدة، لا يمحوها الزمن ولا تغيّرُها الأيام. لكن أكثر ما يلفت النظر في ذلك المكان المهيّب، هي حالة المناجاة التي تعترى الزائرين المجتمعين في تلك البقعة المقدسة الوافدين من كلِّ الأصقاع والأمصار، الحافين بالكعبة المشرفة كالفرّاش الذي يحيط بالسراج.

وما أروع نشيد «البيك» وهو ينطلق من حناجر ملايين المؤمنين المُلتئين دعوة إبراهيم خليل الله، وهم يرسمون أجمل لوحة وأبهى صورة، رغم اختلاف ألوانهم وتعدّد ألسنتهم وتفاوت قومياتهم، طائفين حول الكعبة الحبيبة في حركة هادئة وانسجام تام! والمسجد الحرام هو الوحيد من بين مساجد الدنيا الذي يحمل في ثناياه ذكرى طواف نحو من ألف نبيّ وصلاتهم فيه (١)، وهو المكان الذي تزول عنده الاعتبارات الظاهرية، حيث يقف المَلِك والفقير والسلطان والصّرعوك والأبيض والأسود والكبير والصغير جنباً إلى جنب صفّاً واحداً كالبنيان المرصوص، معبرين بدموعهم وآهاتهم عن أقصى حالات العجز والخضوع والعبودية. إنّه حقّاً لمشهد مؤسّر تصغر دونه المشاهد.

وليت شعري ما بال فنانينا المسلمين الملتزمين لا يحذون حذو باقي فنانى الشعوب الأخرى.. يقيمون النصب التذكارية الخالدة لِمَا خلفه الأنبياء والصالحون والشهداء والصّديقون، ويحيون طقوسهم وشعائرهم التي وردت في الكتب السماوية المقدسة، ويُفرغون ما بداخلهم من إبداع وآثار فنيّة.. يصوّرون بذلك هذا الطواف الرائع الذي لا يُضاهى والمُعبر عن جوهر التوحيد، والذي يروى قصة ماضٍ تليد يمتدّ آلاف السنين في عمق التاريخ، ويحكى عن ارتباطه بسائر الأديان

ص: ١٠٦

التوحيدية الأخرى بأصرة لانفصام لها.

إنّ لليالي المسجد الحرام، لو أطلعت عليه من الطابق الثاني أو الثالث، روعةً وجمالاً وخلوداً في الذاكرة لا توصف.

روى عن أحد الأئمة المعصومين عليهم السلام أنّ هناك مئة وعشرين باباً للرحمة حول الكعبة، جعلت ستون منها للطائفين

وأربعون للمصلين وعشرون للناظرين إليها (١).

نعم، إنّها هنا بيتاً يُناب الناظرُ إليه بعبادة سنين.

*** ما أسطره من خواطر هنا يرجع تأريخها إلى جمادى الأولى من عام ١٤١٧، أثناء رحلتي الأخيرة لمكة المكرمة بقصد العمرة.

إنّ الكعبة الشريفة، وإن كانت جغرافياً تقع في شبه جزيرة العرب، إلّا أنّها تقطن في الواقع قلوب الملهفين إليها والمتميّنين بها في بقعة

من بقاع المعمورة، ويتطلعون إلى اليوم الذي يتمكنون فيه من زيارتها ورؤيتها عن كثب، فيطوفون حولها، ويؤدون المناسك الخاصة

بها على أكمل وجه. ولقد مُنحتُ أنا العبد الفقير هذا الشرف الكبير مرةً أخرى بفضل الله وبركته صاحب العصر والزمان (عجل الله

تعالى فرجه الشريف)، إذ كنتُ قد سِعدتُ بزيارة الكعبة قبل هذا عدة مرات، وما كنتُ في خضمّ ذلك الجَمّ الغفير إلّا كقطرة من ماء

في بحر لجي متلاطم الأمواج من البشر، الذين وفدوا على الحرم الإلهي الطاهر الآمن ليؤدّوا واجب الولاء والخشوع. لكنني حُرمتُ في

رحلتي الأخيرة هذه، على غير توقع وانتظار، من إمتاع ناظرِي بجدران الكعبة، حيث ضُربَ حولها طوق من الألواح الخشبية الشبيهة

بالواح الفاير، طول الواحدة منها متران وعرضها متر واحد، وسُدّت كلّ المنافذ الواصلة إليها. وبلغ الطوق المذكور، الذي غطى جهات

البيت الأربع، من الارتفاع بحيث كان يتعدّر علينا رؤية الكعبة حتى من الطابق الثاني للمسجد الحرام. كان السور الخشبي العالی هذا،

والذي طُلّي باللون الأبيض، لكنّه أشبه

ص: ١٠٧

بسحابة سوداء، تُحيط بالبيت الذى وضع إبراهيم الخليل أساسه. زرعت الحسرة فى قلوب كل المشتاقين. كانت المسافة من السور المذكور إلى الكعبة الشريفة (من جهة مقام إبراهيم) نصف مطاف كامل، وغطى السور كذلك حجر اسماعيل بصورة تامه بل وجاوزه الى بُعد ثلاثة أمتار. كان الزحام أشد عند باب الكعبة والركن اليماني فى الجهة المقابلة، وذلك لوجود رافعه عملاقة نُصبت هناك أُحيطت بسور بلغ ارتفاعه حوالى (١٥) متراً، وقد وُضعت فى الفناء الذى يلي الرافعه مواد إنشائية مختلفة.

ولا يبعد السور الخشبي عن الركن اليماني والكعبة الشريفة إلا قرابة مترين فقط.

وهكذا لم تبين من البيت العتيق إلا زاوية صغيرة عند ركن الحجر الأسود لا تكاد تكفى لتقبيله أو لمسسه.

ولم أكن الوحيد من بين الزائرين لبيت الله الذى بهت ودهش بمشاهدته ذلك المنظر الغريب، بل لقد بهت كذلك كل الواردين على المسجد الحرام، وأصابتهم الحيرة والدهشة عند دخولهم إلى ساحته ورؤيتهم ذلك السور الجاثم على أنفاس الكعبة الشريفة كالضباب الكثيف الغليظ. فخيم عليهم، وأنا منهم، حزن كبير وألم شديد، وظل الحزن والألم مصاحبين لى حتى اليوم الأخير من رحلتى تلك، فكنت كمن يبحث عبثاً عن ضالته. كنت أتمنى أن يسعفنى الحظ فأبكى ذنوبى عند حائط الكعبة ثم أمسح الدموع بجدارها. رب قائل يقول: إن هذا الجدار إنما هو حجارة ولبن، وهذا صحيح، لكن ما تحمله هذه الحجارة وذلك اللبن من ذكريات عزيزة ومعانٍ جليئة تتمثل فى الإحساس بوجود بصمات معظم الأنبياء والأولياء يفوق الحب والعشق، ويجعله جديراً بأن يقبل ويُشَم، ولم يكن ذلك فى تصوورى، بل وفى تصوّر الجميع، إلا جزءاً لا يتجزأ من العبادة والتقرب إلى البارئ عزوجل.

كنت وجميع زائرى بيت الله الحرام منهمكين طيلة أسبوع بالطواف حول البيت المعمور وإقامة الصلاة وتلاوة القرآن، وذلك بالطبع بعد الانتهاء من أداء

ص: ١٠٨

مناسك العمرة ... لكنّ حسرة لقاء بيت المعشوق ظلت راسخة في عُقر فؤادي ومُقيمه في أعماقي.

وأملًا مني في أن أحظى بلمس البيت الحرام جلستُ (يوم الثلاثاء ٣/٧/١٣٧٥ / ٢٤/٩/١٩٩٦ / ١٠/ جمادى الاولى / ١٤١٧) بالقرب منه بعد انتهائي من ختم القرآن وأداء صلاة الظهر، منتظرًا مترقبًا فرصة السماح لي بذلك.

كانت أشعة الشمس مُحرقه، يحول لظاها وحزها دون المكوث هناك طويلًا. ومع ذلك فقد انظمت إليّ مجموعة أخرى من المشتاقين للكعبة آملين أن يفتح لنا الطريق بين لحظة وأخرى، لكنّ التعامل الخشن لأفراد الشرطة وقوات الأمن الذين كانوا يأمرّون الناس جميعًا بالإبتعاد عن البيت زاد من درجة يأسنا المشحونة داخلنا، فرأى بعضهم العدول عن الأمر، وإعادة الكربة وقت صلاة العصر من جديد. وبالرغم ممّا شاهدته من تعنت وصلابة لا مبرر لهما من قبل أفراد الشرطة وقوات الأمن، لكنّ نفسي لم تطاوعني على الرجوع والعدول عن تصميمي وترك المكان، فكنّ أتقلّ هنا وهناك بحجج مختلفة، وتمّ لي الطواف حول الكعبة مرات عدة منتظرًا اقتناص الفرصة المناسبة.

وفي هذه الأثناء، لفت أعرابي لبس لباساً عادياً انتباهي وهو يُدخل مجموعة من الزوار، الواحد تلو الآخر، إلى داخل «المنطقة الممنوعة!» موصياً إياهم بعدم التجمهر في مكان واحد. وما إن هممت بالانضمام إلى تلك الجماعة حتى ازداد الزحام واشتدّ التدافع بيننا، لكنني، مع ذلك، وُفقتُ بالانضمام إليهم على أيّة حال، حتى بلغ الأمر حدًّا فقدت فيه الشرطة سيطرتها على الجموع الهائجة، فأغلقوا الباب الرئيسي وشرعوا يطردون كلّ من صادفهم عندها بقسوة وفضاضة لا نظير لهما ... وهكذا خانني الحظّ ثانية وحُرمتُ من الدخول إلى الكعبة الشريفة. فقلتُ لِنفسي: «يبدو أن صحيفه أعمالى سوداء إلى الحدّ الذي لم أعطَ فرصة الدخول إلى بيت حبيبي ...»، فأجابتنني على الفور: «تُكثِرُ الحَزَّ وتُخْطِئُ المَفْصِلَ!».

ص: ١٠٩

خرجت بعد ذلك، أجزّ ورائي أذيال الخيبة والخسران، والندم والحرمان، وبدأتُ باغتنام الفرصة فقمّت بالطواف حول البيت منهمكاً في الدعاء والمناجاة مع ربّ العزة.

وبعد مرور قليل من الوقت، صادفني بعض العمال الباكستانيين الذين كانوا يرتدون زياً خاصاً ويحملون بطاقات دخول خاصية بهم، فقلتُ لأحدهم: «هل لي بالدخول معكم إلى حيث تقصدون؟!» فأجاب: «عليك باستحصال الإذن أولاً من الشرطة، فهذا ليس بمقدورنا!». فعاودني اليأس من جديد وكان يشدّني إلى ترك المكان والرحيل، لكنّ ذلك لم يكن ما أريد ولا ما عانيتُ من أجله. فعاودتُ الطواف ثانية حتى عدتُ إلى سابق مكاني، وهناك لمحتُ أحد المواطنين العرب ممّن يلبسون العقال والكوفية مصطحباً معه شخصين أو ثلاثه، قاصداً إدخالهم إلى داخل الكعبة الشريفة، وبعد اصطدامه بالجموع المزدحمة هناك، فرّقهم ودخل إلى البقعة الممنوعة بعصبيه وغضب كبيرين. فتبعتهم دون وعى أو شعور مني بالخطر الذي قد يلّم بي، بل وسبقتهم بالدخول، وسرتُ معهم جنباً إلى جنب بصمت وهدوء مصحوبين بالحذر الشديد حتى وصلنا إلى إحدى الأبواب. وحال وصولنا إليها أوصدها السدنة بوجهنا بقوة، ثم فُتحت منها نافذة صغيرة (١٠ * ٢٠ سم) لتُغلق هذه أيضاً بعد قليل. ولما رأى العربيّ ذلك غضب وطرق الباب بشدة منادياً أحد الأشخاص باسمه، ففتح الشخص المُنادى الباب، ولما وقعت عيناه على العربيّ رحّب به واستقبله بحفاوة وتكريم، فدخل الجميع ودخلتُ معهم كذلك. ثم حَظونا نحو الباب الرئيسية التي تبعد عن الساحة الأولى حوالي خمسة أمتار أو ستة. ولا أكذبكم الخبر، فقد كان الخوف متمكناً مني ويتملكني القلق ممّا سيحدث. على كلّ، وصلنا الباب الثانية ودخلنا. هناك، كان أنين الأيام وحُزن السنين يحكيان قصة المكان من خلال حديث مُسهب ذي شجون، وشُجّل كلّ مجنون ممّا بليلاه، فانقلب حالنا، وآل المآل إلى حيث أراد شديد المحال ...

ص: ١١٠

لقد وقع بصرنا أول ما وقع على سقالات حديدية نُصبت على طول ارتفاع البيت الكريم غطته من جهاته الأربع، وكنا نسير على ممز ثلاثي الطبقات من الخشب يمرّ بحجر إسماعيل ويتحول منه إلى سلم خشبي أيضاً حتى وصوله إلى الركن الذي يقع عند مقام إبراهيم، ثم ينتهي بنا إلى داخل البيت الشريف. فعبرنا الألواح ووصلنا إلى باب البيت العتيق الذي أزيل عنه مصراعه، ووضع بدل ذلك داخل إطار حديدي مُحكم. دخلنا هذا الباب إلى داخل البيت، فوجدنا حوالي ١٠ أو ١٥ شخصاً كلهم كانوا مشغولين بإقامة الصلوات وكان معظمهم من عمال البناء، منهم من نزل إلى السجود وآخرون بين قيام وقعود. فأسرعتُ إلى الصلاة موجهاً وجهي نحو إحدى أركان البيت الحرام. لقد كان حال الموجودين منقلباً انقلاباً شديداً، وكان صوت بكائهم الممزوج بالرهبة والخوف والخشوع يتردد صداه في زوايا البيت وحنياه. كانت بصمات الدهر الماضي واضحة المعالم في كل نقطة وبقعة من الجدران الداخلية، ولحسن الحظ لم تمتد إليها يد التعمير بعد. وعلى عكس الأحجار التي تُرى من الخارج، كانت أحجار الجدار غير المصقولة من الداخل تتراوح بين حجر كبير وآخر صغير ... كأنها طليت بالإسمنت وحسب ...! كان واضحاً أنّ أرضية البيت التي غطاها الإسمنت حتى حافة باب البيت، قد خضعت لبعض التعميرات في السابق، باستثناء بعض السنتيمترات التي خُصصت لقطع وصقل أحجار المرمر. لكنّ الذي لفت انتباهي هنا هو أنّ الإسمنت الموجود لم يكن من نوع الإسمنت الذي نعده، إذ كان يبدو ممزوجاً ببعض المواد الغريبة الأخرى ...! أما أرضية البيت فقد سُويت بدقّة متناهية، وكانت تُلاحظ وجود طبقة من العازل (عازل الرطوبة) بسُمك ١٠ سنتيمترات واضحة للعيان من خلال حافات الإسمنت المصبوب على الأطراف، والتي ستزول لا محالة سريعاً بعد إكساء الأرضية بالمرمر. وبدا لي كذلك أنّ السقف قد أزيل أيضاً واستحدث مكانه سقف جديد

ص: ١١١

يتكوّن من طبقتين يمكن تمييزهما عن بعضهما بوضوح، مفتوح في إحدى زواياه عند باب الكعبة المنتهى بحجر إسماعيل بمقدار ٥/١ متر مربع لأجل القيام بأعمال البناء ومرور الرافعة من خلاله كذلك. وكان السقف العلويّ مغطّى بأخشاب ضخمة بتيّة اللون، وأما السفليّ فمن الخشب الرقيق البنيّ اللون والمزّين بالخطوط. ثم رأيت عمودين إسطوانيين جميلين يتوسّطان ساحه البيت حيث تفصل بينهما مسافة ٤ أمتار، وقد استقرّ الأول عند جهة حجر إسماعيل والآخر على بعد مترين من الجدار (من جهة الركن اليمانيّ إلى ركن الحجر الأسود)، قيل: إنّهما إنّما وُضِعَا ليمسكا السقف، لكنني لم أستطع معرفة المواد التي يتكون منهما هذان العمودان المطليان بلون بنيّ.

وكما أشرت، فقد أزيل عن باب البيت العتيق مصراعاه ووضع داخل إطار حديديّ جميل مُحكم، وربما كان ذلك موجوداً من قبل، ورفعت كذلك روابط الأحجار عنده على أمل شدّها بأربطة جديدة أخرى بعد وضع الباب ثانية في المستقبل. وكانت توجد في أعلى الباب لوحة خشبية كبيرة بتيّة اللون يزيد عرضها على عرض الباب، ويبلغ سمكها حوالي ٣٠ سنتيمتراً تحتوى على بعض الثقوب. أمّا جدران الكعبة من الداخل فقد غُطيت من الأرضية وحتى ارتفاع (٥/٢ - ٣ أمتار) بطبقة من المعدن الذي تُبِت على الجدار بالبراغي والصامولات وبفاصلة (١٠) سنتيمترات وهي مكان للأغطية التي ستوضع فيما بعد والتي قد تكون من المرمر أو ما شابه ذلك. وإلى الأعلى من الطبقة المعدنية يمكن مشاهدة الجدران الأصلية على حالها. وعند الركن اليمانيّ قبالة الباب كان الوضع شبيهاً بوضع الباب السابقة للكعبة التي كانت مغطاة بالمرمر. ويتوسط البيت صندوق من الخشب المُزخرف والمُخرّم يبلغ طوله ٤ أمتار وارتفاعه متراً واحداً وعرضه حوالي ٦٠ إلى ٧٠ سنتيمتراً، موضوع عليه قطعة من المرمر الأخضر المطعم بالعروق السود الشبيهة بالفيروزج الرائع الجميل.

ص: ١١٢

وهكذا، فقد صليتُ ركعتين أخيرتين باتجاه مقام ابراهيم في الوقت المتبقى لى .
 وكان ألطف ما خطر ببالي وأجمل ما سكن خيالي أثناء القنوت هو الدعاء بطلب السلامة و العافية لمولانا صاحب الزمان عليه السلام.
 ثم قام السدنة باستعجالنا للخروج فقمْتُ بلمس جدار الكعبة مودعاً إياه و طالباً منه عدم جعل ذلك آخر العهد منى لزيارته ...!
 وعند خروجي من البيت الشريف لاحظتُ غياب أحجار الشاذروان بأكملها من حوالى البيت، وصُبَّ الإسمنت تحت المرمر بشكل مشابه لما هو موجود فى الداخل وغطى بأكياس الجوت، وكان العمال يرشون الماء عليه. فلم يُعد هناك أى وجود للشاذروان أو السلم الذى كان موجوداً عند جهة حجر اسماعيل وتحت الميزاب الذهبى، وكانت أرضيته منخفضة بعض الشيء.
 واغتنمتُ هذه الفرصة كذلك و صليتُ ركعتين تحت الميزاب الذهبى، وهنا شعر أحد رجال الشرطة بوجودى، لكنه تركنى وشأنى بسبب انشغالى بالصلاة واتجه الى داخل البيت الحرام. وبعد فراغى من الصلاة عند حجر اسماعيل شرعتُ بتقييل جدران البيت واستشمام عبيرها الفردوسى الطاهر وكان معى أحد الباكستانيين (من العمال المشتغلين بالتعميرات الجارية على الكعبة). كان رجلاً لطيفاً ودمت الأخلاق، فقد كان يمسح رأسى ووجهى وصدري بيده، وقد إغرورقت عيناه بالدموع وهو يكرّر من قول: «أنا من عمال الكعبة ...!».

وخلال صيحات أفراد الشرطة، قمتُ باختلاس نظرة أخيرة من بيت الله العزيز، توجّهت بعدها الى المسجد الحرام.
 اللهم أرزقنا فى كل عام زيارة بيتك الحرام، بحق محمد وآله عليهم السلام.
 الهوامش:

الحج عبر الحضارات والأمة (٣) القدس - الكعبة

ص: ١١٣

الحجّ عبر الحضارات والأمم (٣) القدس - الكعبة

ماجدة المؤمن

القدس، هل كانت مركزاً لحج الأنبياء؟

بيت المقدس أو القدس، مدينة تاريخية قديمة عرفت في التاريخ مدينة مقدسة، اهتمت بها الأديان الرئيسية الثلاثة: الديانة اليهودية

والديانة المسيحية والدين الإسلامي الحنيف...

ولفرط قداستها اعتبرها اليهود رمزاً لبيت الله تعالى، واعتبرها النصارى رمزاً لروح القدس، واعتبرها المسلمون أولى القبليتين ومحل

إسراء الرسول صلى الله عليه وآله...

وقد حفلت هذه المدينة بالأماكن المقدسة كقبة الصخرة والمسجد الأقصى و هيكل سليمان وحائط المبكى و... مما تقدسه الأديان

الثلاثة.

ومن هنا جاء اهتمام التاريخ والأديان بها والصراع عليها، وكلّ يستطيع أن يؤدي شعائره وطقوسه فيها...

وقد عاش فيها عدد من الأنبياء والمرسلين، فهي في حقيقتها مدينة الأنبياء والأولياء، وليس هناك مدينة في تاريخ العالم تمتعت

بقديسية مستديمة منذ أن أسسها

ص: ١١٤

(اليوسيون الكنعانيون) (١) قبل نحو خمسة آلاف عام حتى يومنا هذا، مثل مدينة أورشليم، (بيت المقدس الحالية): فهي الأرض المباركة «دار السلام» كما سماها الأقدمون، وقد حمل ملوكها القدماء لواء عقيدة التوحيد للإله العلى لأول مرة فى التاريخ البشرى، على ما يرى كثير من المؤرخين (٢).

وقد خصها الله تعالى بالعديد من الأنبياء حتى قيل: إن بناءها تم على أيديهم وسكنوها وعمروها «وما فيها موضع شبر إلا وقد صلى فيه نبى أو قام فيه ملك» (٣)، كما خصها الله تعالى بإسراء خاتم الأنبياء، ثم إنها قبله اليهود والنصارى وصلى إليها المسلمون مع رسول الله محمد صلى الله عليه وآله فى بداية الدعوة الإسلامية فترة قصيرة حتى من الله تعالى على رسوله المصطفى بقبلة يرضاها...: فنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين اتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون (٤).

وبالرغم من هذه القدسية لبيت المقدس لكننا لم نجد فى القرآن الكريم ما يشير الى أن الله تعالى، ينسبه إلى نفسه فى الكيفية، التى نتلمسها فى الكعبة التى تختص بها دون غيرها، كما فى قوله تعالى: بيتى (٥).

و بيتك. كما ورد فى قوله ابراهيم عليه السلام مناجياً ربه عند بيتك المحرم (٦).

. ولو رجعنا إلى التوراة التى دونها اليهود أنفسهم فى الأسر، بعد السبى البابلى وبعد مضى ثمانمئة عام من نزول الوصايا العشر على موسى عليه السلام وتعاليم الشريعة الموسوية، ثم حشر تاريخ بنى اسرائيل فيها والتشويه والتحوير الذى جاء لخدمة مقاصد خاصة وأهداف معينة، حيث اتخذت من شخصيه النبى موسى عليه السلام قوة دينية تشبث بها ضد أعدائها، كما اتخذت من إرجاع أصلها إلى ابراهيم الخليل عليه السلام وحفيده «يعقوب عليه السلام» النسب الأصيل الذى يجعلها أهلاً لتكون «شعب الله المختار»، ومن بيت المقدس عقيدة (الوطن الموعود) الذى يفيض عليها قدسية وروحانية، وعزت كل ذلك إلى الإله «يهوه» والى ابراهيم الخليل ويعقوب وكلهم بريئون منها، ولو رجعنا إلى الانجيل فحاله حال

١-١ اليوسيون: أقدم سكان أورشليم يرجع الخبراء تاريخ وجودهم فى المدينة إلى ما قبل خمسة آلاف سنة حين نزحوا من جزيرة العرب. وكونوا فى موطنهم الجديد حضارة ذات حكومة وصناعة وتجارة وديانة، المصدر: العرب واليهود فى التاريخ: ٣٩١.

٢-٢ العرب واليهود فى التاريخ، د. أحمد سوسة: ٣٨٦.

٣-٣ معجم البلدان، ياقوت الحموى ١: ١١٢.

٤-٤ البقرة: ١٤٤.

٥-٥ البقرة: ١٢٥. الحج: ٢٦.

٦-٦ ابراهيم: ٣٧.

ص: ١١٥

التوراة، ومع كل ما شوهدت وكتبت ودست لكننا لا نلمس أثراً ولا نصاً يقول: إن الله تعالى نسبه إلى نفسه أو أمر الناس أن يحجوا إليه بينما وجدنا ابراهيم الخليل عليه السلام عندما أقام البيت الحرام (الكعبة) جاءه الخطاب الإلهي وأذن في الناس بالحج... وجاء تأكيد القرآن الكريم أولوية الكعبة فقال: إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة.

هجرة النبي ابراهيم عليه السلام إلى القدس

لقد توصل علماء الآثار في أحدث بحوثهم إلى أن ابراهيم الخليل عليه السلام ظهر في القرن التاسع عشر قبل الميلاد أي قبل حوالي أربعة آلاف عام في بلاد الرافدين، وعاش في زمن نمروذ، الملك الذي دفعته أحلامه المزعجة إلى مراقبة الحوامل وقتل الذكور من المواليد.

وزار عملاؤه والده ابراهيم عليه السلام ليكشفوا ما في بطنها قبل أن يأتيها المخاض، وجسوا جانبها الأيمن، فاختموا الجنب الأيسر، وجسوا الأيسر، فاختموا في الجانب الأيمن، فانصرفوا دون أن يظفروا بما ستلد، الأمر الذي اضطر أم ابراهيم أن تلجأ إلى كهف بالقرب من «كوثا» (١)، وهناك رأى ابراهيم الخليل نور الحياة للمرة الأولى (٢).

ولما بلغ ابراهيم رشده، كما ورد في القرآن الكريم، من محاورته لأبيه وقومه من عبدة الأوثان، قال تعالى: ولقد آتينا ابراهيم رُشدَه من قبل وكُنّا به عالمين* إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون* قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين* قال لقد كنتم أنتم وآبائكم في ضلال مبين* قالوا أجبنا بالحق أم أنت من اللاعبين* قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين (٣)

ثم صمم ابراهيم عليه السلام على تحطيم أصنامهم وأقسم بالله على ذلك وتالله لأكيدين أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين* فجعلهم جُذاذاً إلكبيراً لهم لعلهم يرجعون*

١- ١ كوثة: مدينة في العراق بالقرب من مدينة بابل الحالية، وكانت مركزاً مهماً للساميين.

٢- ٢ نقله الطبري، الثعلبي، الكسائي، ابن ميمون، الزمخشري، البيضاوي، ابن الأثير مع اختلاف بسيط في التعابير والألفاظ.

٣- ٣ الأنبياء: ٥١-٥٦.

ص: ١١٦

قالوا من فعل هذا بالهتنا إنه لمن الظالمين* قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم (١)

وكانت هذه القضية سبباً لمحاكمته العلنية أمام الأَشهاد، وانتصر ابراهيم عليهم من خلال محاججته المنطقية والموضوعية: قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون* قالوا أنت فعلت هذا بالهتنا يا ابراهيم* قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون* فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون* ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون (٢)

وبهذا فشل القوم مع ابراهيم عليه السلام، وزادتهم العزة بالإنتم عناداً وعداءً لإبراهيم عليه السلام، وأصروا على التخلص منه: قالوا حرّقه وانصروا آلهمكم إن كنتم فاعلين* قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم* وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخرسين* ونجيناه ولو طأ إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين (٣)

من هنا اتخذ ابراهيم عليه السلام خليل الرحمن، رأياً محدداً في تقرير مصيره، فحين نجاه الله تعالى من النار التي أضرمها القوم للقضاء عليه، صمم الرحيل والهجرة عن الوطن إلى الأرض المباركة (المقدسة) التي باركها الله تعالى للعالمين كما ذكرتھا الآية الكريمة. أجل إنها كانت مقدسة، وكان فيها العابد الكاهن الموحد لله تعالى المؤسس لبيت المقدس (ملكى صادق) الذى بارك لإبراهيم عليه السلام كما ذكر المؤرخون والباحثون، وذكروا أيضاً أن (ملكى صادق) من سلالة كنعان، وكان محافظاً على سینه الله القديمة بين شعب وثنى، وقد عُرف بالتقوى والزهد، وقيل: إنه كان يسكن هو وقومه فى الكهوف، وكان أول من اختط (أورشليم) القدس وبنائها وكان محباً للسلام حتى أطلق عليه «ملك السلام» ومن هنا جاء اسم المدينة «سالم» أى مدينة السلام، ثم «شالم» و «شليم» فهى اليوم «أورشليم» (٤).

١- ١ الأنبياء: ٥٧- ٦٠.

٢- ٢ الأنبياء: ٦٢- ٦٥.

٣- ٣ الأنبياء: ٦٨- ٧١.

٤- ٤ انظر العرب واليهود فى التاريخ: ٣٨٥- ٣٨٧.

ص: ١١٧

هاجر ابراهيم خليل الله مع زوجته ساره ولوط وعدة من أتباعه تحفهم رعاية الله ورحمته إلى مدينة (حاران) (حاران الحالية) ومنها إلى أرض كنعان «شليم» فلسطين الحالية، ليستقر هو وأتباعه بالقرب من الرجل الصالح «ملكى صادق».

أم إبراهيم تخفى ولدها فى كهف بالقرب من «كوثا»

ص: ١١٨

وبعد فترة، أصاب المدينة قحط وغلاء، فانحدر ابراهيم عليه السلام وزوجه إلى مصر، ثم غادرها عائداً إلى «شليم» وأقام في حبرون مدينة الخليل الحالية، ثم رزقه الله ذكراً من الجارية المصرية هاجر أسماه اسماعيل الذي فداه الله تعالى بالذبح العظيم كما ذكرنا سابقاً بعد بناء الكعبة الشريفة.

من خلال ما وصل إلينا من أخبار المؤرخين ومن بحوث المنقبين في الآثار ومن القرآن الكريم وغيرها، لم يذكر أحدهم أن ابراهيم عليه السلام هاجر إلى القدس ليحج فيها، أو رجع من مصر ليؤدي مراسم الحج في القدس، أو أنه اتخذها مكاناً للحج أو دعا للحج فيها، بل هي دار هجرته وغربته كما تذكر التوراة: «تغرب ابراهيم في أرض الفلسطينيين» (١). وكذلك «وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه في أرض كنعان» (٢).

وهذا ما قد عرفنا أن وطن ابراهيم الأول هو بلد وادي الرافدين أي في العراق الحالي، بل انه عراقي المولد كنعاني الأصل يرجع إلى الجزيرة العربية التي انحدر منها آباؤه وأجداده إلى بابل. والجزيرة العربية أصبحت بعد ذلك موطن ذريته من اسماعيل بعد أن أسكنه هو وأمه فيها...

القدس في عهد يوسف عليه السلام

ورزق الله ابراهيم عليه السلام في شيخوخته ولداً آخر سمّاه (اسحاق) أسكنه وأمه العجوز سارة في مدينة حبرون (الخليل الحالية)، وآل أمر اسحاق عليه السلام أن يكون نبياً ويرزق بيعقوب نبياً، وشاء الله تعالى ان يرزق يعقوب أحد عشر ولداً ذكراً من زوجاته الأربع من بينهم كان يوسف الأثير عند أبيه يعقوب يخصّه بقسط عظيم من محبته ويميزه على اخوانه، وكان يوسف عليه السلام حسن السيرة، جميل الصورة، كثير الأحلام الصادقة، مما جعل يعقوب عليه السلام يهتم به ويؤثره عليهم فسبب ذلك حقد اخوته عليه، ثم كان سبباً في محنته وغربته عن الوالد حوالي ثلاثين عاماً لكنها - المحنة والغربة - كانت خيراً وبركةً عليه وعلى الأمم القريبة من مصر وعلى

١-١ العهد القديم، التوراة، سفر التكوين.

٢-٢ المصدر نفسه.

ص: ١١٩

مصر نفسها وعلى اورشليم موطن غربتهم...

وذكرت قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم بشكل مفصل وجميل كما ذكرتها التوراة مع فارق بسيط، وفي هذا الحديث لا يهمننا من قصة يوسف وأحداثها سوى أنه عندما خرج من بيت المقدس مباعاً إلى «فاطيفور» (١) الجندى الفرعون، ثم دخل مصر. هل رجع إلى القدس حاجاً لها؟... هذا ما ستبينه المفاجآت في حياة يوسف عليه السلام!

تغرب يوسف عليه السلام عن الأهل والأحبة والاخوان عدداً من السنين، وبعد معاناة طويلة صار وزيراً على مصر كلها، فبعث وراء أبويه وعشيرته عن طريق اخوته الذين أرسلهم أبوهم (يعقوب عليه السلام) نتيجة القحط والفق والجذب الذي أصاب مدينة «أورشليم» وما حولها من البلدان الا مصر بشهامه يوسف عليه السلام وعقله الناضج، حيث ادخر المواد الغذائية في المخازن المصريه الفرعونية في أيام الوفرة لأيام القحط (٢)...

واستقر آل يعقوب «بنو اسرائيل» (٣) في مصر الفرعونية، حتى وفاة يعقوب عليه السلام حيث جهزه يوسف عليه السلام مع وفد من أهل بيته ورجاله في موكب عز وجلال ودُفن في منطقته «بئر الحى الرائي» (٤) بالقرب من قبر أبيه اسحاق وجده ابراهيم عليه السلام، في مدينة الخليل الحالية.

وبقى بنو اسرائيل في مصر وتوفى يوسف عليه السلام، ولم يذكر التاريخ لنا أو الآثار أو التوراة أو أى كتاب سماوى أن يوسف عليه السلام خلال مدة إقامته في مصر أنه حج بيت المقدس أو دعا القوم للحج إليه، بل كل ما وصلنا أن بيت المقدس وما حولها في عهد يوسف عليه السلام أصابها جذب وقحط وقله في الأمطار حتى تركها الأغلبية من سكنها طلباً للماء والغذاء.

إذن دخول بنى اسرائيل - بنى يعقوب - مصر وكان عام (١٦٥٦) ق. م عن طريق يوسف عليه السلام في عهد الملك (أبو فيس) ملك الهكسوس في الأسرة السادسة

١-١ نقلت المصادر التاريخية وكذلك التوراة أن الذى اشترى يوسف عليه السلام من اخوته كان هذا الجندى، راجع التوراة، العهد القديم، سفر التكوين.

٢-٢ راجع القرآن الكريم الآيات الشريفة من سورة يوسف، والتوراة، العهد القديم، سفر التكوين.

٣-٣ يعقوب: هو اسرائيل وتعنى بالعربية عبدالله وسمى ابناءؤه باسمه بنو اسرائيل.

٤-٤ راجع، التوراة، العهد القديم، سفر التكوين.

ص: ١٢٠

عشرة، وكان عددهم كما ورد في التوراة سبعين شخصاً بقيادة يعقوب عليه السلام (١)...

واستقرت هذه الأسرة حوالى (٤٠٠) عام حتى ظهر موسى عليه السلام بينهم...

هذا ما كان للقدس منذ زمن اسحاق عليه السلام حتى موسى عليه السلام فلم يحج أحدهم إليها رغم قدسيتها ومقامها عند الجميع، والقدسية شيء والأمر الإلهي شيء آخر.

موسى الكليم عليه السلام والقدس

وقصة موسى عليه السلام، قصة العظمت والعبر والدروس، ذكرها القرآن الكريم بكامل تفاصيلها لأهميتها، ولبيان حماقة قومه الذين كانوا مستضعفين ومضطهدين، فأنجاهم موسى عليه السلام ليسير بهم إلى الأرض المقدسة، فيسكنهم فيها، لكنهم لجوا وكفروا فباءوا بغضبٍ من الله إلى يوم يُبعثون.

وذكرت التوراة قصته بما يشابه ما قصه القرآن الكريم في ذكر عنادهم ولجاجتهم، إلّا أن التوراة حوّرت في نهاية مطاف بنى اسرائيل مع موسى عليه السلام وأخبار الأجداد والسلف منهم في شرعيته استحلال القدس ودخولها وقتل أهلها وسلبهم وحرق ما حلّى لهم من ممتلكات سكان أهلها. فقد ذكروا أنّ ابراهيم الخليل حين دخل مدينة «ملكي صادق» باركه الرب وقطع معه ميثاقاً هذا نصّه:

«لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير إلى نهر الفرات» (٢).

وفي موضع آخر من التوراة نجد النص التالي: «وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك. كلّ أرض كنعان لك ملكاً أبدياً» (٣).

ولو رجعنا إلى كليم الله موسى عليه السلام واستقرنا تاريخه منذ الولادة حتى الوفاء والرحيل إلى الملكوت الأعلى، لنفهم ما هي علاقته عليه السلام بالأرض المقدسة وبيت المقدس، وهل كان يزورها ويحج إليها؟... هذا ما ستمليه علينا النصوص الواردة فيه. وموسى عليه السلام: هو ابن عمران بن قاهان بن لاوى بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم عليه السلام، وُلد في مصر، وتربى في بيت «رمسيس الثانى» (٤) الملك الفرعونى

١- ١ فرعون موسى، د. سيد كريم، الهلال، العدد ٥: ٧٥.

٢- ٢ العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح، الفقرة.

٣- ٣ المصدر نفسه، الاصحاح، الفقرة.

٤- ٤ وهذا هو فرعون موسى! نجيب فرج، اكتوبر، مجلة عام ١٩٧٦: ٢٦، وفرعون موسى، د. سيد كريم، العدد ٥: ٧٣ وغيرها.

ص: ١٢١

وعدو بني اسرائيل، الذي كان يتوقع أن تلد بنو اسرائيل ذكراً يقضى على عرشه وسلطانه (١).
كبر موسى عليه السلام في البيت الفرعوني، وبلغ أشده، فأنعم الله تعالى عليه بالعلم والحكمة بالإضافة إلى ما تعلمه من علوم في بيت مريبه، ولما بلغ أشده واستوى آتيناها حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين (٢).

لقد أعدَّ الله تعالى موسى عليه السلام لرسالته ودعوته بعد محن كثيرة وغربة وهجرة وابتلاءات، اصطفاه نبياً ورسولاً، وأمره بالدعوة إلى الله، فسأل موسى عليه السلام من الله أن يشرك أخاه هارون معه في هذه المهمة، واجاب الله سؤاله، وأمره أن يذهب هو وأخوه إلى فرعون مؤيدين بالآيات والمعجزات، وأمرهما أن يقصداه بالذات لأنه طغى وفسد في الأرض (٣)، وبعد جدال ومحاججات، أيقن فرعون انه لم يقهر موسى وأخاه، بل هم قهروه وانتصروا عليه، فضاق فرعون ذرعاً بموسى، فأتمر على قتله والخلاص من دعوته، ومن قوة بيانه التي قد تؤثر في القوم.

فجاء الأمر الإلهي لموسى عليه السلام بالخروج من مصر مع بني اسرائيل المعذبين فيها، فانطلق بهم سراً متوجهاً إلى الأرض المقدسة...
خاطب موسى عليه السلام قومه في صحراء سيناء، مذكراً إياهم نعم الله تعالى عليهم، وخروجهم من رق العبودية، وهدايتهم في بعثه نبياً فيهم و...

رغم استمرار موسى عليه السلام في إصلاحهم وهدايتهم، لكنهم عارضوا وعاندوا وقسوا، وغضب الله عليهم مراراً ثم تابوا ثم أنعم عليهم ثم عصوا ولجوا ثم تابوا ثم عصوا. وكان سلوكهم مع نبي الله موسى الكليم هكذا، حتى اشرفوا على حدود الأرض المقدسة، طلب موسى عليه السلام منهم الدخول فيها، بعد أن أرسل رواداً للاستطلاع على الأوضاع هناك، (وهذا دليل على أن موسى عليه السلام لم يدخلها قبل هذا الوقت ولم يعرف عنها شيئاً، وأنه سيدخلها لأول مرة في حياته)، فلما رجع الرواد أخبروه أن قومها أقوياء طوال الهامات، وأن مدنها حصينة، فارتاع بنو اسرائيل ولم

١-١ كان الفرعون قد أخبرته السحرة والكهنة ان ذكراً من بني اسرائيل يقضى على عرشه فجعل يقتل الذكور من مواليدهم، لكن موسى عليه السلام نجى، بايحاء الله تعالى لأم موسى فقال: «إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى* أن اقدفيه في التابوت فاقدفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدوؤ لي وعدوؤ له» سورة طه ٢٨-٢٩.

٢-٢ القصص: ١٤.

٣-٣ القرآن الكريم، الآيات ٤٢-٤٧ من سورة طه و ١٨-٢٢ من سورة الشعراء.

ص: ١٢٢

يمثلوا الأمر موسى عليه السلام بمباشرة الغزو بل قالوا له: إن في هذه الأرض جبابرة لا طاقة لنا بهم فلن ندخلها ماداموا فيها، فإذا خرجوا منها نلبي طلبك وندخلها، قال تعالى:

وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمه الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحدًا من العالمين* يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا- تردوا على أديباركم فتنقلبوا خاسرين* قالوا يا موسى إن فيها قومًا جبارين وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإننا داخلون (١)

هكذا كانت نهاية المطاف مع موسى عليه السلام نهاية الجهد والتعب والسفر الطويل والعناء في سبيل دخول الأرض المقدسة، أن يقول بنو اسرائيل لموسى عليه السلام: لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها* فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون* قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي (٢)

ثم دعا عليهم فقال: فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين* قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين (٣)

. فاستجاب الله تعالى دعاءه وأخبره بأن الأرض المقدسة لن يدخلوها وسيتيهون في صحراء سيناء أربعين سنة فلا يأخذه الحزن عليهم، إنهم خارجون عن طاعة الله تعالى...

وبعد سنين التيه وقبل دخول الأرض المقدسة، أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يذهب إلى جبل «نبو» وأن ينظر إلى الأرض المقدسة ولا يدخلها، فصعد موسى عليه السلام، ونظر إليها من فوق الجبل، وتوفى فوق الجبل، ودُفن على الفسجة وهو الكتيب الأحمر (٤). يقول البيضاوي نقلًا عن النجار عن المدينة المقدسة التي نظر إليها موسى من الجبل، يقول: «إن المدينة هي بيت المقدس أي «أورشليم» أو «أريحا». ولعل القول بأنها «أورشليم» الذي دعا أهلها لأن يسموا أحد أبوابها «باب حطة» والقرآن لم يبين المدينة، والتوراة لم يذكر المسألة أصلًا (٥).

١-١ المائدة: ٢٠-٢١.

٢-٢ المائدة: ٢٤.

٣-٣ المائدة: ٢٣-٢٦.

٤-٤ انظر: قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار: ٢٩٨.

٥-٥ المصدر نفسه.

ص: ١٢٣

ومما سبق يتبين لنا- خلال عرض حياة موسى عليه السلام- أنّ القدس «بيت المقدس» كانت «بيت حج» موسى عليه السلام أو أنه دعا قومه أن يدخلوها ليحجوا إليها ويطوفوا حولها، كلُّ ما في الأمر أنهم كانوا قد استضعفوا عند الفراعنة حيث قال الله تعالى عن تلك الفترة التي عاشوها في مصر: وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يُدبِّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم (١).

وحين استضعفوا وظلموا أرسل الله تعالى لهم موسى عليه السلام ليخرجهم من الظلمات إلى النور، لكنهم أبوا أن يطيعوا الله ورسوله، فحرمهم من الأرض المقدسة وغضب عليهم.

سليمان بنى الهيكل المقدس

دخل بنو اسرائيل مدينة «أورشليم» القدس بقيادة «يوشع بن نون» سبط يوسف عليه السلام، بعد وفاة موسى وهارون عليهما السلام، وكان أول بلد احتلوه هو مدينة «أريحا»، وقيل: «أورشليم»، وقد أمرهم ربهم أن يدخلوا باب المدينة خاشعين متذللين لله تعالى، وأن يقولوا «حطّة» أي حطّ يا رب عنّا خطايانا، ولكن هؤلاء القوم خالفوا أمر الله تعالى- كعادتهم- فدخلوا متكبرين، وفسقوا بدل أن يستغفروا ربهم كما دعاهم لذلك (٢). وولى يوشع أمرهم حتى وافاه الأجل فولّى أمرهم بعده قضاء حكموا فترة من الزمن دون أن يكون لهم ملك ذو سطوة وعزّة، وكانوا عرضة لغزوات الأمم المجاورة لهم، وكانت العادة المتبعة عندهم أنهم إذا خاضوا حرباً ضد أعدائهم جعلوا «تابوت العهد» (٣) أمامهم يستنصرون به لتقوى عزائمهم.

وكان بنو اسرائيل في عهد القضاء في حالة بدوية، وكانت عصبتهم تتجه نحو القبليّة واستمروا كذلك حتى عام (١٠٤٠) ق. حين ظهر فيهم زعيم وحد شمل قبائلهم وجمعها تحت رايه واحدة، وقبض بيده على زمام الحكم وكان بذلك أول

١- ١ البقرة: ٤٩.

٢- ٢ انظر الآيات الكريمة ٥٨- ٥٩ من سورة البقرة.

٣- ٣ تابوت العهد: صندوق من خشب حفظ فيه موسى ألواح الشريعة التي أنزلت عليه في جبل سيناء، استولى عليه الفلسطينيون إثر انتصارهم في معركة افيق، ووضعوه في قرية «يعاريم». وقام داود من ثمّ بنقله في موكب رسمي إلى أورشليم حيث بنى له سليمان هيكلًا. وحفظه في قدس الأقدس. وزال تابوت العهد أثناء حريق الهيكل عام ٥٨٧ أو ٥٨٦ ق. م على يد نبوخذ نصر، انظر معجم الحضارات السامية، هنرى س. عبودي: ٢٦٤.

ص: ١٢٤

ملك في بني اسرائيل، وقد عُرف في التاريخ اليهودي باسم «شاول» وسماه القرآن الكريم «طالوت». ظهر لطالوت عدوٌ جبار عرف باسم «جالوت» وشاع شرّه وفساده، دعا طالوت قومه للجهاد في سبيل الله وحثهم على قتال أعدائهم، وخرج جالوت ووقف وسط الوادي ونادى صفوف بني اسرائيل أن يختاروا رجلاً منهم لمبارزته وقال: إن استطاع رجلكم أن يغلبني صرنا لكم عبيداً، وإن ظفرت أنا به وقتلته تصيروا لنا عبيداً، فارتاع بنو اسرائيل واحجموا عن محاربتة، وظل يتحداهم أربعين صباحاً ومساءً، حتى برز شاب يرعى غنمه، جاء يتفقد اخوته الذين اشتركوا مع جنود طالوت، أرسله أبوه ليخبره بحال أولاده، وكان هذا صغيرهم المسمى «داود»، حين رأى بأمّ عينيه توعدات جالوت لبني اسرائيل وتمرجله عليهم، لم يطق داود الموقف، فقتل جالوت بحجر أخرجه من مقلّاعه، فضربهُ على جبهته فخرّ الجبار على أثرها على الأرض يتلوى، وفي سرعة البرق الخاطف وثب عليه داود واستل سيفه وقطع رأسه، فبهرت بنو اسرائيل من هذا الموقف الجبار، وأكبرت داود وجعلته مقدماً بين رجال الحرب في بني اسرائيل... ثم ما لبث فترة حتى صار ملكاً عليهم.

«وتولى داود الحكم في بني اسرائيل، فجمع كل بني اسرائيل وذهب معهم «أورشليم»... وأقام في الحصن «حصن صهيون» لذلك دعيت «مدينة داود».

وبني مستديراً من القلعة... واختار القسم الشمالي... وبني فيه مذبحاً للرب» (١).

ثم جعل داود ابنه سليمان وليّ عهده قبل أن يموت، ولما وليّ سليمان عرش الملوكية، أتمّ أعمال أبيه وواصل الفتوحات ونظّم المملكة تنظيمًا حديثاً وشيّد الهيكل، وأوتى الحكمة، وجمع بين النبوة والملك، والحكم والعدل، ودعا ربّه قائلاً:

ربّ اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدى إنك أنت الوهاب (٢)

فاستجاب له ربه، فقال تعالى: فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث

١- ١ العرب واليهود في التاريخ، د. أحمد سوسة: ٣٩٨.

٢- ٢ و ٣٧ سورة ص: ٣٥-٤٠.

ص: ١٢٥

أصاب* والشياطين كل بناءٍ وغواص* وآخرين مقرنين في الأصفاد* هذا عطاؤنا فأمّن أو أمسك بغير حساب* وإنّ له عندنا لزُلْفَى
وَحُسْن مآب (١)

مَلِكُ اللَّهِ تعالى سليمانَ ما يشاء من الملك، فوسع سليمان بيت المقدس وبنى الهيكل المسمى ب «هيكل سليمان» (٢)، ويسمى الآن
موضع الهيكل القديم (الحرم الشريف) وفي وسطه- في الوقت الحاضر- مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى الى الجنوب منه.
إذن فالهيكل المعروف في القدس كان من إنشاء نبي الله سليمان عليه السلام، لكن هذا الهيكل العظيم الضخم، لم يرد فيه أنّ سليمان
بعد اتمامه للبناء أنه أذن في الناس للحج فيه، أو أنه حجّ إليه يوماً من الأيام بأمر من الله تعالى...
وهنا لنا أن نتساءل من أين جاء تشريع الحج لليهود والنصارى إلى الهيكل أو الى بيت المقدس واقامة الطقوس التي يمارسونها الآن
في بيت المقدس؟

زكريا ويحيى وخدمه الهيكل

زكريا عليه السلام من أنبياء بني اسرائيل، قضى عمره الشريف في الدعوة إلى الله وخدمه الهيكل المقدس في بيت المقدس
«أورشليم» وعلى هذا فهو «لاوى» لأن خدام الهيكل «لاويّوا» النسب، أي من نسل لاوى بن يعقوب النبي عليه السلام.
كان زكريا عليه السلام قد بلغ من الكبر عتياً، وامتلاً رأسه شيباً، وكانت امرأته عجوزاً عاقراً غير قادرة على الإنجاب، وبلغ زكريا درجة
اليأس من أن يكون له ولد يخلفه في خدمة الهيكل المقدس والدعوة إلى الله تعالى؛ لأنّ أقاربه- بني اسرائيل- أصبحوا شترار القوم-
حسب تعبيره عليه السلام- ويخاف أن لا يقيموا أمور الدين ولا يتولوا الناس بالعدل بعد موته، لعلمه بحالهم وعدم تمسكهم بالشريعة
الإلهية وخاف تحريفها، فدعا الله تعالى بنداء خفى يطلّب منه الولد، وحفزه ما يراه من إكرام الله تعالى مريم، إنه كلما دخل عليها
المحراب فيسألها يا مريم أنى لك هذا (٣)
تجيبه قائلة: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب (٤)

١-١..

٢-٢ هيكل سليمان: بناء ضخّم ومحل عبادة، بلغ ارتفاعه ١٨٠ قدماً حين بناه سليمان عليه السلام، مرصع بالذهب، وكان الذهب يغشى
أجزاء كثيرة من الهيكل، وجيءَ بمعظم مواد بنائه من فينيقية، وكان يقوم بمعظم الأعمال الفنية صنّاع من صيدا وصور... واستمر بناؤه
والعمل في تشييده سبع سنين، كان فيه ١٠٠ حوض من الذهب، وكانت الحجارة الكريمة ترصع أجزاء متفرقة منه، كما كان ملكان
مغطيان بصفائح الذهب يحرسان تابوت العهد، وهذا الصرح الضخم لم يبق منه حجر واحد، بل إن موضعه نفسه لا يعرفه أحد على
وجه التحقيق، انظر قصة الحضارة مج ١، ٢: ٣٣٦ فما بعد...

٣-٣ آل عمران: ٣٧.

٤-٤ آل عمران: ٣٧.

ص: ١٢٦

وحفزه ما يراه من عبادة مريم عليها السلام وخدمتها للهيكل المقدس، فطرق باب الدعاء إلى الله تعالى، واستجاب له ربه: فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحسوراً (١)

أجل... استجاب الله تعالى دعاء نبيه زكريا عليه السلام خادم الهيكل والمسؤول عنه والمبشر والنذير لبني اسرائيل المعاندين، استجاب له بولد يخلفه فى النبوة والرسالة والهداية، وأرسل إليه ملائكة تبشّره بذلك، واختار له الله تعالى اسماً لم يكن أحد من قبله قد سمى بذلك الاسم: يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً (٢)

تعجب زكريا عليه السلام بهذه البشرى وقال: ربّ أئنّى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً قال كذلك قال ربك هو علىّ هينٌ وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً (٣)

وتحققت إرادة الله تعالى وحملت زوجة زكريا واسمها «اليسابات»، ويقول أهل الكتاب: كان حملها فى الزمن الذى كانت مريم حاملاً فى عيسى. ولا دليل على صحة هذا الادعاء عندنا- فى وقت الحمل وزمنه-.

لقد كان يحيى عليه السلام على أكمل أوصاف الصلاح والتقوى منذ صباه، وقد أوتى الحكمة، قال تعالى: يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً (٤)

. وكذلك خصّه الله تعالى بحنانه ورحمته لتقواه منذ الصبا، وحناناً من لدنا وزكاهً وكان تقياً (٥). هذا ما كان من حياة زكريا وعلاقته فى الهيكل المقدس، وبعد وفاة زكريا عليه السلام، وقيل قُتِلَ، حسب ما جاء فى انجيل برنابا: «أنّ عيسى قال لليهود:

ستأتى عليكم دماء الأنبياء الذين قتلتموهم إلى دم زكريا الذى قتلتموه بين الهيكل والمذبح» (٦). فتسلم يحيى زمام الأمور بعد زكريا عليه السلام فى امور الدين والقضاء وخدمة الهيكل المقدس والصلاة والعبادة فى معبد الهيكل، وكان بارعاً فى الشريعة الموسوية- شريعة موسى عليه السلام- ومرجعاً مهماً لكل من يستفتى فى أحكامها...

١- ١ آل عمران: ٣٩.

٢- ٢ مريم: ٧.

٣- ٣ مريم: ٩.

٤- ٤ مريم: ١٢.

٥- ٥ مريم: ١٣.

٦- ٦ قصص الأنبياء/ عبدالوهاب النجار: ٣٦٨. بيروت- لبنان.

ص: ١٢٧

وتذكر كتب التاريخ والتفسير أنّ في زمن نبوة يحيى عليه السلام كان أحد حكام فلسطين يقال له «هيرودس» وكانت له بنت أخ تدعى «هيروديا» بارعة الجمال، عشقها عمّها وأراد الزواج منها. وكانت البنت وأمها ترغبان في ذلك، غير أن يحيى عليه السلام كان معارضاً لهذا الزواج؛ لأنه محرّم في الشرائع السماوية، وكان يحيى آنذاك سيداً نبياً يُحترم كلامه، ولما عرفت أم الفتاة أن يحيى معارضاً لهذا الزواج، هيأت بنتها في كامل زينتها وأخرجتها على عمّها، ورقصت البنت أمامه، فسِرّت قلبه، فقال لها: اطلبي ما تتمنين لأسيّر قلبك، وكانت أمّها قد لَقنتها أن تطلب منه رأس يحيى بن زكريا في طبق، ففعلت ووفى لها عمّها وأمر بقتل يحيى في محرابه ومحراب أبيه بين الهيكل المقدس ومذبح الرب (١).

وبذلك صار هذا المحراب له قدسية خاصة عند أتباع زكريا ويحيى، يُطافُ حوله في مراسم حجّهم السنوي في ذكرى يوم الغدر بهما.

منطقة الهيكل في ادوارها الثلاثة من عهد سليمان حتى العهد الاسلامي «عن كتاب» دليل فلسطين التاريخي

١-١ المصدر السابق: ٣٦٨-٣٦٩. وكذلك في كتاب مع الأنبياء في قصة يحيى.

ص: ١٢٨

ومن خلال ما تقدم لم نجد أن زكريا أذن للناس بالحج في بيت المقدس ومحراب صلاة زكريا أو ابنه يحيى مع أنهم كانوا في خدمة بيت المقدس من الناحية الدينية.

روح الله عيسى عليه السلام والقدس

الى جذع النخلة في الموضع الذي فيه مدينة (بيت لحم)، على بضعة كيلومترات من بيت المقدس، جاءت بنت عمران «مريم القديسة» لتستتر أو لتعتمد على النخلة اليابسة، وهي في حالة المخاض قالت في نفسها: يا ليتني متُّ قبل هذا وكنتُ نسياً منسياً* فنادها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً* وهزى اليك بجذع النخلة تُساقط عليك رطباً جنياً* فكلى واشربى وقرى عيناً (١)

لقد أراد الله تعالى أن يسكن روح مريم القديسة العذراء، ولتعلم أن من أوجد لها الرطب من النخلة اليابسة في الشتاء، وأوجد لها الماء الجارى في تلك الهضبة التي كانت عليها من الجبل - جبل صهيون - قادر أن يرد عنها كل سوء وحتى عيب العائنين، وقذف القاذفين، وسيأتي المولود الذي خلقه الله بكلمة «كن» على غير الطريقة العادية في التوالد، وهذا الولد اسمه المسيح عيسى، وسيجعله الله تعالى ذا مكانة في الدنيا وذا جاه وشرف وعلو قدر، كما أنه في الآخرة من الصفوة المقربين الى الله تعالى... وإنه خاتم أنبياء بنى اسرائيل، ومثل خلقه كمثل آدم عليه السلام: إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون (٢)

وضعت مريم العذراء مولودها! وهي وجله من القوم وبما سيرمونها من الفاحشة والفجور، لكن الملك جبرئيل «الوحى» علمها بأمر من الله تعالى، أنها إذا أتت قومها أن تقول لهم: إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً (٣)

وجاءت قومها تحمله، سألوها يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوءٍ وما كانت أمك بغياً (٤)
فأشارت إلى وليدها، وتكلم بإذن الله تعالى قائلاً:

١- ١ سورة مريم: ٢٣-٢٦.

٢- ٢ آل عمران: ٥٩.

٣- ٣ مريم: ٢٦.

٤- ٤ مريم: ٢٨.

ص: ١٢٩

إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً* وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً... (١)

وبذلك ظهرت براءة مريم العذراء العابدة القديسة المنذورة لبيت المقدس والعاكفة على صلاتها فيه.

ومضت ثلاثون عاماً (٢) على هذه المعجزة لمريم عليها السلام أتها المعجزة الأخرى أن بعث عيسى روح الله عليه السلام نبياً ورسولاً في بني اسرائيل وأنزل عليه الإنجيل، وبدأ بالدعوة إلى الله، ففريق صدقوه واتبعوه حقاً، وفريق كذبوه وحاربوه، وفريق ثالث انبهرت عقولهم به وبشخصه ومعجزة مجيئه إلى الدنيا من غير أب ومن إحيائه الموتى وشفائه للأكمه والأبرص وغيرها من المعاجز التي جاء بها عليه السلام، هذا الفريق من الناس جعلوه إلهاً يُعبد أو ابناً لله الكبير وأنه نظير للمعبود الأب وغيرها من الاصطلاحات التي ميزوا بها بقية مخلوقات الله تعالى...

أجل... أنزل الله تعالى على عيسى عليه السلام الإنجيل: وقفينا بعيسى بن مريم و آتيناها الإنجيل (٣)

. ولكن اين هو الإنجيل الذي من عند الله والذي ذكره القرآن الكريم؟

لقد ضاع «الإنجيل الأصل» وبقيت أناجيل متعددة محرّفة كتبها أيادي النصارى، أو بكلمة أخرى ألفها تلاميذ المسيح عليه السلام من بعده بزم من طويل، وهي عبارة عن تعريف بأحوال المسيح وأعماله وأقواله وعظاته ومعجزاته وخوارق العادات التي أجراها الله تعالى على يده.

أهم الأناجيل التي تعترف بها الكنيسة، أربعة هي:

١- انجيل متى ٢- انجيل مرقس ٣- انجيل لوقا ٤- انجيل يوحنا.

«إن هذه الأناجيل وغيرها من الأناجيل الكثيرة، لم تكتب زمن عيسى عليه السلام بل بعد عهده بفترة، قام بعض تلامذته وتلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم وكتبوا قصصاً كثيرة. وكل واحد يسمى ما كتبه «انجيلاً» حتى قيل: إن الأناجيل بلغت:

١-١ مريم: ٣٠-٣١.

٢-٢ بموجب روايات الإنجيل انه بعث نبياً بعمر الثلاثين.

٣-٣ الحديد: ٢٧.

ص: ١٣٠

نيفاً ومائة انجيل» (١).

والجدير بنا بيانه: أن هذه الأنجيل في الظاهر لا ذكر فيها للأمر بالحج إلى بيت المقدس أو إلى أماكن ذكريات عيسى عليه السلام أو مسقط رأسه مثلاً، ولكننا نرى النصارى يحجون إلى بيت المقدس وإلى جبل صهيون حيث مسقط رأس المسيح عليه السلام وبيت لحم. هذا المكان في القدس بدأ الحج إليه منذ أن بُنيت أول كنيسة هناك...

«... وبيت لحم، بعثها الامبراطور قسطنطينوس الأول الكبير، بعثها مدينة دينية وبنى فيها عام ٣٢٦ م كنيسة إلى جانب مغارة يرجح أن يكون المسيح ولد فيها، وهي لا تزال قائمة إلى اليوم، كما بنى فيها (يوستينيانوس) الأول ٥٢٦-٥٦٥ كنيسة مزخرفة بالفيسانوس...» (٢).

وعلى هذا، فليس هناك مجال للاعتقاد بأن المسيح عليه السلام جعل أوامر الحج مكان مسقط رأسه الشريف، وإنما طقوس والأعيان نسجت بعده عليه السلام.

إسراء محمد صلى الله عليه وآله إلى القدس

وَبُعْثَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بَعْدَ مِيلَادِ الْمَسِيحِ ب (٦١٠) أَعْوَامٍ؛ لِيَكُونَ خَاتَمًا لِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَسَيِّدَهُمْ، وَخَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِخِصَائِصٍ وَمُعْجَزَاتٍ كَثِيرَةٍ كَانَتْ مِنْهَا الْإِسْرَاءُ وَالْمِعْرَاجُ.

لقد أُسْرِيَ بِالرُّسُولِ الْأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِي مَكَّةَ الْمَكْرَمَةِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى (٣) فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَى السَّمَوَاتِ الْعُلَى، وَقَدْ اتَّفَقُوا عَلَى وَقُوعِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ لَوْجُودِ النَّصِّ عَلَيْهِمَا فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ، قَالَ تَعَالَى: سَبْحَانَ الَّذِي أُسْرِيَ بَعْدَهُ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا... (٤)

جاء عن القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام في تفسير هذه الآية قال: جاء جبرئيل وميكائيل وإسرافيل بالبراق إلى

١- ١ قصص الأنبياء، النجار: ٣٩٩.

٢- ٢ معجم الحضارات، هنري س. عبودي: ٢٥٣.

٣- ٣ المسجد الأقصى: مكان للعبادة ولفظة مسجد مأخوذة من الفعل سَجَدَ، فالمسجد موضع السجود، وحين أُسْرِيَ بِالرُّسُولِ الْأَكْرَمِ، لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ بِنَاءٌ مَعْرُوفٌ بِالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَإِنَّمَا سُمِيَ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى لِأَنَّهُ مَكَانٌ يُسْجَدُ فِيهِ فِي الْعِبَادَةِ.

٤- ٤ الإسراء: ١.

ص: ١٣١

رسول الله صلى الله عليه وآله فأخذ واحد باللجام وواحد بالركاب وسوى الآخر عليه ثيابه، فتضعضت البراق فلطمها جبرئيل ثم قال لها: اسكني يا براق فما ركبك نبى قبله ولا يركبك بعده مثله.

قال: فرقت به ورفعته ارتفاعاً ليس بالكثير ومعه جبرئيل يريه الآيات من السماء والأرض. قال: فبينما أنا فى مسيرى إذ نادى منادٍ عن يمينى: يا محمد فلم أجبه ولم التفت إليه، ثم نادى منادٍ عن يسارى: يا محمد فلم أجبه ولم التفت إليه، ثم استقبلتنى امرأة كاشفة عن ذراعها من كل زينة الدنيا فقالت: يا محمد انظرنى حتى اكلمك فلم التفت إليها، ثم سرت فسمعت صوتاً أفزعنى فجاوزت، فنزل بى جبرئيل فقال: صلّ فصليت. فقال: أتدرى أين صليت؟ قلت: لا، فقال: صليت بطور سيناء حيث كلم الله تعالى موسى عليه السلام تكليماً، ثم ركبت فمضينا ما شاء الله ثم قال لى: انزل فصل فزلت وصليت فقال لى: أتدرى أين صليت؟ فقلت: لا، قال:

صليت فى بيت لحم، وبيت لحم بناحية بيت المقدس حيث ولد عيسى بن مريم.

ثم ركبت فمضينا حتى انتهينا إلى بيت المقدس، فربطت البراق بالحقة التى كانت الأنبياء تربط بها، فدخلت المسجد ومعى جبرئيل إلى جانبى، فوجدنا إبراهيم وموسى وعيسى فيمن شاء الله من أنبياء الله عليهم السلام فقد جمعوا إلى واقيمت الصلاة ولا أشك إلا وجبرئيل يستقدمنا، فلما استتوا أخذ جبرئيل بعضدى فقدمنى وأممتهم ولا فخر.

ثم أتانى الخازن بثلاث أوان وإناء فيه لبن وإناء فيه خمر وإناء فيه ماء، وسمعت قائلاً يقول: إن أخذ الماء غرق وغرقت أمته، وإن أخذ الخمر غوى وغويت أمته، وإن أخذ اللبن هدى وهديت أمته، قال: فأخذت اللبن وشربت منه، فقال لى جبرئيل: هديت وهديت أمتك. ثم قال لى: ماذا رأيت فى مسيرك؟ فقلت: نادانى منادٍ عن يمينى فقال: أوأجبتة؟ فقلت: لا ولم ألتفت إليه فقال: داعى اليهود، لو أجبتة لتهودت أمتك من بعدك، ثم قال ماذا رأيت؟ فقلت: نادانى منادٍ عن يسارى

ص: ١٣٢

فقال لي: أو أجبته؟ فقلت: كلا ولم ألتفت إليه فقال: ذاك داعي النصارى ولو أجبته لتنصرت أمتك من بعدك.
ثم قال: ماذا استقبلك؟ فقلت: لقيت امرأة كاشفة عن ذراعيها عليها من كل زينة الدنيا، فقالت: يا محمد انظرنى حتى أكلمك. فقال:
أو كلمتها؟ فقلت: لم أكلمها ولم ألتفت إليها فقال: تلك الدنيا ولو كلمتها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة (١).
الصخرة المشرفة، منها عرج رسول الله صلى الله عليه وآله إلى السماء
سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى
ومن بيت المقدس انتقل النبى محمد صلى الله عليه وآله إلى السماء - فكان المعراج - وهناك فرض عليه وعلى أمته الصلوات
الخمسة فى اليوم والليله وغيرها، ثم عاد

١-١ نقله القمى فى تفسيره للآية الأولى من سورة الاسراء، والطباطبائى فى الميزان، ومحمد جواد مغنیه فى الكاشف، وسيد قطب فى
تفسيره فى ظلال القرآن، ونقله كتاب التاريخ الإسلامى باتفاق السنة والشيعة، فراجع.

ص: ١٣٣

رسول الله صلى الله عليه وآله إلى مكة وجرى ذلك كله في ليلة واحدة (١)...

ومن تلك الليلة قدس المسلمون المسجد الأقصى في بيت المقدس، وتوجهوا إليه في صلاتهم بأمر من الله ثلاثة عشر عاماً وبضعه أشهر.

المسجد الأقصى حالياً

ولم يكن عجباً أن يتخذ المسلمون مكاناً مقدساً لهم، وأن يكون عندهم بالمرتبة الثانية من الحرم المكي والمدني من حيث القداسة والصيانة والرعاية...

فصلاة النبي فيه إماماً لأنبياء الله دليلاً على أن الله تعالى يورث الأرض لعباده

١ - ١ المصدر السابق.

ص: ١٣٤

الصالحين، ودليلاً على قدسية هذا المكان العظيم، لكن القدسية شيء والحج الذي نحن بصدده شيء آخر. فالمسلمون يقدسون بيت المقدس، ويعتبرونه من مقدساتهم المهمة، لكنهم لم يحجوا إليه لأنهم لم يؤمروا بذلك... ولم تأمر به الأديان السماوية السابقة.

والجدير بالذكر أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله قيّد البراق بالصخرة المقدسة (١) حين بلغ به الإسراء إلى بيت المقدس، وحتى يومنا هذا يُسمى الجدار الغربي للحرم القدسي بجدار البراق (٢)، وجاء في الروايات أيضاً أن النبي صلى الله عليه وآله صلى على أطلال هيكل سليمان إماماً لإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام وبقية الأنبياء...

والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى من معجزات حبيب الله محمد صلى الله عليه وآله وهي تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، إلى محمد صلى الله عليه وآله خاتم النبيين، وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً، وكأنما أُريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثته الرسول الخاتم لمقدسات الرُّسل قبله، واشتمال رسالته على هذه المقدسات، وارتباط رسالته بها جميعاً، قال تعالى: إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده (٣)

وهذه أروع رابطة وأروع علاقة بين الإسلام وبيت المقدس (محل عبادة الأنبياء)، وقد مثلها النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله. لقد احترم الإسلام بيت المقدس، فهو فعلاً بيت مقدس ومحل عبادة لله تعالى، وفيه مقدسات الأنبياء من أولهم حتى خاتمهم صلى الله تعالى عليهم جميعاً وسلم، ولكن مع هذا لم يجعله لحظة واحدة مركزاً للحج ولا أخبر نبيه الكريم أنه أمر أحداً من الأنبياء بالحج إليه، بل الاتجاه المأمور به منذ خلق البشرية إلى نهاية الأرض، بالحج إلى مكة المكرمة حيث بيت الله العتيق، فالإذن إليه لا لغيره.

-
- ١-١ الصخرة المقدسة: صخرة ذات تاريخ قديم جداً قدسها أهل أورشليم وتصوروا أنها نزلت من السماء كالحجر الأسود في الكعبة.
 - ٢-٢ جدار البراق: هو الحائط الذي ربط فيه رسول الله محمد صلى الله عليه وآله البراق الدابة في ليلة الإسراء فسمى بجدار البراق.
 - ٣-٣ الأعراف: ١٢٨.

ص: ١٣٥

الكعبة لا القدس مركزاً للحج الأنبياء...

من كل ذلك، ومن خلال ما أوردناه من حياة الأنبياء، لم نقرأ أنهم حجوا بيت المقدس، كما قد يتبادر إلى الذهن من خلال اسم البيت وقدسيته، ووجود الأنبياء فيه وممارستهم بعض شعائرهم... وعباداتهم...

لكن البيت الحقيقي الذي حجّه الأنبياء ومارسوا فيه شعائر الله تعالى، هو بيت الله العتيق والكعبة الشريفة، كما وردت في الروايات عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وعن آله الأطهار أنه أول بيت وضع للحج فيه، وهو أول بيت لله عبد الله تعالى فيه، وهو أول بيت أسست شعائر الحج فيه، إلا أن المنحرفين عن الجادة المستقيمة، اتخذوا أماكن حج وشعائر حج على غرار الحج لبيت الله.

وكما أن لبيت الله الأولوية في كل شيء، فإنه أعظم بيت وضع على الأرض، فقد قال الأزرقى: حدثني جدى عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: «أخبرني ابن جريج، قال: بلغنا أن اليهود قالت: بيت المقدس أعظم من الكعبة؛ لأنه مهاجر الأنبياء، ولأنه في الأرض المقدسة، وقال المسلمون: الكعبة أعظم، فبلغ ذلك النبي محمداً صلى الله عليه وآله فنزل: إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مبارك حتى بلغ فيه آيات بينات مقام إبراهيم وليس ذلك في بيت المقدس، ومن دخله كان آمناً وليس ذلك في بيت المقدس» (١).

وبيت المقدس بيت مقدس واقعاً، وبيت عبد فيه الله، وكل بيت يُعبد فيه الله فهو مسجد، وكل مسجد هو بيت الله، لكن الكعبة شيء آخر، ولها شأن آخر، فقد قال الله تعالى لآدم عليه السلام: «سأجعل فيها (٢) بيوتاً ترفع لذكري، ويسبحني فيها خلقي، وسأبوءك فيها بيتاً أختاره لنفسى، وأختصه بكرامتى، وأوتره على بيوت

١-١ أخبار مكة، الأزرقى ١: ٧٥.

٢-٢ أى فى الأرض.

ص: ١٣٦

الأرض كلها باسمي، فأسميه بيتي، وأنطقه بعظمتي، وأجوزه بحرمتي، وأجعله أحق بيوت الأرض كلها وأولاها بذكرى، وأضعه في البقعة التي اخترت لنفسى، فإنى اخترت مكانه يوم خلقت السموات والأرض... ومن عظم شأنه عظم فى عينى، ومن تهاون به صغر فى عينى، ولكل ملك حيازة ما حواليه، وبطن مكة خيرتى وحيازتى وجيران بيتى وعمارها وزوارها... فأجعله أول بيت وضع للناس...»
(١).

المسجد الحرام

١- ١ أخبار مكة، الأزرقى ١: ٤٦-٤٧، منشورات الشريف الرضى.

ص: ١٣٧

الكعبة في التاريخ

لا أعتقد أن أحداً يجهل قدم الكعبة الشريفة، فلهذا البيت الشريف تاريخ طويل وتاريخ عريق موغل في القدم، فهو - كما ذكرنا - أول بيت وضع للناس ليعبدوا فيه الله سبحانه، من هنا جاءت تسميته «بيت الله العتيق».

ولا أظن أحداً يجهل القداسة التي تمتع بها هذا البيت الشريف، الذي حاز من الشرف في امتداد تاريخه الطويل، أن يُعتقد زائره وقاصده، من ذنوبه وآثامه ومعاصيه، ويخرج منه كيوم ولدته أمه، ويحصل على مراده في الدعوة فيه، إضافة إلى ذلك فقد كان مركزاً لحج الملائكة قبل آدم عليه السلام بألفى عام، ثم حج إليه أبو البشر آدم عليه السلام وولده من بعده...

ولما جاء زمن نوح عليه السلام والطوفان الكبير الذي حدث في أيامه، زالت معالم البيت، وقيل رُفِع إلى السماء، وبقي أثره على الأرض فقط، حيث كان أكمه حمراء مدرة لا تعلوها السيول. والناس يعرفون أن هذا المكان هو موضع بيت الله الكريم، وكان يزوره المظلوم والهارب من جور الأرض وظلمها، فيدعو الله فيه فيستجاب له، حتى بوأه الله تعالى لإبراهيم الخليل عليه السلام، ومن مرة أخرى على عباده بالحج لهذا البيت الشريف المقدس والعبادة فيه والدعاء وطلب الحاجة من الله تعالى فيه للدين والآخرة...

أما الموقع الجغرافي للكعبة الشريفة: فهي في منتصف الجزيرة العربية الغربية، على بُعد ثمانية وأربعين ميلاً من البحر الأحمر في وادٍ غير ذي زرع، تحيطها جبالٌ جرداء تكادُ تُطبِقُ عليها من جميع الجهات، صيفها حار لا يُطاق. وموقعها هذا جعلها محطةً صالحه في طرق القوافل الطوال التي تجمع في بعض الأحيان ألف جمل بعضها وراء بعض، والتي تحمل المتاجر بين جنوبي بلاد العرب (ومن ثم بين الهند وإفريقية الوسطى) وبين مصر، وفلسطين، وبلاد الشام. وكان التجار أصحاب هذه التجارة يؤلفون فيما بينهم شركات محاصه، ويسيطرون على أسواق

ص: ١٣٨

عكاظ (١).

ويقومون بالشعائر الدينية المجزية حول الكعبة وحجرها الأسود المقدس (٢).

وقد وصف الإمام على عليه السلام في نهج البلاغة الكعبة، بقوله: «ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لذن آدم- صلوات الله عليه- إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً، ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً، وأقلّ نتائق الدنيا مدرأً، وأضيق بطون الأودية قُطراً، بين جبالٍ خشنة ورمالٍ دَمِثَّة، عيون وشلة، وقُرى منقطعة، لا يزكو بها حُفٌّ، ولا حافر ولا ظلف» (٣).

ثم بين عليه السلام قدم الكعبة بقوله: «ثم أمر آدم عليه السلام وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابةً لمنتجع أسفارهم، وغاية لملقى رحالهم، تهوى إليه ثمار الأفتدة. من مفاوز قفار سحيقة، ومهاوى فجاج عميقة، وجزائر بحارٍ منقطعة حتى يهزّوا مناكبهم ذُللاً، يُهلّلون لله حوله، ويرملون على أقدامهم شعثاً غبراً له. قد نبذوا السراويل وراء ظهورهم و...» (٤).

وعن تاريخ بناء الكعبة وإعادة بناءها وتجديدها يحدثنا ول ديورانت قائلاً:

«إن الكعبة بُنيت ثم أعيد بناؤها عشر مرات، فقد بناها في فجر التاريخ ملائكة السماء، وبناها في المرة الثانية آدم أبو البشر، وفي المرة الثالثة ابنه شيث ثم بناها في المرة الرابعة إبراهيم وإسماعيل... وبناها في المرة السابعة قُصى زعيم قبيلة قريش، وبناها في المرة الثامنة كِبَارُ قريش في حياة محمد صلى الله عليه وآله عام (٦٠٥) م وبناها في المرتين التاسعة والعاشره زُعماء المسلمين في عامي ٦٨١ و ٦٩٦ م والكعبة كما بُنيت في المرة العاشرة هي كعبة هذه الأيام في معظم أجزائها» (٥).

وفي بيان قدم الكعبة يقول الإمام الباقر عليه السلام: «لما أراد الله تعالى أن يخلق الأرض أمر الرياح فضربن متن الماء حتى صار موجاً، ثم أزيد فصار زبداً واحداً

١-١ أسواق عكاظ: أسواق تجارية مهمة، تدر بالأرباح المالية الهائلة خصوصاً في موسم الحج قبل الاسلام وبعده.

٢-٢ قصة الحضارة، ول ديورانت مج ١، ١: ١٨.

٣-٣ نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢ القاصعة: ٢٩٣ منشورات دار الهجرة إيران. قم

٤-٤ الخطبة نفسها.

٥-٥ قصة الحضارة، ول ديورانت مج ٧، ١: ١٨.

ص: ١٣٩

فجمعه في موضع البيت، ثم جعله جبلاً من زبد، ثم دحا الأرض من تحته وهو قول الله عزوجل: إن أول بيت.. فأول بيت خلق من الأرض الكعبة، ثم مدت الأرض منها» (١).

هذا موجز سريع استعرضت فيه تاريخ الكعبة؛ ليكون مدخلاً ومقدمة لقراءتها من التاريخ وتمهيداً للتفصيلات اللاحقة... هبوط آدم عليه السلام وبناء الكعبة

آدم عليه السلام، الكعبة الشريفة، قَدِمَا لينا من أعماق التاريخ، قَدِمَا مجملين، فقد ورد ذكر آدم عليه السلام ضرباً في القرآن الكريم ووردت قصته وأمر خلقه وهبوطه الأرض، ووردت الكعبة كمرکز مقدس هام في القرآن الكريم أيضاً... ولكن متى بُنيت؟ وهل كان آدم عليه السلام فعلاً هو بانيها أم هناك غيره؟ فذلك ما حدثتنا به الروايات، والروايات في هذا الموضوع كثيرة تحكى صراحةً بأن باني الكعبة الأول هو آدم، ومن هذه الروايات الكثيرة في بناء آدم عليه السلام الكعبة حين هبوطه إلى الأرض، نذكر ما ذكره الأزرقى في كتابه «أخبار مكة»:

فقد ورد عنه: «وحدثني جدى قال: وحدثني إبراهيم بن محمد بن أبى يحيى عن الزهرى، عن عبد الله بن عبد الله عتبة بن مسعود، عن ابن عباس رضوان الله تعالى عليه قال: كان آدم عليه السلام أول من أسس البيت، وصلى فيه حتى بعث الله الطوفان...» (٢).

وفي الروايات الأخرى تفصيلات يطول ذكرها... ولكن الحقيقة أن القراءة الدقيقة والتفصيلية، لا مجال لها في هذا الموضوع، وإنما أردنا مجرد ذكر ما ورد في تاريخ بناء الكعبة، وهذه رواية أخرى عن ابن عباس ونكتفى بها؛ لأن ما جاء في هذا الأمر روايات يشابه بعضها الآخر.

يقول ابن عباس: «لما أهبط الله تعالى آدم من الجنة كان رأسه في السماء ورجلاه في الأرض وهو مثل الفلك في رعدته، قال: فطأطأ الله عزوجل منه ستين

١-١ الكافى، الكلينى ١: ١٨٩.

٢-٢ أخبار مكة، الأزرقى ١: ٤٠.

ص: ١٤٠

ذراعاً، فقال يا رب مالي لا أسمع أصوات الملائكة ولا أحسهم؟ قال: خطيبتك يا آدم ولكن اذهب فابن لي بيتاً فطف به واذكرني حوله كنعو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشي، قال: فأقبل آدم عليه السلام يتخطأ، فطويت له الأرض وقبضت له المفاوز فصارت كل مفازة يمرّ بها خطوة وقبض له ما كان من مخاض ماء أو بحر فجعل له خطوة، ولم تقع قدمه في شيء من الأرض إلا صار عمراناً وبركة حتى انتهى مكة فبنى البيت الحرام، وإن جبرئيل عليه السلام ضرب بجناحيه الأرض فأبرز عن أس ثابت على الأرض السيفلي، فقذفت فيه الملائكة من الصخر ما لا يطيق حمل الصخرة منها ثلاثون رجلاً، وإنه بناه من خمسة أجبل: من لبنان، وطور سيناء، والجودي، وحواء، وطور زيتا حتى استوى على وجه الأرض» (١).

فإن صحت هذه الأخبار والروايات التي وصل إلينا منها الحشد الكثير، فيكون الباني والمؤسس والحاج الأول للكعبة الشريفة هو أبو البشر آدم عليه السلام، ولكن القرآن الكريم لم يخبرنا بهذه التفاصيل إنما جاءت قصة آدم عليه السلام مجملته مختصرة... إن ارتباط آدم عليه السلام بالكعبة الشريفة، ووجودها في زمانه، وفي عمق التاريخ يعطيها أهمية كبرى فوق أهميتها الذاتية الحقيقية، التي أعطاها الله تعالى، ونسبها إليه عز وجل...

لقد كرمها الله تعالى يوم خلقت، ويوم حجها أول إنسان، والى اليوم ما زالت ذلك الصرح الإلهي المقدس العظيم...

زوال معالم الكعبة في الطوفان

كل شيء آيل إلى التغير والتبدل والزوال، على مستوى الدنيا، ولا يبقى سوى الله تعالى كل شيء هالك إلا وجهه (٢) ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام (٣).

ولكن عين الله تعالى التي لا تنام، حارسه لمن تحب وما تحب وما تريد أن يبقى

١- ١ أخبار مكة، الأزرقى ١: ٣٦-٣٧.

٢- ٢ القصص: ٨٨.

٣- ٣ الرحمن: ٢٧.

ص: ١٤١

الى قيام الساعة.

فحين غضب الله تعالى على قوم نوح عليه السلام وطغى الطوفان الكبير على سطح الكرة الأرضية، لم تكن الكعبة المشرفة بمنأى عن هذا الطوفان، فغرقت ضمن ما غرق من موجودات الكرة الأرضية، ولكونها مركزاً إلهياً مقدساً لم تكن كساير أشياء الأرض التي غرقت وانتهى كل شيء، وإنما أراد الله لها شيئاً آخر، أراد لها الله بقاءً أبدياً إلى قيام الساعة؛ لتكون نقطة الاتصال المركزية بين العبد وربّه، من هنا ومن خلال اللطف الإلهي الشامل لكل الوجود، قيض الله لها نبياً من عظماء الأنبياء ألا وهو إبراهيم الخليل عليه السلام وابنه الحليم اسماعيل عليه السلام ليعيدا بناءها من جديد، ويرفعا قواعد البيت... وهكذا بلغ أمر الله وتربعت الكعبة على سطح الكرة الأرضية؛ لتكون شامخة وعالية، وامتداداً بين السماء والأرض.

والقرآن الكريم لم يتحدث عن الطوفان بشكل مفصل، وكيف كانت الكعبة وكيف زالت (١)، وإنما ذكر الموضوع بشكل مجمل، تعرض بشكل أساس عن العبرة والموعظة دون التفاصيل والجزئيات والأجزاء والأماكن.

أما الروايات التي تحكى حال الكعبة الشريفة في الطوفان الكبير فهي كثيرة جداً، لا يسعنا سوى ذكر واحدة أو اثنتين ونكتفي بها. عن ابن عباس رضوان الله عليه قال: «فكان أول من اسس البيت وصلى فيه وطاف به آدم عليه السلام حتى بعث الله تعالى الطوفان: وكان غضباً ورجساً. قال: فحيث ما انتهى الطوفان ذهب ريح آدم عليه السلام قال: ولم يقرب الطوفان أرض السند والهند، قال: فدَرَسَ موضع البيت في الطوفان حتى بعث الله تعالى إبراهيم واسماعيل فرفعا قواعد وإعلامه...» (٢).

وفي روايه مجاهد قال الأزرقى: قال: «بلغنى أنه لما خلق الله عزّوجل السماوات والأرض كان أول شيء وضعه فيها البيت الحرام وهو يومئذ ياقوته حمراء جوفاء لها بابان أحدهما شرقى والآخر غربى فجعله مستقبل البيت المعمور،

١-١ ليس من اختصاص القرآن الكريم ذكر التفاصيل في طرح التاريخ وغيره، وإنما يُشير إليها بما ينسجم والعبرة والبيان، والتفاصيل تؤخذ من الأحاديث الشريفة والأخبار والروايات.

٢-٢ أخبار مكة، الأزرقى ١: ٣٧.

ص: ١٤٢

فلما كان زمن الغرق رُفِعَ في ديباجتين فهو فيهما إلى يوم القيامة، واستودع الله عزَّ وجلَّ الركن أبا قيس قال: وقال ابن عباس: كان ذهباً فرفع زمان الغرق فهو في السماء. وعن سعيد عن مقاتل يرفع الحديث إلى النبي صلى الله عليه وآله في حديث حدث به آدم عليه السلام قال: أي ربِّي إني أعرف شقوتي، إني لا أرى شيئاً من نورك يعبد، فأَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ عليه البيت المعمور على عرض هذا البيت في موضعه من ياقوته حمراء، ولكن طوله كما بين السماء والأرض، وأمره أن يطوف به، فأذهبَ اللهُ عنه الغم الذي كان يجده قبل ذلك، ثم رُفِعَ على عهد نوح عليه السلام» (١).

ابراهيم عليه السلام يجدد بناء الكعبة

والنبي العظيم أبو الأنبياء خليل الرحمن ابراهيم عليه السلام، جاء ليعيد مجد الكعبة الشريفة التي درسها الفيضان والظوفان النوحى، ولكن من أين بدأ؟ وأين كان مكانها؟ وفي أية بقعة من بقاع الكرة الأرضية؟ إنَّ موضع الكعبة كان قد خُفِيَ ودرس في زمن الغرق فيما بين عهد نوح عليه السلام و ابراهيم عليه السلام، وقد ذكر مجاهد، كان موضع الكعبة أكمة حمراء مدرة لا تعلوها السيول غير أنَّ الناس يعلمون أنَّ موضع البيت فيما هنالك ولا يثبت موضعه، وكان يأتيه المظلوم والمتعوذ من أقطار الأرض ويدعو عنده المكروب، فقلَّ من دعا هنالك إلَّا استجيب له، وكان الناس يحجون الى موضع البيت حتى بوأ اللهُ تعالى مكانه لإبراهيم عليه السلام لما أراد من عمارة بيته وإظهار دينه وشرائعه، فلم يزل منذ أهبط اللهُ تعالى آدم عليه السلام إلى الأرض معظماً محرماً بيته تتناسخه الأمم والملل أمة بعد أمة وملَّة بعد ملَّة، قال: وقد كانت الملائكة تحجُّه قبل آدم عليه السلام (٢).

وقد ذكرنا في الفصل الثالث، كيفية بناء إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل عليه السلام البيت الحرام، والكعبة الشريفة بالتفصيل، وهنا نضيف كيفية مجيء ابراهيم عليه السلام إلى هذا المكان المقدس، كيف كان والى أين آل. فقد خرج ابراهيم عليه السلام من الشام، أو من مدينة أورشليم «بيت المقدس» يحمل

١-١ المصدر السابق: ٥٠-٥١.

٢-٢ أخبار مكة، الأزرقى ١: ٥٢-٥٣.

ص: ١٤٣

زوجته وولده الوحيد اسماعيل عليه السلام، فخرج بهم ومعه جبرئيل عليه السلام يدلله على موضع البيت ومعالم الحرم، يقول محمد بن إسحاق: «فخرج... لا يمر إبراهيم عليه السلام بقريته من القرى إلّا قال: يا جبرئيل أبهذا أمرت؟ فيقول له جبرئيل عليه السلام: أمضه حتى قدم

الحجر الأسود

مكة وهي إذ ذاك عضاء من سلم وسمر، وبها ناس يُقال لهم العماليق خارجاً من مكة فيما حولها، والبيت يومئذ ربوة حمراء مدرّة. فقال إبراهيم عليه السلام لجبرئيل: أها هنا أمرت أن أضعهما؟ قال: نعم! قال: فعمد بهما إلى موضع الحجر فأنزلهما فيه، وأمر دو فصلنامه «مقات الحج»، ص: ١٤٤

هاجر أم اسماعيل أن تتخذ فيه عريشاً ثم قال: ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع (١) ثم انصرف إلى الشام وتركهما عند البيت الحرام (٢)، في رعاية الله ورحمته.

وقال ابن جريج: «وبلغني أن جبرئيل عليه السلام حين هزم بعقبه في موضع زمزم قال لأم اسماعيل: ... وأشار لها إلى موضع البيت - هذا أول بيت وضع للناس، وهو بيت الله العتيق، وأعلمني أن إبراهيم واسماعيل يرفعانه للناس ويعمرانه فلا يزال معموراً، محرماً، مكرماً إلى يوم القيامة، ويضيف ابن جريج: أن أم اسماعيل ماتت قبل أن يرفعه إبراهيم وإسماعيل، ودُفنت في موضع الحجر» (٣).
زواج إسماعيل عليه السلام وولايته أبنائه الكعبة

ليس من المحتم أن ندرّك حكمه الله تعالى للوهلة الأولى، فقد يأمر الله أمراً يبدو في الظاهر غير مناسب، ولكن مناسسته وأهميته تظهر أخيراً، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحالة الإنسانية، إلى استعجال الإنسان في الأمور وطلب الحقيقة فوراً دون تأنن، قال تعالى: خلق الإنسان من عجل ساريكم آياتي فلا تستعجلون (٤).

وهذا ما حدث لهاجر زوجة النبي إبراهيم عليه السلام المؤمنة بالله الطائعة لأمره وأمر نبيه، والدة اسماعيل عليه السلام الحليم الممثل لأوامر الله تعالى، وصاحب تلك الاطاعة المثالية في الذبح وبناء الكعبة وغيرها من الأمور... ولمثالية النبي اسماعيل عليه السلام وسلوكه القويم منحه الله تعالى ولاية أقدس بقعة من بقاع الأرض، وأحبها إلى الله، الكعبة الشريفة ومن بعده ولاية أبنائه عليها...

وإذا رجعنا إلى قصة إبراهيم عليه السلام وزوجه هاجر ووحيدهما اسماعيل عليه السلام والمكان المقفر الذي أنزلوا فيه، فس نجد الحكمة والموعظة والمعجزة.

لقد استجاب النبي إبراهيم عليه السلام لأمر ربه الكريم، إذ أخذ هاجر وطفلها الرضيع اسماعيل من الشام إلى أرض قفراء خالية بعيدة عن العمران، ولا ماء ولا غداء،

١- إبراهيم: ٣٧.

٢- أخبار مكة، الأزرقى ١: ٥٤.

٣- المصدر السابق: ٥٦.

٤- الأنبياء: ٣٧.

ص: ١٤٥

فأنزلهما وقفل راجعاً، تبعته هاجر ملتاعاً وقالت له، إلى أين تذهب؟ ولمن تتركنا بهذا الوادى الموحش المقفر؟ قالت له ذلك مراراً خائفه وجله، مستعطفه، وهو يمضى فى سبيله، عندئذ قالت: الله آمرِك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا الله، وحسن ظنها وإيمانها بالله تعالى طمأن قلبها، وقيل: إن جبرئيل عليه السلام طمأن قلبها، أن أخبرها أن هذا المكان سيكون مكان خير وبركة ومهوى الأفتدة. وقد خطه الله تعالى لها ولائنها أن جعل البركة فى إسماعيل وحيدها، وجعله أمة، وجعل ذلك المكان المقفر تهوى إليه أفتدة الناس، وجعل الخير والبركة والأمن والأمان فيه.

عن ابن عباس قال: لما أخرج الله تعالى ماء زمزم لأم إسماعيل، فبينا هى على ذلك إذ مرَّ ركب من جرهم قافلين من الشام فى الطريق السفلى فرآى الركب الطير على الماء، فقال بعضهم: ما كان بهذا الوادى من ماء ولا أنيس، يقول ابن عباس: فأرسلوا رجلين لهم حتى أتيا أم إسماعيل فكلماها ثم رجعا إلى ركبهما، فأخبراهم بمكانها، قال: فرجع الركب كلهم حتى حيوها فردت عليهم وقالوا: لمن هذا الماء؟

قالت أم إسماعيل: هو لى، قالوا لها: أتأذنين لنا أن ننزل معك عليه؟ قالت: نعم! (١) ويضيف ابن عباس قائلاً: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: القى ذلك أم إسماعيل وقد أحببت الأنس بهم، فنزلوا وبعثوا إلى أهاليهم، فقدموا إليهم وسكنوا تحت الدوح، واعتشوا عليها العرش فكانت معهم هى وابنها، حتى ترعرع الغلام وأنفسوا فيه وأعجبهم، وتوفيت أم إسماعيل، فلما بلغ أنكحوه جارية منهم (٢).

وقد ذكر المفسرون والمؤرخون، أن إسماعيل عليه السلام طلق زوجته الأولى (تلك الجارية) بطلب من إبراهيم عليه السلام (٣)، وتزوج بأخرى بنت مضاض بن عمرو الجرهمى، فولدت له اثنى عشر رجلاً. وقد ذكرت أسماؤهم وأحوالهم فى كتب الصحاح وأخبار مكة وغيرها من كتب الخاصة والعامه. وجاء ما يشابه ذلك من الأسماء فى التوراه. والذى يهمننا من ولد إسماعيل عليه السلام «نابت» و«قيدار» كبار ولد

١- ١ أخبار مكة، الأزرقى ١: ٥٧، وصحيح البخارى، عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وآله.

٢- ٢ المصدر نفسه.

٣- ٣ انظر، الأزرقى، أخبار مكة، ج ١، وكتب الصحاح، وتفاسير القرآن الكريم، والتوراه، سفر التكون وفى التوراه جاءت قصة إسماعيل وهاجر مع زيادات ونقصان كثير وكذب وتحريف أشهر من نارٍ على علم.

ص: ١٤٦

اسماعيل ومنهما نشر الله العرب، وبعد وفاة اسماعيل عليه السلام تولى نابت إمارة البيت المعمور، وبعد أن توفي نابت بن اسماعيل عليه السلام ولّى أمرها - أمر الكعبة - جده لأمه (مضاض بن عمرو الجرهمي) وضمّ بنى نابت وبنى اسماعيل عليه السلام إليه فصاروا مع جدهم أبى أمهم ومع أخوالهم من جرهم.

وهكذا توارث آل اسماعيل (وهم فى الحقيقة آل ابراهيم عليه السلام) الكعبة البيت الحرام. وهكذا كرم الله تعالى ابراهيم واسماعيل عليهما السلام.

جرهم وولايتها الكعبة

بعد وفاة اسماعيل عليه السلام وابنه نابت نصبت قبيلة جرهم (الحارث بن مضاض بن عمرو الجرهمي) (١) ملكاً عليهم، وفى نفس الوقت ضمنت قبيلة قظورا (وهم من العماليق) من اليمن إلى مكة فولوا عليهم (السميدع) (٢) ملكاً، فلما نزلوا مكة رأوا بلداً طيباً وماءً وشجراً فأعجبوا بها، فكان الحارث بن مضاض ومن معه قد نزلوا أعلى مكة وقعيقعان، ونزل السميدع ومن معه أسفل مكة وأجيادين، وكان (الحارث) يعشّر (٣) من دخل مكة من أعلاها، وكان السميدع يعشّر من يدخل مكة من أسفلها، لا يدخل واحد منهما على صاحبه فى ملكه، ثم إن جرهماً وقظوراً بغى بعضهم على بعض وتنافسوا الملك بها واقتتلوا بها حتى نشبت الحرب بينهم على الملك وولاء الأمر بمكة، وصارت ولاية البيت إلى العماليق، ثم كانت لجرهم عليهم، وأقامت جرهم بولاية البيت نحو ثلاثمائة سنة، وكان آخر ملوكهم الحارث ابن مضاض الأصغر بن عمرو بن الحارث بن مضاض الأكبر وزادوا فى بناء البيت، ورفعته على ما كان عليه من بناء ابراهيم واسماعيل عليهم السلام (٤).

وقال ابن اسحاق: ثم نشر الله تعالى بنى اسماعيل بمكة، وأخوالهم من جرهم إذ ذاك الحكام بمكة وولاء البيت، كانوا كذلك بعد نابت بن اسماعيل عليه السلام، فلما ضاقت عليهم مكة وانتشروا بها، انبسطوا فى الأرض وابتغوا المعاش والتفصح فى الأرض، فلا يأتون قوماً ولا ينزلون بلداً إلا أظهرهم الله عزوجل عليهم بدينهم فوطئوهم،

١-١ قال الأزرقى ونصبت قبيلة جرهم مضاض بن عمرو فى أخبار مكة، أما المسعودى فقد ثبتّ عنده أنه الحارث بن مضاض فى مروج الذهب ٢: ٥٤.

٢-٢ السميدع: هو ملك العماليق، وهو ابن هوبر بن لاوى بن قيطور بن كركر بن حيدلا، مروج الذهب، المصدر السابق.

٣-٣ التعشير: هو ضريبة تعادل عشر قيمة البضاعة يدفعها المار من الناس والتجار لسيد الأرض، مروج الذهب، المصدر السابق.

٤-٤ انظر أخبار مكة، للأزرقى ١: ٩٠-٩٣ منشورات الشريف الرضى، ومروج الذهب ٢: ٥٤.

ص: ١٤٧

وغلّبوهم عليها حتى ملكوا البلاد ونفوا عنها العماليق، ومن كان ساكناً بلادهم التي كانوا اصطالحوا عليها من غيرهم، وجُرهم على ذلك بمكة ولاه البيت لا ينازعهم إياه بنو اسماعيل لخؤولتهم وقرباتهم وإعظام الحرم أن لا يكون به بغى أو قتال (١). أما المسعودي فيقول: «وكثر ولد إسماعيل وصاروا ذوى قوة وَمَنْعَهُ فغلّبوا على أخوالهم جُرهم وأخرجوهم من مكة، فلحقوا بجُهيئة، فأتاهم فى بعض الليالى السيل فذهب بهم، وكان الموضع يُعرف (بياضم) وقد ذكر ذلك أمية بن أبى الصلت الثقفى فى شعر له فقال: وجُرهم دفنوا تُهامه فى الدهر فسالت بجمعهم إضْم (٢) خُزاعه وولاية الكعبة

حكمت جُرهم فترة طويلة فى مكة كما ذكرنا سابقاً مع ولايتها على الحرم والكعبة «ولما طالت ولايتهم استحلوا من الحرم أموراً عظماً، ونالوا ما لم يكونوا ينالون، واستخفوا بحرمه الحرم، وأكلوا مال الكعبة الذى يُهدى إليها سِراً وعلانية، وكلّمَا عدا سفيه منهم على منكر وجد من أشرفهم مَنْ يمنعه ويدفع عنه، وظلموا من دخلها من غير أهلها» (٣). ويذكر المؤرخون والرواة أن جرهماً بعد أن صاروا أكثر سُكّان مكة رجالاً وأموالاً وسلاحاً وأعزهم عزة، طغوا وتنازعوا أمرهم بينهم واختلفوا، وضعفوا بعد ذلك، فقام (مضاى بن عمرو بن الحارث بن مضاى الجُرهمى) ناصحاً لهم (٤). ولم ينفع النصح فيهم، فدخل عمرو بن عامر نازحاً من اليمن مع أهله وأمواله وكاهنة لهم تُدعى (طريفه الكاهنة) مُطاع أمرها عندهم، فكانوا لا يطأون بلداً إلا غلبوا عليه وقهروا أهله حتى قاربوا مكة واقتتلوا مع جُرهم ثلاثة أيام فانتصروا وانهزمت جُرهم، فلم ينفلت منهم إلا الشريد، وكان مضاى بن عمرو ابن الحارث قد اعتزل جرهماً ولم يعن فى ذلك، فرحل هو وولده وأهل بيته حتى

١-١ انظر أخبار مكة، ١: ٨٠-٩٠.

٢-٢ مروج الذهب ٢: ٥٥.

٣-٣ أخبار مكة ١: ٩٠.

٤-٤ يذكر الأزرقى خطبته لهم فى كتابه أخبار مكة ١: ٩٠-١٠٣.

ص: ١٤٨

نزلوا قنونا وحلى أودية على ساحل البحر الأحمر.

وتشتت جُرحهم، وفُتيت البقية الباقية بالسيف، وجاء دور خزاعة في ولاية الكعبة، فحازت أمر مكة وصاروا أهلها، وجاءهم بنو اسماعيل فسألوا السكنى مع خزاعة فأذنوا لهم. فلما رأى ذلك (مضاض بن عمرو بن الحارث) أرسل خزاعة يستأذنها في الدخول عليهم والنزول معهم بمكة في جوارهم ومثَّ إليهم برأيه وتوديعه قومه عن القتال وسوء السيرة في الحرم واعتزاله الحرب، فأبت خزاعة أن تقررهم وفتتهم عن الحرم كله ولم يتركوهم ينزلون معهم، فقال عمرو بن لحي وهو ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر لقومه: من وجد منكم جرهمياً قد قارب الحرم فدمه هدر (١).

وبذلك سيطرت خزاعة على مكة وأخرجت جرهماً منها وفتتهم عن آخرهم الى اليمن، وحزنت جرهم حزناً شديداً، وندموا على ما فعلوا في مكة ندماً ذريعاً وبكوا على مكة وألفوا الأشعار فيها (٢).

هذا... وحازت خزاعة ولاية البيت الحرام والكعبة الشريفة، وحُكم مكة، ثلاثمائة عام، وقد تعرضت مكة إلى عدوان أرادوا تخريبها وهدمها، ودافعت خزاعة دفاعاً عظيماً، وقاتلت دونها قتالاً شديداً... وقيل: إن عمرو بن لحي الخزاعي كان يلي البيت وولده بعده خمسمائة سنة حتى كان آخرهم حليل بن حبشه بن سلول بن كعب بن عمرو، الذي تزوج قصي بن كلاب ابنته «حبي» (٣).

وقال المسعودي: كان أول من ولي البيت من خزاعة عمرو بن لحي، واسم لحي حارثة بن عامر، فغُير دين إبراهيم وبَدَله، وبعث العرب على عبادة التماثيل، حين خرج إلى الشام ورآى قوماً يعبدون الأصنام، فأعطوه منها صنماً فنصبه على الكعبة، وقويت خزاعة، وعمَّ الناس ظلم عمرو بن لحي (٤).

ولمَّا أكثر عمرو بن لحي من نصب الأصنام حول الكعبة، وغلب على العرب عبادتها، وانمحت الحنيفية منهم إلالمعاً، قال في ذلك شحنة بن خلف الجرهمي:

١-١ المصدر نفسه.

٢-٢ أخبار مكة ١: ١٠٥.

٣-٣ المصدر نفسه.

٤-٤ مروج الذهب، المسعودي ٢: ٦١.

ص: ١٤٩

يا عمرو، إنك قد أحدثت آلهة شتى بمكة حول البيت أنصبا

وكان للبيت ربٌّ واحدٌ أبداً فقد جعلت له في الناس أربابا

لتعرفنَّ بأنَّ الله في مهَل سيطفى دونكم للبيت حُجَّابا (١)

ولاية قصي بن كلاب الكعبة

تذكر كتب التاريخ عن قصي عندما توفي والده كلاب كان طفلاً رضيعاً فتزوجت أمه (فاطمة بنت عمرو) ربيعة بن حزام، فخرجت معه من مكة إلى بلاده أرض عذرة من أشرف الشام وحملت معها قصياً لصغر سنه، فولدت من ربيعة «رزاح» (٢) ولما شب قصي حدث بينه وبين رجل من قضاة شيء، فقال له القضاة: ألا تلحق بنسبك وقومك فإنك لست منا؟ فرجع قصي إلى أمه وقد وجد في نفسه مما قال له القضاة، فسألها عما قال له، فقالت: والله أنت يا بني خيرٌ منه وأكرم، أنت ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وقومك عند البيت الحرام وما حوله. فأجمع قصي للخروج إلى قومه واللحاق بهم وكره العربة في أرض قضاة (٣).

دخل قصي مكة في شهر الحج أحد الأشهر الحرم، وكان رجلاً جليداً حازماً بارعاً، فلما أنهى حجه دخل على حليل الخزاعي خاطباً ابنته «حُبي»، فلما عرف حليل نسب قصي رغب فيه وزوجه، وحليل يومئذ ولي أمر الكعبة ومكة. ولما حضرت حليل الوفاة نظر إلى قصي والى ما انتشر له من الولد من ابنته، فرآى أن يجعل إمارة الكعبة وحكمها في ولد ابنته فدعا قصياً، فجعل له ولاية البيت وسلّم إليه مفتاح الكعبة (٤).

وقال حليل لقصي: إنها لا تقوم بفتح الباب وغلقه (٥)، فجعل ولاية البيت إليها وفتح الباب وغلقه إلى رجل من خزاعة يُعرف بأبي غبشان الخزاعي، فباعه أبو غبشان إلى قصي ببيعير وزق خمر، فأرسلت العرب ذلك مثلاً، فقالت: «أخسر من صفقة أبي غبشان» وفي بيعه لولاية البيت ببيعير وزق من الخمر، ونقله ولاية

١-١ المصدر السابق.

٢-٢ انظر أخبار مكة، الأزرقى ١: ١٠٤.

٣-٣ المصدر نفسه.

٤-٤ المصدر السابق ١: ١٠٧.

٥-٥ أي «حُبي» لأن فتح الباب وغلقه تحتاج إلى قوة رجل أما الولاية فلها بالوراثة.

ص: ١٥٠

البيت من قومه من خُزاعةٍ إلى قُصي بن كلاب، يقول الشاعر:

أبو غبشان أظلم من قُصيٍّ وأظلم من بني فُهرٍ خُزاعةٍ

فلا تلحوا قُصيًّا في شِراهُ ولو مَوا شيخكم إذ كان باعاً (١)

ولما مات حليل الخزاعي، أبت خُزاعةٌ أن يكون قُصي ولي أمر الكعبة ومكة المكرمة، فأخذت المفتاح منه، فاستنصر قُصي قريشاً وبني كنانة فاجابوه إلى النصر، وأرسل إلى أخيه لأمه «رزاح» فخرج رزاح واخوته لأبيه في حاج العرب مجتمعين لنصر قُصي والقيام معه، فلما كان آخر أيام منى أرسلت قُصيعة إلى خُزاعة يسألونهم أن يسلموا إلى قُصي ما جعل له حليل، وعظموا عليهم القتال في الحرم، وخذروهم الظلم والبغى بمكة، وذكرهم ما كانت فيه جُرمهم، وما صارت إليه حين ظلموا وبغلوا فيها، فأبت خُزاعة ذلك واقتتلوا قتالاً شديداً. آل الأمر بالنهاية أن يحكموا لقُصي بحجابه الكعبة وولايته أمر مكة وأسلمت خُزاعة لقُصي، وتملك على قومه فملكوه، وكان قُصي أول رجل من بني كنانة أصاب ملكاً وأطاع له به قومه، فكانت له الحجابه، والرفاده، والسقايه، والندوة، واللواء، والقيادة.

وجمع قريشاً بمكة وسُمي بذلك مجمعاً أو قريشياً (٢). وقُصي الجد الخامس للنبي محمد صلى الله عليه وآله وهو من بني اسماعيل النبي عليه السلام بن إبراهيم الخليل عليه السلام (٣).

وقد كانت ولاية البيت في خُزاعة ثلاثمائة سنة، واستقام أمر قُصي، وعشر من دخل مكة من غير قريش، وبني الكعبة، ورتب قريشاً على منازلها في النسب بمكة، وبين الأبطحي من قريش، وهم الأباطح، وجعل الظاهري ظاهرياً (٤).
ظهور قريش واستيلائها على الكعبة

ظهرت قريش في عهد قُصي كما ذكرنا، وكان السبب في تسميتهم لأن تفسير ذلك الأمن، وتقرّشت، والتقرش: الجمع، ومنه قول ابن جُلزّة اليشكري:

إخوة قَرَشوا الذُّنوب علينا في حديث من دَهَرنا وقديم (٥)

١-١ مروج الذهب، المسعودي ٢: ٦٣.

٢-٢ أخبار مكة ١: ١٠٧.

٣-٣ معجم الحضارات السامية: ٦٨٨.

٤-٤ مروج الذهب: ص ٦٣.

٥-٥ مروج الذهب ٢: ٦٥.

ص: ١٥١

وكانت قريش قبائل متفرقة جمعها قصى بن كلاب، فسميت قريشاً، فالتجمع في بعض كلاب العرب يعنى القرش، ويُقال: كان يُقال لقصى القرشى ولم يسم قرشى قبله، ويُقال أيضاً: إن النضر بن كنانة كان يُسمى القرشى وقد قيل: إنما سميت قريشاً لأنها كانت تجاراً تكتسب وتتجر وتحترش فشبهت بحوت في البحر تسمى «قريشاً» (١).

وظهرت قريش على ساحة مكة، فلما حاز قصى بن كلاب شرف مكة، وأنشأ دار الندوة، كانت قريش تقضى فيها أمورها، ولم يكن يدخلها من قريش من غير ولد قصى إلا ابن أربعين للمشهوره، وكان يدخلها ولد قصى كلهم، وحلفاؤهم، فلما كبر قصى ولى ولده عبدالدار وعبدمناف أمور الكعبة، فأعطى عبدالدار السدانة وهي الحجابة، ودار الندوة، واللواء، وأعطى عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة.

وبعد وفاة عبدالدار جعل الحجابة بعده إلى ابنه عثمان بن عبدالدار، وجعل دار الندوة إلى ولده عبدمناف بن عبدالدار، ثم ولى أمورها عامر بن هاشم بن عبدمناف بن عبدالدار وجاء بعده عثمان، ثم وليها عبدالعزيز بن عثمان بن عبدالدار، ثم وليها طلحة بن عبدالله بن عبدالعزيز، ثم وليها ولده حتى كان فتح مكة، فقبضها رسول الله محمد صلى الله عليه وآله بن عبدالله بن عبدالمطلب (٢) وحطم أصنام الكعبة وولى الأمور كلها؛ ليعيد الحج الإبراهيمي الأصيل فيها بعد أن حُرّف الحج وتغيرت معالمه. عبادة الأصنام في الكعبة الشريفة

اتفق المؤرخون والرواة، أن أول من نصب الأصنام في الكعبة «عمرو بن لحي» وهو ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر، وهو خُزاعي، وقد نقل فكرة الوثنية من بلاد الشام التي زارها، ورأى وثنية أهلها، فتأثر بها وغيب معالم التوحيد ودّس البيت الحرام. وجاء بالصنم الكبير «هبل» من هيت (٣)، من

١-١ أخبار مكة ١: ١٠٩.

٢-٢ المصدر السابق: ١١٠.

٣-٣ هيت: بلدة في العراق.

ص: ١٥٢

أرض الجزيرة فنصبه في بطن الكعبة، فكانت قريش والعرب تستقسم عنده بالأزلام، وهو أول من غير الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام وولده إسماعيل وكان أمره «عمرو» بمكة في العرب مطاعاً لا يُعصى له أمر، وقد ذكرنا سابقاً أنه زعيم خزاعة، وانتصرت بقيادته على قبيلة جُرهم، وبلغ بمكة وفي العرب من الشرف ما لم يبلغ عربى قبله ولا بعده في الجاهلية.

ذكر الأزرقى في أخبار مكة عن هذا الرجل وتأكيده على الأصنام قائلاً: «إن جرهماً لما طغت في الحرم، دخل رجل منهم بامرأة منهم الكعبة ففجر بها، ويقال إنما قبلها فيها فمسحوا حجرتين اسم الرجل أساف بن بغاء، واسم المرأة نائلة بنت ذئب، فأخرجوا من الكعبة، فنصب أحدهما على الصفا والآخر على المروة، وإنما نصبا هنالك ليعتبر بهما الناس، ويزدجروا عن مثل ما ارتكبا... فلما كان عمرو بن لحي (قد ولي الكعبة) أمر الناس بعبادتهما والتمسح بهما» (١) (٢).

وظلّ الحجاج من أهل مكة ومن غيرهم يعبدون هذين الصنمين المذكورين، ويتمسكون ويتمسحون بهما ويقدمون لهما النذورات والذبائح وينحرون لهما حتى جاء قصي بن كلاب، فصارت إليه الحجابة وأمر مكة، فنقلهما من الصفا والمروة، وجعل أحدهما بلصق الكعبة، وجعل الآخر في موضع زمزم، وكان أهل الجاهلية يمرون بأساف ونائلة ويتمسحون بهما، وكانوا إذا طافوا بالبيت يبدأون بأساف فيستلمه الحاج، فإذا فرغ من طوافه ختم بنائلة فاستلمها، فكانا كذلك حتى كان يوم الفتح، فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله، فكثيرهما، وحين دخل الرسول صلى الله عليه وآله والمسلمون فاتحين مكة المكرمة، كان عدد الأصنام فيها وقد كسرها جميعاً رسول الله صلى الله عليه وآله «ثلاثمائة وستين صنماً» (٣).

وفي ذلك يقول فضالة بن عمير بن الملوح الليثي في ذكر يوم الفتح:

أوما رأيت محمداً وجنوده بالفتح يوم تكسر الأصنام؟!

١- ١ انظر أخبار مكة ١: ١١٩-١٢٠.

٢- ٢ وذكر المسعودي في مروج الذهب ٢: ٥٥، الخبر نفسه وأضاف وقيل: بل هما حجران نحتا ومثلاً بمن ذكرنا وسميا بأسمائهما أساف ونائلة.

٣- ٣ أخبار مكة ١: ١٢١.

ص: ١٥٣

لرأيت نور الله أصبح بيننا والشرك يغشى وجهه الاظلام (١)

حادثتا (تبع) و (الفيل) ومنزلة الكعبة

للکعبة الشریفه منزله عظیمه عند الله تعالى، فقد حفها برعايته، وخصيها بكرامات سجلها التاريخ، منها صيانتها من الشر والخراب، فقد تشتت قوم جرهم لظلمهم فيها وطغيانهم، وخزاعه هي الأخرى، وكذلك قريش وكل من يحاول الاعتداء عليها أو الاستخفاف بها، فقد قضت حرمة الكعبة على قوم تبع وأصحاب الفيل، أما تبع فهو اسم لأحد ملوك اليمن، والتبابعة لقب ملوك اليمن، وكان للتبابعة دولة وصوله في اليمن وغيره، وكانوا أحسن حالاً وأكثر مالاً من قريش، ولما عتو عن أمر ربهم أخذهم بالهلاك والدمار.

قال تعالى: أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين (٢)

والتبابعة الذين أرادوا هدم الكعبة وتخريبها ثلاثه، وقد كان قبل ذلك منهم من يسير في البلاد، فإذا دخل مكة عظم الحرم والبيت. وتبع الثالثه التي صممت على هدم البيت الحرام كانت بالدف من جمدان بين أمج وعسفان، دفت بهم دوابهم، وأظلمت الأرض عليهم، فدعا- تبع ملكهم- أبحاراً كانوا معه من أهل الكتاب، فسألهم فقالوا: هل هممت لهذا البيت بشيء؟ قال: أردت أن أهدمه. قالوا: فانو له خيراً أن تكسوه، وتنحر عنده، ففعل، فانجلت عنهم الظلمة (وإنما سمي الدف من أجل ذلك)، فسار وتكررت الحاله ثلاث مرات، فقال الأبحار له: والله ما أرادت هذيل (٣) في دفعك بهذا إلهلاكك وهلاك قومك، إن هذا بيت الله الحرام ولم يردده أحد قط بسوء إلهلك... فضرب تبع اعناق الهذليين وصلبهم، فرآى في المنام أنه يكسى الكعبة، فكساها كسوة كامله، كساها العصب، وجعل لها باباً يُغلق بضمه فارسيه. قال ابن جريج: كان تبع أول من كسا البيت كسوة كامله (٤).

١-١ المصدر نفسه.

٢-٢ الدخان: ٣٧.

٣-٣ هذيل: قبيلة عربيه كبيره قطنت شمالي الجزيره، فريق منهم حث تبعاً على هدم الكعبة حسداً لقريش على ولايتها البيت. لكنهم

دافعوا عن الكعبة وقاتلوا قتالاً شديداً حينما هم إبرهه الحبشي بهدم الكعبة، انظر معجم الحضارات الساميه هنري س. عبودي: ٨٨٢.

٤-٤ أخبار مكة ١: ١٣٣-١٣٤.

ص: ١٥٤

وقد جاء في الحديث عن الرسول صلى الله عليه وآله قال: «لا تسبوا تبعاً فإنه قد أسلم» (١).
وروى عن الصادق عليه السلام قال: «إن تبعاً قال للأوس والخزرج: كونوا هاهنا حتى يخرج هذا النبي، أما أنا فلو أدركته لخدمته
وخرجت معه» (٢).

هذا ما كان لقوم تبع، أما قوم إبرهه الأشرم أو الحيشى (أصحاب الفيل) فقد ذكرهم القرآن الكريم وكيفية هلاكهم عن آخرهم نتيجة
ما كانوا يكيّدون للكعبة وتدميرها، وملخص ما جاء من أمرهم في تفاسير القرآن الكريم: أن الأحباش بعد أن انتصروا على ملك
اليمن، وتسلب إبرهه الأشرم على اليمن، بنى القليس بناءً من الذهب والفضة محكماً يضاهى الكعبة، ودعا الناس للحج إليه بدل الكعبة،
وانتشر خبره في العرب، فدعا رجل من بنى مالك بن كنانة رجلين من العرب ليذهبا ويحدثا فيه، فدخل إبرهه البيت فرآى أثرهما فيه،
فغضب وأقسم على هدم الكعبة، وتخريبها، فسار مع جيشه يتقدمهم فيل أو أكثر حتى وصلوا إلى مكان بالقرب من مكة يُقال له:
«المغمس» فنزلوا فيه، وأرسل إبرهه إلى قريش من يخبرهم بأنه لم يأت لحربهم، وإنما لهدم البيت والحرم، فإن لم يعرضوا له بحرب
فلا حاجة له بدمائهم. وما أن هم إبرهه بهدم البيت أرسل الله عليه وعلى جيشه أسراباً من الطير ترميهم بحصى صغيرة لا تصيب أحداً
منهم إلّا هلك، ومات وتناثر لحمه، فدعر الجيش وصاحبه، وفرّوا هاربين ومات إبرهه بعد أن وصل صنعاء، وسقط لحمه قطعة قطعة إلى
أن انتهى (٣).

قال تعالى: ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل* ألم يجعل كيدهم في تضليل* وأرسل عليهم طيراً أبابيل* ترميهم بحجارة من
سجيل* فجعلهم كعصفٍ مأكول (٤).

يقول د. طه حسين في كتابه «مرآة الإسلام»: «وفي هذه الموقعة أظهر عبدالمطلب من الصبر والجلد، ومن الشجاعة والثقة ما لم يظهره
غيره من أشراف

١-١ الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي ١٨: ١٥٤.

٢-٢ المصدر نفسه.

٣-٣ انظر الكاشف ٧: ٦٠٩-٦١٠، والميزان، ومروج الذهب ٢، وأخبار مكة ١: ١٣٤-١٥٤، والطبرى وغيرها من كتب التاريخ
والتفسير.

٤-٤ الفيل: ١-٥.

ص: ١٥٥

قريش، ذلك أنه قد أشار على قريش أن تخلى مكة، فسمع له قومه، وأقام هو بمكة لم يعتزلها، وإنما أقام عند الكعبة يدعو الله ويستنصره. ويقول الرواة: إن الجيش أغار على إبل قريش فاحتازها، وجاء عبدالمطلب إلى إبرهه، ولما دخل عليه لم يكلمه إلا فني إبل له، فصغر في نفس إبرهه وقال له: كنت أظن أنك تكلمني في شأن مكة، وشأن هذا البيت الذي تعظمونه. قال عبدالمطلب: إني أكلمك في مالي الذي أملكه، أما البيت فإن له رباً يحميه إن شاء. فأرسل الله على إبرهه وجيشه من تلك الطير، التي ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كصعفٍ مأكول، وعادت قريش مكة، فازداد إكبارهم لعبدالمطلب وشجاعته وثقته وثباته» (١).

وبذلك حمى الله تعالى بيته من إبرهه ومن كل من نوى لها بسوء. وهكذا صمدت الكعبة الشريفة في وجه أكبر الصدمات التاريخية حيث فشلوا في خرابها والقضاء عليها.

بعثه محمد صلى الله عليه وآله وفريضة الحج

ولد محمد بن عبد الله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف بن قصي بن حكيم (كلاب) بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أدد، وينتهي نسبه الشريف إلى اسماعيل بن إبراهيم عليهم السلام (٢)، ولد في مكة في اشرف بقاع العالم ولم يلد نبي قبله ولا بعده - حسب اطلاعنا - في هذه البقعة المباركة الشريفة إلهو، وقد شرفه الله تعالى وكرمه وجعله سيد البشر وسيد الأنبياء وخاتمهم وجعل تابعيه «خير أمة أخرجت للناس، وبعثه في عامه الأربعين في محل ولادته نبياً عالمياً للناس كافة، قال تعالى:

وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٣)

بعث النبي صلى الله عليه وآله في قوم يعبدون الأصنام في البيت الحرام، وكانت أصنامهم

١- ١ نقله محمد جواد مغنیه في تفسير الكاشف ٧: ٦١٠، عن مرآة الاسلام، د. طه حسين.

٢- ٢ الاعلام، الزركلي.

٣- ٣ سبأ: ٢٨.

ص: ١٥٦

أساس الحياة خصوصاً عند قريش زعيمة العرب في مكة آنذاك، إذ كانت القرابين تقدم لهذه الأصنام، وفي ذلك كانت مصلحة اقتصادية وأدبية لقريش التي كانت تحمي الدار، فالقضاء على «الدين الوثني» يعنى القضاء على منافع قريش وزعامتها. لذلك كانت مهمة رسول الله صلى الله عليه وآله في نشر الدين الجديد مهمة شاقّة جداً، كمهمة أبيه إبراهيم عليه السلام، فقد ندد بالوثنية والمعتقدات التي لا تتلاقى مع وحدانية الله، وأظهر فساد نظمهم الاجتماعية، مما أثار غضب قريش عليه ومقاومتها إياه مقاومة شديدة حتى قال صلى الله عليه وآله: «ما أودى نبى مثل ما أوديت».

ومضى محمد صلى الله عليه وآله يواصل الدعوة بثقة، ومضت الصفوة من الدعوة تواصل السير معه وترسم خطاه المباركة، وقد أعى قريشاً إصراراً محمد صلى الله عليه وآله وأصحابه على تحديها فراحت تجد في تحطيم دعوته وتعذيب المؤمنين به، مما اضطره إلى الهجرة بعد أن هاجر مئتا مسلم بإذن منه صلى الله عليه وآله قبله بشهرين، قسم منهم هاجر إلى الحبشة، وقسم آخر إلى المدينة. ثم استقر الجميع في المدينة المسماة «يثرب» (١) قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وآله وبهجرتة إليها تشرفت باسم «مدينة الرسول». وحين وصول النبي الأكرم إليها شرع ببناء الدولة الإسلامية حيث توفرت له عناصرها - الأرض، الأمة، السلطة السياسية المتمثلة بقيادته الحكيمة - فأسس المسجد؛ ليكون منطلقاً للقيادة ومركزاً لبناء الدولة إلى جانب مهام المسجد العبادية والفكرية، وقد تمثل بناء الدولة في الخطة الحكيمة التي وضعها رسول الله في بناء الجبهة الداخلية بمؤاخاة المهاجرين والأنصار، والمساواة في الحقوق والواجبات بمختلف قبائلهم، وعقد معاهدة مع اليهود بعدم الاعتداء، ثم تكوين الجيش المسلم والقوة المسلحة والجهاد في سبيل الله، وبناء جهاز إداري متين، وعلاقات خارجية ببعث رسائل إلى بعض الملوك والحكام وغيرها من الأمور. والذي يهمنا هنا أن الرسول صلى الله عليه وآله أصبح قوة لا تستطيع قريش مقابلتها، فجهّز

١-١ يثرب: مدينة زراعية تقع على بُعد أربعمئة وخمسين كيلومتراً إلى الشمال من مكة المكرمة.

ص: ١٥٧

جيشاً من عشرة آلاف مقاتل وسار سراً لياغت قريشاً، وليصادر إمكانية الدفاع من يدها، ولثلاثين يقع قتال في مكة الأمن والسلام. وتحرك جيش محمد صلى الله عليه وآله صوب مكة في العاشر من رمضان سنة ثمان للهجرة، واستخدم حرباً نفسية بإشعاله النيران في الصحراء على مقربة من مكة؛ ليشعر قريشاً بقوة الجيش الإسلامي، ويثير الرعب في نفوس طغاتها، ويحملهم على الاستسلام والخضوع من غير قتال (١).

وهكذا دخل رسول الله صلى الله عليه وآله مكة مستخفياً يطارده كفارها - دخل فاتحاً محطماً أعظم حصون الشرك والجاهلية، ولم يستطع الذين حاربوه طوال واحد وعشرين عاماً أن يصمدوا أمام قوة الإيمان الزاحفة، فاستسلموا، وأتوا إليه مذعنين، ودفَعوا إليه الجزية التي فرضها عليهم صاغرين منكسرين.

وبهذا ثبتت الدولة والدعوة وأركانها في الجزيرة وتحقق الفتح المبين، واستلم الرسول صلى الله عليه وآله ولاية الكعبة وحطم أصنامها، وصار يُطافُ بها كما طاف إبراهيم وابنه اسماعيل عليهم السلام من قبل حوالي خمسة آلاف من السنين، واستجبت دعوة إبراهيم عليه السلام: ربِّ وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة (٢).

وأذن محمد صلى الله عليه وآله للناس بالحج، كما أذن جده إبراهيم ودعاهم إليه وعادت مناسك الحج الإبراهيمي كما خطها جبرئيل لإبراهيم عليه السلام بإذن السماء...

الكعبة أحب بقاع الأرض إلى الله

لقد ورد في الروايات الشريفة عن خاتم الأنبياء والرسول محمد صلى الله عليه وآله وعن آله الأطهار: أن أحب بقاع الأرض إلى الله تعالى هي الكعبة الشريفة. إضافة إلى ما أشارت إليه الآيات القرآنية كما ذكرنا سابقاً...

قال رسول الله صلى الله عليه وآله حين هجرته إلى يثرب ملتفتاً وراءه ناظراً إلى الكعبة الشريفة مناجياً إياها: «والله إنك لأحب البقاع إلى الله، ولولا أنني أُخرجت منك

١-١ راجع تاريخ الطبري، ومروج الذهب، وقصة الحضارة وغيرها من كتب التاريخ في فتح مكة.

٢-٢ البقرة: ١٢٩.

ص: ١٥٨

ما خرجت» (١).

وروى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «أحبّ الأرض إلى الله عزّوجلّ مكة، ما تربة أحبّ إلى الله عزّوجلّ من تربتها، ولا حجر أحبّ إلى الله عزّوجلّ من حجرها، ولا شجر أحبّ إلى الله عزّوجلّ من شجرها، ولا جبال أحبّ إلى الله عزّوجلّ من جبالها، ولا ماء أحبّ إلى الله عزّوجلّ من مائها» (٢).

وقال عليه السلام أيضاً: «ما خلق الله تبارك وتعالى بقعة في الأرض أحبّ إليه منها- وأوماً بيده نحو الكعبة- ولا أكرم على الله عزّوجلّ منها، لها حرّم الله الأشهر الحُرّم في كتابه يوم خلق السماوات والأرض» (٣).

وهناك روايات أخرى نستغنى عن ذكرها ونكتفي بما ذكرنا، ويكفي أن نستنتج حبّ الله تعالى للكعبة الشريفة ما يعطى لزايتها وللحاج إليها ... فقد جاء في الصحيح:

«الحاج ثلاث أصناف: صنّف يُعتق من النار، وصنّف يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وصنّف يُحفظ في أهله وماله وهو أدنى ما يرجع به الحاج» (٤).

الحج بين ابراهيم عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله

ومما تقدم يتضح أنّ هناك قاسماً مشتركاً مقدساً بين حجّ أبي الأنبياء الخليل ابراهيم عليه السلام وحجّ خاتم الأنبياء الحبيب محمد صلى الله عليه وآله، قاسماً إلهياً فطرياً صحيحاً...

بعيداً كلّ البعد عن الإضافات البشرية والزوائد واللواحق الخارجة عن الحجّ الحقيقي...

ولكن للزمان معاوله وأنيابه، وللإنسان أهواؤه ورغباته الدنيوية... وقد لعبت في الأصول والمقدسات فحرفتها وأخرجتها في أحيان كثيرة عن خطّها الطبيعي الذي وضعه الله تعالى...

قد شوّه أو حرف هذا الخطّ الإلهي (الحج) كثيرٌ من ولاية الكعبة الشريفة وغيرهم ممن جاؤوا (٥) بعد النبي ابراهيم عليه السلام فجعلوه - الحج - مجرد طقوس

١- ١ أخبار مكة، الأزرقى ١: ٥، ونقلها بعض كتب التفسير منه كالكاشف والميزان وغيرها.

٢- ٢ المحجّة البيضاء، الفيض الكاشاني ٢: ١٥٢، والفقيه: ٢١٥ تحت رقم ٨.

٣- ٣ المصدر السابق نقلًا عن الكافي، الكليني ٤: ٢٥٣، والتهذيب ١: ٢٤٨.

٤- ٤ المصدر السابق نقلًا عن الكافي، الكليني ٤: ٢٥٣، والتهذيب ١: ٢٤٨.

٥- ٥ نقصد بالذين جاؤوا بعد النبي ابراهيم عليه السلام في منطقة الجزيرة من السدنة والولاة والحكام. الأنبياء بعد ابراهيم عليه السلام قد حجوا إليها كما حج ابراهيم عليه السلام.

ص: ١٥٩

خاوية وافعال مادية جسدية محدّدة، وأخرجوه من معناه الروحي والقدسي الذي أراده الله تعالى... فلم تعد الكعبة ذلك الصرح الإلهي العظيم الذي أقامه النبي ابراهيم الخليل عليه السلام ووضع قواعده، والهدف الإلهي الذي استهدفه من تأسيسها...

وانما أصبحت مركزاً ومقراً للأفكار والأوضاع التي حملها العرب في العصر الجاهلي بما يحملون من روح وثنية من خلال إدخالهم الأصنام فيها وعبادتهم لها، والتقرب من خلالها إلى الله زلفاً، أو مركزاً للأعاجم من فرس وغيرهم ممن لم يؤمنوا إيماناً صحيحاً، وإنما جاؤوا لإحياء ذكريات أو لأغراض أخرى غير دينية ولا- إلهية من قبيل التجارة أو الترويح عن النفس، أو لقضاء الحاجة من خلال تقديم النذور والقربان مما ورثوه من عادات وعقائد...

وهكذا ابتعد الحج عن أهدافه السامية الأولى الروحية والمعنوية، وصار مجرد شكل ومظهر مادي لا مضمون فيه ولا روح... وبعث النور الأعظم، النبي محمد صلى الله عليه وآله وغير الدنيا، والمجتمع.. وإذا بالكعبة والحج الأصيل نفسه يعيد مجده السالف التليد الذي أرساه النبي ابراهيم الخليل عليه السلام وأبناؤه وأحفاده المخلصون...

جاء محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله ليضع الحج في موقعه المناسب، الحج الأبدي، ما دام الإنسان حيّاً يجرى على سطح الأرض...

جاء الحج في لمساته الأخيرة ركناً مرتبطاً كامل الارتباط بالخالق البارئ عزّوجلّ، وممتداً امتداداً طويلاً إلى كلّ إنسان يجرى في المعمورة؛ ليصوغ شخصيته اجتماعية تستمد من الحج (ذلك الاجتماع الكبير) شخصيته سوية كسائر الناس، تنظر إلى الآخرين نظرتها إلى نفسها... باعتباره عبداً من ملايين العبيد لله عزّوجلّ...

وهكذا عاد الحج الإبراهيمي على يد رسول الله صلى الله عليه وآله بعد أن ابتعد عن

ص: ١٦٠

ابراهيم عليه السلام رويداً رويداً وخلف عن سلف كما قال تعالى: فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً (١).
الهوامش:

١-١ مريم: ٥٩.

مهمّات مشبوهة في الديار المقدّسة (٥)

ص: ١٦٦

مهمّات مشبوهة في الديار المقدّسة (٥)

حسن السعيد إلى المدينة المنورة

رغم انتهاء موسم الحج، إلّا أنّ بيركهارت اجبر على البقاء في مكّة المكرمة، بسبب الوضع المتقلب في البلاد. وعندما غادر هذا الرحالة السويسري مكّة متوجّهاً إلى المدينة المنورة، التي ظلّت مفتوحةً للزائرين، حتى منع الوهابيون زيارتها.. لكن هذا المنع ألغى نتيجةً لحملة محمد علي باشا. وكان بيركهارت أوّل أوروبي يصل إلى المدينة المنورة، بعد الخطر الوهابي (١).

في منتصف كانون الثاني (يناير) ١٨١٥، غادر بيركهارت مكّة المكرمة على ظهر جمل، في رحلة استغرقت حوالي اسبوعين (٢)، وفي صباح اليوم الثامن والعشرين، من الشهر نفسه، يكون قد وصل المدينة المنورة. ومن سوء حظه أنه وقع مريضاً بمرض البرداء (الملاريا)، حتى أصابه اليأس من نفسه، وظنّ أنه سيقضى نحبّه في المدينة فيقبر فيها.

لكنه مع ذلك استطاع أن يرى أشياء كثيرة من أحوال المدينة وما فيها، بحيث استطاع أن يكتب عدّة فصول عنها، في الجزء الثاني من رحلته

١-١ بلاد العرب القاصية؛ م. س: ١١٥.

٢-٢ صحيفة الحياة؛ م. س.

ص: ١٦٧

(الصفحة: ١٣٨ - ٢٩٢) (١).

بقي في المدينة المنورة ثلاثة أشهر، أمضى منها ثمانية أسابيع في الفراش؛ لذا كتب عن المدينة بطريقة أقل شمولية من كتاباته عن مكة (٢)، بل إن وصفه للمدينة المنورة ناقص وهزيل، بالنسبة لوصفه لمكة وجدة والطائف. كما يقول «برينث»، وهو يعتمد في كثير مما كتبه عن المدينة على السماع، وماجمعه من الأخبار، التي التقطها بدقه وأناة، وهي تأتي بمفهوم جديد بالنسبة للقارئ الأوروبي، ولكن تلك المعلومات ليست مؤسسة على ملاحظاته الشخصية وتجاربه، ومع ذلك فقد كان يتوخى الحقيقة ببرود في أحكامه (٣). وفي البداية، يقول بيركهارت:

إن القافلة التي جاء ضمنها من مكة المكرمة، نزلت في الساحة الكبرى الكائنة في ضاحية المدينة، ووجد له منزلاً بواسطة المزور، وأخذ كالعادة لزيارة الحرم الشريف، فلاحظ أن مراسم الزيارة أقصر وأسهل من مراسم الحج ومناسكه بطبيعته الحال، لكنه لاحظ أن المدينة كان قد احتلها طوسون باشا مؤخراً، وطرد منها الوهابيين، فنفر عنها البدو وأصحاب الإبل، الذين كانوا يأتون إليها بالأقوات والمؤن. فعز فيها الطعام، ولاحظ وخامة الجو فيها كذلك، وطعم الماء المقيت.

ويأخذ بيركهارت بوصف المدينة وموقعها الطبيعي... فيقول:

إنه وجد أسوارها عامرة، بحيث تعدها للدفاع على أحسن وجه بالنسبة لمقاييس تلك الجهات؛ ولذلك كانت المدينة المعقل الرئيسي في الحجاز. وكان السور قد بُني حولها سنة ٣٦٠ للهجرة، ثم أعيد بناؤه بعد ذلك في أوقات مختلفة أخصها سنة ٩٠٠ للهجرة، لكن الخندق كان قد مُدّد حولها سنة ٧٥١. على أن بناءه، بشكله في أوائل القرن التاسع عشر، كان قد تم بأمر من السلطان سليمان القانوني، في نهاية القرن السادس عشر، وهناك أبواب ثلاثة

١- ٣ المدينة في المراجع الغربية؛ م. س، ٣: ٢٤٣.

٢- ٤ صحيفة الحياة؛ م. س

٣- ٥ بلاد العرب القاصية؛ م. س: ١١٥

ص: ١٦٨

جميلة فيه: الباب المصرى فى الجهة الجنوبيه، وهو مع باب الفتوح فى القاهره أجمل الأبواب التى شاهدها بيركهارت فى المدن الشرقيه، والباب الشامى فى الجهة الشماليه، وباب الجمعه فى الجهة الشرقيه، وهناك باب يُسمى «الباب الصغير»، فى الجهة الجنوبيه، كان الوهابيون قد أغلقوه عندما احتلوا المدينه قبل سنوات.

ويقول بيركهارت: إنه شاهد المدينه مبيته بالحجر كلها، وتتألف بيوتها من طابقين بوجه عام ومن سطوح منبسطة.. أما الحارات فيورد أسماءها.. لينتقل إلى الحديث عن ضواحي المدينه المنوره، وأهم الحارات فى تلك الضواحي، والتى لا تخلو من الأماكن التاريخيه، فمثلاً هناك مسجدان فى المناخه، أحدهما يسمى «مسجد على»، ويُقال: إنه قديم منذ صدر الإسلام، لكن بنايته القائمه كانت قد شيدت فى ٨٧٦، والمنقول أن النبي عليه السلام كثيراً ما كان يصلى فيه. ويُسمى المسجد الآخر «جامع عمر» وقد الحقت به مدرسه عامه كانت تستخدم بنايتها مخزناً للذخيره وملجأ لكثير من الجنود.

وبعد أن يصف بيركهارت أشياء اخرى فى المدينه، وأهمها مشروع الماء فيها، يقول: إن الجوهرة الغاليه التى تجعل المدينه فى صف مكه من حيث الأهميه، لا بل وتفضلها عليها، فى نظر بعض الناس مثل أتباع مالك بن أنس، هو المسجد الأكبر الذى يضم فى داخله قبر النبي محمد صلى الله عليه وآله، وهو مثل جامع مكه يسمى «الحرم»، ويقع هذا المسجد فى الطرف الشرقي من البلده وليس فى وسطها. أمّا أبعاده فهى أصغر من أبعاد الحرم المكي، إذ يبلغ طوله مئه وخمسا وستين خطوه، ويبلغ عرضه مئه وثلاثين، لكنه مشيد على الطراز نفسه تقريباً.

وبعد أن يصف بيركهارت سائر أجزاء الحرم، والضريح المطهر وما يوجد حوله من القبور الاخرى، يقول: إن نفائس الحجاز كانت تحفظ فى السابق حول هذه القبور إمّا معلقه

ص: ١٦٩

بجبال من حرير يمتد في داخل المبنى، أو مودعة في صناديق خاصة موضوعة على الأرض. ويمكن أن يذكر من هذه على الأخص نسخة من القرآن الكريم مكتوبة بالخط الكوفي تعود إلى الخليفة عثمان بن عفان، ويُقال: إنها لا تزال موجودة في المدينة.. ثم يتطرق إلى ذكر حصار الوهابيين للمدينة، وإلى أن شيئاً كثيراً من هذه النفائس، ولا سيما الأوعية الذهبية منها، استولى عليها رؤساء البلدة، بحجة توزيعها على الفقراء، لكنهم تقاسموها فيما بينهم بعد ذلك.

وحينما دخل الأمير سعود الوهابي إلى المدينة، واستولى عليها، دخل الحجرة النبوية نفسها، ووصل إلى ما وراء الستائر، فوضع يده على جميع النفائس التي وجدها هناك، وقد باع قسماً منها إلى شريف مكة، وحمل الباقي إلى الدرعية معه. ومن الأعلاق النفيسة التي أخذها، وهي أعلى من أي شيء آخر، النجمة البراقة المتألثة المطعمة بالماس واللؤلؤ، التي كانت معلقة فوق القبر المقدس مباشرة، وقد كانت تسمى «الكوكب الدرّي»، وقد كانت تودع، في هذا المكان، جميع أنواع الأوعية والأواني الثمينة المطعمة بالجواهر، والأقراط، والأساور، والقلائد، وسائر النفائس التي كانت تُهدى من جميع أنحاء الامبراطورية العثمانية، ويأتي بها الحجاج في أثناء زيارتهم للمدينة. ولا شك أن ذلك كله كان يؤلف مجموعة ذات قيمة غير يسيرة، لكنها لا تكاد تُقدّر بثمن. فقد قدر الشريف غالب مااشتره من الأمير سعود بمائة ألف دولار.. كما يُقال: إن ماأخذه الأمير سعود معه يتألف غالباً من اللؤلؤ والمرجان، وإن قيمته تساوى ماباعه إلى الشريف غالب، وربما يبلغ مجموع كل ماوجد في قيمته حوالي ثلاثمائة ألف دولار (١).

في رحاب المسجد النبوي الشريف

وهناك من الأسباب مايجعلنا

ص: ١٧٠

نعتقد- والكلام ما يزال ليير كهارت- بأنّ هدايا المسلمين التي تجمعت في هذه البقعة، عبر القرون والأجيال، كانت تبلغ أكثر من هذا بكثير. ومن المحتمل جداً أن يكون حكام المدينة الذين كانوا مستقلين، في كثير من الأحيان، وسدنه الضريح المقدس أنفسهم، قد أخذوا الشيء الكثير مما كان يُهدى بين حين وآخر، كما فعل علماء مكة قبل ثلاثمئة سنة، حينما سرقوا مصابيح الذهب العائدة للكعبة، وأخذوها إلى الخارج بين طيات أردانهم، على ما يقول المؤرخ قطب الدين، وقد أخذ طوسون باشا، عند مجيئه المدينة، يفتش عن الأواني الذهبية التي بيعت في المدينة، فوجد قسماً منها وابتاعه من مالكيه بعشرة آلاف دولار، ثم أعاده إلى مكانه.

ثم يذكر بير كهارت أنّ فوق «الحجرة» قبة جميلة عالية الذرى، ترتفع فوق القباب الاخرى، التي تكوّن السطح الممتد من فوق الأعمدة، وترى من مسافة بعيدة في المدينة. وحالما تلوح للزائرين من بعيد يبدأون بالصلاة وقراءة الأدعية.

وتغطى بالرصاص، كما يعلوها هي كرة غير صغيرة بالحجم وهلال كبير، وكلاهما يتوهج بذهبه. وقد صنعت الكرة والهلال في استانبول، بأمر من السلطان سليمان القانوني، أما القبة والحرم بأجمعه فقد بناه قايتباي سلطان مصر ما بين سنتي ٨٨١ و ٨٩٢ هـ.

وكان الوهايون قد أغراهم بتهديم القبة الكبيرة الذهب اللماع، وتعاليمهم القاضية بتهديم القباب المقامة فوق القبور جميعاً، بما فيها قبة الرسول الأعظم، فحاولوا ذلك وابتغوا رفع الكرة والهلال، لكن متانة البناء، ووجود الغطاء الرصاص، جعل من الصعب عليهم تنفيذ ما يريدون. ثم سقط اثنان منهم، بعد أن تزلقوا من فوق السطح الأملس، فتركت المحاولة وعُدّ ذلك من معجزات النبي.

وهناك على مقربة من ستائر الحجرة، وفي داخل محيطها قبر «ستنا

ص: ١٧١

فاطمة» مغطى بغطاء أسود من الحرير المطرز. وهناك بعض الاختلافات في الرأي، حول مدفن الزهراء البتول في هذه البقعة أو في مقبرة البقيع. ولذلك يزورها الزوّار في هذين المكانين معاً.

وبعد أن يشرح بيركهارت الكيفية التي يزور بها الزوار الحرم الشريف، يبدأ بوصف الصحن الأوسط «الذي يوجد بالقرب منه سياج خشبي غير مرتفع، في داخله نخالات تعتبر مقدسة؛ لأنها على ما يُقال كانت قد زرعتها الزهراء عليها السلام، وفي جانب النخالات بئر تسمى «بئر النبي»، لكن ماءها عكر؛ ولذلك لا يتمتع بشهرة قدسية.. وحينما يأتي على ذكر الاضياء والشموع يذكر أن زوجة الخديوي محمد علي باشا، التي كانت يومذاك في المدينة، جاءت بكميات كبيرة من الشمع، وأهدتها إلى الحرم الشريف (١).
ثم ينتقل بيركهارت إلى وصف دقيق لأبواب الحرم الشريف الأربعة:

(السلام، الرحمة، الجبريل، النساء)، وجميع هذه الأبواب تغلق بعد الغروب بثلاث ساعات يومياً، ولا تفتح إلّا قبل الفجر بساعة. لكن الذين يرغبون في الصلاة داخل المسجد، طوال الليل، يمكنهم أن يستحصلوا الرخصة لذلك من الآغا المكلف بالخفارة.. أما في أيام رمضان، فيبقى الحرم مفتوحاً طوال الليل.

وتعهد مهمة أمن المسجد النبوي، وغسل الحجر، وسائر أجزاء المبنى جميعاً، وإنارة الحرم وما أشبه، إلى خمسين آغا من الأغوات الخصيان، الذين توجد منظمة خاصة لهم، تشبه المنظمة الموجودة في بيت الله الحرام في مكة، لكن هؤلاء تُعطى لهم أهمية كبيرة في المدينة، فتجدهم يلبسون أحسن، ويستعملون الشال الكشميري، وأفخر أقمشة الهند الحريرية، وحينما يمرون بالسوق يسارع الجميع إلى تقبيل أيديهم، ولذلك يمارسون نفوذاً غير يسير في شؤون البلدة الداخلية..

ويسمى رئيس هؤلاء الأغوات «شيخ

ص: ١٧٢

«الحرم»، وهو رئيس الجامع بأسره أيضاً، والشخصية الاولى في المدينة عادة.. وقد كان شيخ الحرم الذي شاهده بيركهارت يومذاك «قزلىر أغاسى» فى عهد السلطان سليم...

وقد شوهد مراراً، وهو يتقدم على طوسون باشا، الذى كانت رتبته برتبة الباشا فى جدّه.. ولذلك تستنى لبيركهارت أن يشاهد طوسون باشا وهو يقبل يد شيخ الحرم، فى داخل المسجد النبوى (١).

وينتقل بيركهارت بعد ذلك إلى الكتابه عن الوضع الاقتصادى قائلاً:

إنّ المدينة لا تحتوى أية صناعات، وإنّ أى ترميم فى المسجد النبوى كان يتطلب إحضار الحرفيين من مصر، إلّا أنه لاحظ أنّ الزراعة كانت متطورة جداً (٢).

أماكن الزيارة الأخرى

ويمضى بيركهارت فى ذكر أماكن الزيارة الأخرى، ويبدأ بالبقيع حيث يثوى عدد من الصحابة والأئمة والشهداء، ويصف مدى الخراب الذى لحق بها على يد الوهابيين، مشيراً إلى بقايا القبة والمباني الصغيرة التى عمدوا إلى تخريبها من فوق: قبور العباس وبعض الأئمة وعثمان وستنا فاطمة وعمّات النبى صلى الله عليه وآله. والموقع بأجمعه عبارة عن أكوام من التراب المبعثر، وحفرة عريضة، ومزابل، على حدّ تعبير بيركهارت.

ويذكر بيركهارت بالمناسبة أسماء الشخصيات الإسلامية، التى قُبرت فى البقيع.. لكنه حينما يذكر قبر الإمام الحسن بن على عليهما السلام يتوهم أنه قبر الإمام الحسين سيّد الشهداء، فيقول: إنّ جسمه فقط دون الرأس قد دُفن فيه، ويشير إلى أنّ الرأس قد اخذ إلى القاهرة وحفظ فى جامع خاص يُدعى، الحسينية (٣)!

ثمّ يصف زيارته إلى جبل أحد، حيث وجد المسجد، الذى شُيّد حول قبر الحمزة وغيره من شهداء احد.. وقد هدم الوهابيون القبة المشادة فوق القبر، لكنهم لم يتعرضوا للقبر نفسه.

١- ٨ المرجع نفسه، ٣: ٢٥١.

٢- ٩ صحيفة الحياة؛ م. س

٣- ١٠ المدينة فى المراجع الغربيه؛ م. س، ٣: ٢٥٤.

ص: ١٧٣

وعلى مسافة من هذا المسجد وجد قبة صغيرة تشير إلى المكان الذي أصيب فيه الرسول عليه السلام في موقعة احد، وعلى مسافة قصيرة من هذه القبة وجد قبور اثني عشر صحابياً من أصحاب الرسول، الذين استشهدوا في موقعة احد أيضاً، وقد خرب الوهابيون قبورهم وعبثوا بها..

وزار بيركهارت منطقة قبا أيضاً، وأهم ما يذكره عنها أنها ملأى بالبساتين العامرة... ويقوم مسجد قبا التاريخي مع ثلاثين أو أربعين بيتاً من حوله في وسط هذه البساتين، وقد وجد المسجد صغيراً وبحالة خربة، ويلاحظ فيه «ميرك الناقة».

والبقعة التي صلى فيها النبي عند وصوله إلى (قبا).. وعلى مسافة قصيرة من مسجد قبا شاهد مسجد على، وبقره بئر عميقة تسمى «العين الزرقاء» (١).

سكان المدينة

أمّا سكان المدينة المنورة وطبقات الناس فيها، فيقول بيركهارت عنها: إنهم مثل سكان مكة، أكثرتهم من الغرباء الذين تجذبهم قدسية البلد إليها، من جميع أنحاء العالم الإسلامي. وعلى هذا فهناك فيها جاليات من كل بلد إسلامي تقريباً، ولا توجد فيها إلا أقلية صغيرة من نسل الأنصار، الذين كانوا يسكنون المدينة، عندما هاجر النبي إليها سنة ٦٢٢ للميلاد. فهناك حوالي عشر أسر يمكنها إثبات نسبها وتحدرها من الأوس والخزرج، وهذه أسر فقيرة تعيش على الفلاحة في الضواحي والبساتين.

على أن عدد الشرفاء الحسينيين غير قليل في المدينة، لكن معظمهم غير مدنيين في الأصل، وإنما كان آباؤهم قد نزحوا إليها من مكة خلال الحروب التي كان يشنها الشرفاء للاستيلاء عليها. وينتمي معظم هؤلاء تقريباً إلى طبقة العلماء، أمّا الشرفاء المحاربون الذين يشبهون شرفاء مكة فقليلون جداً. وهناك أيضاً قبيلة صغيرة من الشرفاء الحسينية

ص: ١٧٤

المنحدرين من نسل الحسين شقيق الإمام الحسن عليهما السلام. ويُقال: إنهم كانوا أقوياء في المدينة سابقاً، وكانوا يأخذون لأنفسهم القسم الأكبر من واردات الحرم الشريف، فإنهم كانوا خلال القرن الثالث عشر سدنهُ القبر المطهر المحظوظين. لكنهم تضاءلوا بعد ذلك، حتى أصبحوا اليوم يقتصرون على عدد محدود من الاسر، التي لا تزال من عليّة القوم في البلد وسكانه الأغنياء، وهم يشغلون حارة خاصة بهم، ويحصلون على أرباح طائلة ولا سيما من الحجاج الإيرانيين الذين يَفِدون على المدينة للزيارة. ويُفهم ممّا كتب في هذه الرحلة أنّ هؤلاء من شيعة المدينة، الذين يمارسون عبادتهم على الطريقة السنية في الظاهر، ومع هذا فيطلق عليهم «الرافضة».

والمعروف في كلّ مكان أنّ بقايا الأنصار القدماء، وعدداً كبيراً من عرب المدينة الفلاحين الذين يفلحون البساتين والحقول من حولها هم من «الرافضة»، أي الشيعة كذلك.

ويُسمّى هؤلاء «النخاولة»؛ لأنهم يعيشون بين النخيل، وهم كثيرون في عددهم وشجعان في الحروب..

ولذلك قاوموا الوهابيين حينما احتلوا المدينة مقاومةً عنيفة.. ونقول إنّ المعروف في التأريخ، ولدى المطلعين من الناس، أنّ النخاولة من الفلاحين الذين كانوا يفلحون في بساتين الإمام الحسن عليه السلام، ويقول بيركهارت كذلك:

إنّ النخاولة لا يتزاجون مع غيرهم إلّا في النادر، ومعظمهم يجاهرون بالشيعة حينما يكونون بين نخيلهم، لكنهم يدعون بالسنية حينما يكونون في البلد، وقد استوطن بعضهم في الضواحي فاحتكروا مهنة القصابة.

وتعيش في البادية من جهة الشرق، على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة، قبيلة بدوية بكاملها يسمّى أفرادها «بنى على»، وهؤلاء كلّهم من الشيعة أو من معتنقى المذهب الإيراني، على حدّ تعبير بيركهارت، الذي يستغرب كيف أنّ أقدم مدينتين في الإسلام

ص: ١٧٥

تُحاط إحداهما بالزيدية (أى مكّة) والآخرى بالجعفرية (أى المدينة)، ولا تبذل أية محاولة لاجلاتهم!!
ومن بين الاسر القديمة فى المدينة اسر تنحدر بنسبها من نسل العباسيين كذلك، لكن شأنهم قد انحط الآن حتى أصبحوا فقراء. ويطلق عليهم «الخليفة»، أى المنحدرون من نسل الخلفاء.. ثم يسهب بيركهارت فى ذكر الجنسيات الأصلية التى ينتمى إليها سكان المدينة، ويقول: إنَّ الجيل الثانى أو الثالث، من السكان غير العرب، يستعربون بالتدريج، ويصبحون عرباً حتى فى قسّمات وجوههم. ويتطرق بعد ذلك إلى لباس المدنيين وأسلحتهم، وأحوالهم المعاشية والاقتصادية، وتجارّتهم وأطعمتهم، وعاداتهم وطباعهم (١).
وفى فصل خاص بحكومة المدينة يلخص بيركهارت تاريخها منذ صدر الإسلام إلى يوم وصوله تليخياً مختصراً جداً، لا نرى موجباً لنقله هنا.. (٢).

القاهرة.. نهاية المطاف

كانت ينبع آخر محطة له فى الحجاز، حيث واجهه مرض الطاعون فغادرها بسرعة. وفى الرابع والعشرين من حزيران (يونيو) ١٨١٥ عاد إلى القاهرة، بعد غياب دام سنتين ونصف السنة؛
كانت صحته عليّة، إلّا أنه لم يفقد الأمل فى الذهاب إلى تمبكتو (٣)، وقد قضى سنواته الأخيرة فى أعمال تعتبر لها وتسليّة. فقد كانت لا تزال أمامه تلك الرحلة عبر الصحراء الكبرى إلى ضفاف نهر النيجر. وفى الوقت نفسه كان أعضاء الجمعية الأفريقية ينتظرون عودته إلى لندن (٤). ولمّا سأل عن القافلة جاء الجواب مخيباً لآماله مرّة أخرى: مجيء القافلة لم يكن متوقّعاً فى المستقبل القريب! عندها استقرّ ودون رحلاته، وأمضى شهرين فى صحراء سيناء يستكشف مناطق جديدة (٥)، وذلك فى ربيع عام ١٨١٧. وفى حزيران عاد إلى القاهرة، واستعدّ للمسيرة إلى

١- ١٢ المرجع نفسه، ٣: ٢٥٧.

٢- ١٣ لمزيد من الاطلاع يراجع الجزء الثالث من موسوعة العتبات المقدسة قسم المدينة.

٣- ١٤ صحيفة الحياة؛ م. س

٤- ١٥ بلاد العرب القاصية؛ م. س: ١١٥.

٥- ١٦ صحيفة الحياة؛ م. س

ص: ١٧٦

الجنوب الغربي.

بعد رجوعه إلى القاهرة بأيام، تغلب عليه المرض فتوفى في ١٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨١٧، ودفن في العاصمة المصرية.. بعد شهرين فقط انطلقت أول قافلة إلى تمبكتو منذ أربع سنوات (١).

قبيل وفاته، أوصى بيركهارت بوقف مجموعة مخطوطاته على مكتبة جامعة كمبردج، وكتاباته كلها تدور حول رحلاته، كرحلة للشام والأراضي المقدسة (٢).

وهي حسب تأريخ صدورها:

الرحلة إلى بلاد الشام (لندن ١٨١٤-١٨٢٢)، ورحلة إلى الجزيرة العربية (لندن ١٨٢٩)، وسجلات أسفار في الشرق الأدنى والاتصال بالبدو والوهابيين (لندن ١٨٣١، باريس ١٨٣٥)، ومجموعة من الأمثال العربية، متناً وترجمة انجليزية وشرحاً (لندن ١٨٣٠) وقد ترجمت من الإنجليزية إلى لغات أخرى أوروبية، منها الألمانية، بقلم ه. ج. كرمز (١٨٣٤)، وكتاب الرحلات النوبية. وهو من أوائل الكتاب الأوروبية، الذين كتبوا عن العرب القاطنين في شمالي السودان وفي مملكة سنار.

وقد تولت الجمعية الأفريقية في إنجلترا نشر جميع مصنفاته، ومازال بعض مخطوطاته في مكتبة ابن أخيه جاكوب بيركهارت، وكان رئيساً لقسم العلاقات الدولية في وزارة الخارجية السويسرية (٣).

وعندما نُشر كتابه عن رحلته إلى بلاد العرب، ومشاهداته عن البدو والوهابيين.. أدرك علماء أوروبا مدى خسارتهم بفقد بيركهارت، خاصة وأنهما أصبحا مرجعاً يعتمد عليه، ويتجلى ذلك من رجوع المستشرقين، في مواطن كثيرة، إلى بيركهارت، في موسوعتهم الموسومة بـ «دائرة المعارف الإسلامية». أما على صعيد الرحالة فقد برز سابقه وأعجز اللاحقين. وهذا الرحالة الشهير ريتشارد برتون الذي زار الحجاز

١-١٧ المرجع نفسه.

٢-١٨ الاعلام للزركلي؛ م. س، ٨: ٢٦٨، والمستشرقون للعقيقي؛ م. س، ٢: ٥٢.

٣-١٩ كذلك.

ص: ١٧٧

والشام، ورغم ملاحظاته وهوامشه التفصيلية الكثيرة أقر أنه لا يستطيع أن يضيف لما كتبه بيركهارت عن البدو إلا قليلاً (١). مؤكداً أنه قد وصف مارآه قدر الإستطاعة، ولكنه اعترف أنه لا يستطيع أن يصل إلى دقة بيركهارت، الذي يعترف برتون أنه مدين له ليس بالشكر والامتنان فحسب، بل بالاقتباس عنه بصورة جليئة واسعة واضحة (٢).

يقول الباحث البريطاني «بيتر برينث»: من المضحك المبكى أن نسمع أنه عندما طُرحت فكرة إنشاء نصب تذكاري لبيركهارت يُنصب فوق قبره في القاهرة، تحمّس العلماء والامبرياليون والمستكشفون الجالسون على كراسيهم في الغرب، وجمعوا بعضهم مع بعض مبلغ عشرين جنيهاً استرلينياً فقط (٣)!

لم يوضّح «برينث» سبب هذه المفارقة، ولعل ذلك يعود إلى أن بيركهارت ليس انكليزياً قحاً، فهو سويسري مأجور للدوائر البريطانية، ولا ننسى أن الامبراطورية البريطانية كانت تتوثّب إلى دخول الحقبة الفيكتورية، بكلّ غرورها وخطورتها وتعاليتها على الآخرين، بمن فيهم الغربيون غير الإنكليز!!

اشكالية.. واثارة

وعلى ذكر النصب التذكاري، فإنّ ثمة مفارقة أخرى ملفتة للانتباه، يحملها قبره الموجود في القرافة الكبرى بسفح المقطم، إذ كُتبت عليه العبارة الآتية: «هذا قبر المرحوم إلى رحمة الله تعالى الشيخ حاج إبراهيم المهدي بن عبد الله بر كهت اللوزاني، ولادته ١٠ محرم سنة ١١٩٩، وتاريخ وفاته إلى رحمة الله بمصر المحروسة في ١٦ ذي الحجة سنة ١٢٣٢ هـ» (٤).

والسؤال هو: هل العبارة الآنفة الذكر قد كُتبت بناءً على توصية خاصة من بيركهارت نفسه.. أم كانت بايعاز من القنصل البريطاني في القاهرة، أم كانت مجرد اجتهاد من المشرفين على المقبرة..؟!

إنّ هذه الإثارة تطرح - بقوة

١- ٢٠ نقلًا عن كتاب صورة العرب في الصحافة البريطانية؛ م. س: ٤٤ هامش ٩٤.

٢- ٢١ بلاد العرب القاصية؛ م. س: ١٦١.

٣- ٢٢ المرجع نفسه: ١١٦.

٤- ٢٣ الاعلام؛ م. س، المستشرقون؛ م. س.

ص: ١٧٨

ربما- اشكالية علاقة بيركهارت بالإسلام، الأمر الذي يحتاج إلى قدر من تعريه هذا الإبهام. خاصة وأن البعض استسلم- سذاجة أو سوء نية- لحكاية إسلام (الشيخ) إبراهيم بيركهارت!!

ففي حدود علمنا، لم يجرؤ أحد على تسويق قصة إسلامه سوى الكاتب النصراني «أمين الريحاني»، الذي أشار إلى اسمه بأنه (الحاج عبدالله) ووصفه بأنه (صديق محمد علي وصديق العرب والإسلام)..

وقال عنه: «كان بيركهارت في قيافته وفي إسلامه محترماً موقراً»، دون أن ينسى الريحاني الإشادة ببيركهارت لشهادته العلمية المنزهة عن الأهواء الخاصة والمذهبية؛ لا لشيء سوى أنه قال: «جاء الوهابيون يطهرون الحجاز!» كما وصف الوهابية بأنها تمثل الإسلام في طهارته الاولى (١).

وعلى خطى الريحاني، وإن كانت بصورة أخف، جاءت الصحافية «رالي الزين» لتقول عن بيركهارت بأنه «اعتنق الإسلام» بعد فترة من الزمن خلال مكوثه في حلب (٢). في حين نجد أن نجيب العقيقي صاحب كتاب «المستشرقون» لم يشر قط إلى مسألة إسلام بيركهارت، واكتفى بالعبارة «وقد تسمى بإبراهيم بن عبد الله» دون تعليق (٣).

أما صاحب قاموس «الأعلام» فقد شكك في إسلام بيركهارت، إذ قال: «ثم مضى إلى الحجاز مسلماً أو متظاهراً بالإسلام، وتسمى بإبراهيم ابن عبد الله» (٤) ومن نافلة القول التأكيد بأن «خير الدين الزركلي» لم يكن أول المشككين، بل إن بيركهارت نفسه أشار إلى بعض معاصريه، وفي مقدمتهم محمد علي باشا، إذ يُستبان مما دونه أن محمد علي باشا كان يشك في إسلامه، ومع هذا فقد سمح له بالتوجه إلى الحج في مكة (٥)، ويكاد المرعب يقول خذوني!

قبال ذلك نكتفي بثلاث شهادات من الضفة الاخرى، يرقى بعضها إلى درجة الاعتراف. فهذا صاحب

١- ٢٤ للمزيد من الاطلاع على ماكتبه الريحاني عن بيركهارت يراجع كتابه: «تأريخ نجد الحديث»، المنشور ضمن الأعمال العربية الكاملة للمؤلف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠: ٨٠-٨١. معلوم أن علامات الاستفهام ماتزال تطارد الريحاني حول علاقته المشبوهة بالدوائر الدولية وأذنانها في المنطقة.. وإذا عُرِفَ السبب بطل العجب!

٢- ٢٥ صحيفة الحياة؛ م. س.

٣- ٢٦ المستشرقون؛ م. س، ٢: ٥٢.

٤- ٢٧ الأعلام؛ م. س.

٥- ٢٨ المدينة في المراجع الغربية؛ م. س، ٣: ٢٦٤.

ص: ١٧٩

«المنجد» يقول عن بيركهارت: «.. ثم زار مكّة وجده متنكراً باسم الشيخ إبراهيم» (١)، فيما اعترف ناشر كتبه الإنكليزي ويليام أوсли، كما مرّ، بأنّ معرفته بيركهارت للعربية واطلاعه التام على أحوال المسلمين وعاداتهم قد ساعده على تقمص دور الرجل المسلم بنجاح، حتى استطاع أن يعيش في مكّة، خلال موسم الحج كلّ، ويشترك في مناسكه وشعائره، من دون أن يثير أدنى شك بشخصيته المنتحلة (٢).

ورغم ماتعنيه الألفاظ المتقدمة مثل «متنكراً» و «تقمص» و «شخصيته المنتحلة».. من دلالات، بل شهادات ثبوتية، فإننا نترك الحكم الفيصل للبروفيسور «ادوارد سعيد» حيث يقول: «لقد هاجم مؤرخون ثقافيون محترمون، مثل ليولد فون رانكه وجاكوب بيركهارت، الإسلام بعنف كأنهم كانوا يتعاملون لا مع تجريد من التشبيه التجسيمي، بل مع ثقافته سيا- دينية يمكن إصدار تعميمات عميقة حولها، واعتبارها مسوّغة. ففي كتابه تاريخ العالم (١٨٨١-١٨٨٨) تحدّث رانكه عن الإسلام واصفاً هزيمته أمام الشعوب الجرمانية- الرومانية، وفي «شذرات تاريخية» (ملحوظات غير منشورة، ١٨٩٣). تحدّث بيركهارت عن الإسلام (كشيء) بألس عارٍ، وتافه (٣).

فأين يا ترى هذه الرؤية الحاقدة عن الإسلام من ادعاء الريحاني بأنه صديق العرب والإسلام؟! وأين هي شهادة العلماء المنزهين عن الأهواء..؟!!

ويبقى من المفيد الإشارة إلى ملاحظة المرحوم «جعفر الخياط» الخبير بكتابات الغربيين عن الإسلام والشرق، إذ يقول: «ويلاحظ من بعض مايكتبه بيركهارت في الرحلة أنه ربّما كانت له علاقة بالاستخبارات البريطانية في تلك الأيام، فهو يقول: إنّ وصول الغرباء من جميع أنحاء العالم الإسلامي، أي من تمبكتو إلى سمرقند،

١- ٢٩ يُراجع «المنجد في الأعلام» ط ١٢، بيروت، ١٩٨٢. المطبعة الكاثوليكية.

٢- ٣٠ المدينة في المراجع الغربية؛ م. س.

٣- ٣١ الإستشراق لادوارد سعيد؛ م. س: ٢١٩.

ص: ١٨٠

ومن بلاد الكرج إلى بلاد بورنيو، تجعل جدّه مكاناً ممتازاً جداً للاوروبي المسافر المعنى بجمع الأخبار وحب الاستطلاع. فهو بتقديمه المساعدة للحجاج الفقراء، وصرف مبالغ زهيدة لتجهيزهم بالمؤن، يمكنه أن يجتذب إليه عدداً كبيراً فيستطيع بهذه الوسيلة جمع معلومات كثيرة تختص بأبعد البلاد المعروفة في أفريقيا وآسيا.. (١).

وهذا غيض منشور للملا... من فيض خفي ماتزال تحتفظ به أراشيف اللعبة الكبرى.. التي كان شرقنا الإسلامي، ومايزال، مسرحها العريض!!

ملاحظة بيركهارت تفتح شهية الأطماع

ظلت ملاحظات «بيركهارت» عن الحرمين الشريفين مرجعاً مهماً، ويعتمد عليها من قبل المعنيين في الأوساط الأوروبية. ولم يتمكن رحالة آخر من إضافه شيء مهم، وذى قيمة علمية، الى ما ذكره في كتابه (رحلات الى بلاد العرب) الذي صدر عام ١٨٢٩ م، أى بعد اثنتي عشرة سنة من وفاته ... حتى قيام الرحالة البريطاني «ريتشارد بورتون» برحلته الشهيرة التي وصفها في كتابه «الحج الى مكة والمدينة»، إذ يُعدّ من أعظم المراجع عند الغربيين في موضوعه (٢).

وما بين رحلة بيركهارت سنة ١٨١٤ م، ورحلة بورتون سنة ١٨٥٣ م .. أمست جزيرة العرب بشكل عام، والحجاز خاصة، مسرحاً لمغامرات عديدة قام بها دبلوماسيون وضباط وموظفون ومغامرون وجواسيس. ورغم الحشد من هؤلاء لم يبرز منهم سوى بعض الأسماء التي ظلت شبه مغمورة، دون أن يترك أيّ منهم أثراً ثقافياً مرموقاً، سوى «فالين» الذي ترك يومياته وطبعت بعد وفاته. ومن المثير أن نجد أغلب المحاولات الرامية للحج قد باءت بالفشل الذريع، وحتى أولئك الذين تسنى لهم الوصول الى الديار المقدسة

١- ٣٢ مكة في المراجع الغربية؛ م. س، ٢: ٢١٩.

٢- ١ الاعلام للزركلي؛ م. س - ٣: ٣٨.

ص: ١٨١

لم تتم مهماتهم بالشكل المطلوب، لهذا السبب أو ذاك، ما عدا الرحالة الفنلندي «فالين» الذي تمكن من الدخول الى مكة فعلاً، دون أن يُحقق شيئاً ذا بال!

وفي هذا السياق؛ كان للتبؤ الذي أطلقه بيركهارت، حول احتمال انتهاء حكم الأتراك في الحجاز، أثره في إلهاب حماس طلائع المستعمر، وفتح شهية الأطماع للسيطرة على مناطق النفوذ، وهكذا رأينا تراحمهم في المشرق الاسلامي، متذرعين بشتى التبريرات. وقبل أن يمضى عامان على وفاة بيركهارت، وصلت بعثة من بومباي في الهند تنقل تهاني البريطانيين الى ابراهيم باشا بن محمد على باشا لاستيلائه مع جيشه المصري على مركز الحركة الوهابية في الدرعية. وكان رئيس هذه البعثة رجلاً متكبراً عنيداً يفتقر الى الخيال، وهو من الضباط المتعجرفين، على حد قول بيتر برينت، وهذا الرجل يدعى الكابتن «سادليير Sadlier»، وقد أُعطى الصلاحية لابرام معاهدة صداقة وحلف مع ابراهيم باشا (١).

ولكن «سادليير» هذا أصبح أحد المستكشفين المتطوعين لبلاد العرب، وقد عبر شبه الجزيرة من الشرق الى الغرب، وربما كان أول أوروبي يقوم بمثل هذا العمل، ومع أنّ رحلته كانت في شهر تموز، إلّا أنه قد نجا من ويلات الصيف في الصحراء، بعد سقوط الأمطار غير الموسمية، ولم يذكر شيئاً عن الشعب .. وأما ملاحظاته الطبوغرافية، فمع أنها كانت قليلة ونادرة، إلّا أنها كانت دقيقة ومفيدة. وبعد أن مرّ «سادليير» قرب المدينة المنورة التي كانت لا تسمح أن يدوس على أرضها وشوارعها رجل كافر، وصل أخيراً الى شواطئ البحر الأحمر قرب (ينبع)، وعلى الرغم من مقدرته على الاحتمال ونشاطه إلّا أنه لم يكن كفؤاً لابراهيم باشا دبلوماسياً. وذلك لأنّ ابراهيم لم يكن بحاجة الى البريطانيين، وهكذا فقد فشلت البعثة في أهدافها الرئيسية، ولم يحدث أي

ص: ١٨٢

تقارب أو اتفاق مع محمد علي في مصر ومع البريطانيين. وبعد مرور بضعة أشهر وجد «سادلير» سفينة أوصلته الى الهند، وهكذا حصلت شبه الجزيرة العربية على وصف شامل على يد رجل كاره لذلك، ولكن مضى حوالى خمسين عاماً، قبل أن تُنشر نتائج تلك الرحلة، وأصبحت معروفة عند حلقة واسعة من المجموعات الأدبية والدوائر العلمية في بومباي. ومن ذلك الحين فصاعداً بدت بلاد العرب، وكأنها أصبحت لغزاً أو حصناً محصناً ضد حشيره الغرب، ولم يتجرأ أحد على اقتحامها سوى بعض الرحالة الذين جلبهم سوء طالعهم الى تلك المناطق (١).

وفي غمرة احتدام التنافس الاستعماري بين القوتين العظميين يومئذ؛ بريطانيا وفرنسا.. بدأت دول غربية أخرى في التسلل الى المنطقة تحت واجهات عدّة.

من الطيف الاستعماري

فبعد مرور خمس سنوات على وفاة «بيركهارت» في القاهرة، حيث دُفن هناك، ودُفنت معه أخطر الأسرار عن طبيعته مهمته، لتكون القاهرة على موعد آخر مع شخص غامض قادم هذه المرّة من العالم الجديد (أمريكا)، وليس من أوروبا، كما كان المألوف في تلك الأيام؛ وبهذا تكون أمريكا قد دشنت حضورها الذي سيتكثف لاحقاً.

ففي عام ١٨٢٣، وصل «اينجليش» المخبر السري لدى وزير الخارجية الأمريكي «أدامز» الى مصر، واعتنق الاسلام، وانخرط في جيش والى مصر محمد علي (باشا)، وحاول بكلّ الوسائل أن يوسّع الاتصالات مع السلطات المحلية.

ونتيجة هذا النشاط المتعدد الجوانب وجه الرئيس الأمريكي «جاتسون» ١٨٢٩ م بعثة خاصة الى اسطنبول، بغية توقيع المعاهدة الأمريكية-العثمانية الأولى. ومما له دلالة أن رئيس البعثة هو قائد عمارة المتوسط الأمريكية «بيدل»، وأن أعضاءها هم

ص: ١٨٣

من كبار تجار الأفيون. وفي ٧ مايس (مايو) ١٨٣٠ وقعت أول معاهدة عثمانية هيأت لتجار الأفيون والدبلوماسيين الأمريكيين إمكانات واسعة للتغلغل في المنطقة العربية (١).

في تلك الأثناء، وخاصةً خلال السنوات العشر، بين ١٨٢٦ - ١٨٣٦ م، كان قد تمّ تخطيط سواحل الجزيرة العربية، من قبل البعثات الانكليزية، وكان من نتائج هذين؛ التخطيط والإعداد، الهجوم الانكليزي العسكري على عدن واستعمارها، في حين كانت عُمان قد وقعت قبلها تحت النفوذ الانكليزي.

وفتح استعمار عدن الطريق واسعاً، أمام الانكليز، لمدّ نفوذهم الى جميع أنحاء العالم العربي .. وقد استغل كثير من علماء الآثار والمستشرقين والدبلوماسيين وجود الانكليز في جنوب الجزيرة، فرحلوا الى هناك، للبحث والتنقيب عن الآثار الحضارية القديمة (٢)، فيما يظلّ اختراق الديار المقدسة طموحاً يراود الجميع. ونكتفى بإيراد نموذج واحد.

بوتا؛ المحاولة الفاشلة

في عام ١٨٣٦ م، رحل عالم الآثار الفرنسي «أميل بوتا»، الذي كان يعمل كمستشار ديبلوماسي في القنصلية الفرنسية في الاسكندرية الى اليمن، ومن اليمن رحل الى العراق، حيث زار بغداد والموصل، ثم انتقل الى طرابلس، فالقدس. وكان الارتباط بين العلم والديبلوماسية وثيقاً، وذلك لتبرير البعثات الاستعمارية وأهدافها، التي تقوم بالتنقيب عن الآثار القديمة، وتكوين علاقات مع العشائر والتجار.

ومع المعروف، أيضاً، أنّ أغلب الموظفين الكبار، الذين كانوا يعملون في السفارات والقنصليات الأوروبية، خلال القرن التاسع عشر، كانوا من العلماء والمستشرقين، وبصورة خاصةً في القنصليات الانكليزية والفرنسية.

و «أميل بوتا» كان من أولئك العلماء، الذين رحلوا، على رأس بعثة علمية من قبل حديقة الحيوانات في باريس، للبحث في التاريخ الطبيعي

١- ١. محمد ابراهيم الفيومي: «الاستشراق رسالة استعمار» القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٣ م/ ١٤١٣ هـ: ١٢١.

٢- ٢. ابراهيم الحيدري: «صورة الشرق في عيون الغرب»، لندن، دار الساقى، ١٩٩٦ م: ٥٥.

ص: ١٨٤

لمصر وسيناء واليمن. وقد ساعدته الظروف، حينذاك، لجهة الاستقرار السياسي النسبي، الذي ساد الجزيرة العربيّة، فقام باعداد بعض البحوث والتقارير عن التاريخ الطبيعي والخلافات العشائريّة، فأقام علاقات وطيدة مع الشيخ حسن، أحد رؤساء العشائر الكبيرة، الذي كان بينه وبين إمام صنعاء خلافاً حادّة، ممّا جعله يتقرّب الى ابراهيم باشا بن محمد علي باشا الكبير. وكانت هذه العلاقة قد وفّرت له إمكانية زيارة أجزاء كبيرة من الأراضي الجبلية في اليمن.

وبمساعدة من جنود الشيخ حسن وخدمه، استطاع، أيضاً، الوصول الى قمّة جبل سيبا، الذي لم يستطع «فورسكال» الوصول اليه، من قبل.

إلّا أنّ الفرصة لم تسنح لبوتا لزيارة الأماكن المقدّسة في مكّة والمدينة، وذلك لسبب أنّ الحجاز أصبح منذ ١٨٤١ م جزءاً من اليمن، وخضع لسلطة الدولة العثمانية، وبات عليه أن يحصل على «فرمان» من السلطان، لزيارة مكّة والمدينة (١). ولم يكن «بوتا» الأوروبي الوحيد الذي أخفق في الوصول الى الديار المقدّسة، وقد عزفنا عن ذكر البقية، وليس هناك من مهمة يكتنفها الغموض تستحق التوقّف غير تلك التي قام بها كلّ من «روش» و«فالين».

روش: المشروع الخائب

و«ليون روش» أحد مشاهير الرّحالة الفرنسيين الى الجزيرة! ولد في «غرينوبل» عام ١٨٠٩ م، فاحتضنته خالته، بعد وفاة أمّه وهجرة والده الى الجزائر. وحين بلغ الثالثة والعشرين ترك دراسة القانون وانضمّ الى والده في الجزائر، كضابط في الحرس الوطني.

وهناك وقع روش الحالم في حبّ فتاة من الارستقراطية الجزائرية في الرابعة عشرة من العمر تدعى خديجة، لكن أهلها رفضوا السماح لها بالزواج من مسيحي.

وانصرف «روش» الى تعلّم العربية؛ لكي يتمكّن من مراسلة

١- ١. ٠٤٨١- ٩١- ٤١. Botta P. E Jemen s. «نقلًا عن المرجع السابق: ٥٧»، هامش رقم ٧٥.

ص: ١٨٥

خديجة عن طريق خادماتها، وبعد ذلك أصبح مترجماً في الحملة الفرنسية ضد الزعيم الوطني عبدالقادر الجزائري، لكن بدلاً من أن يكنّ الكره والبغضاء لعبد القادر نمت لدى «روش» موجة إعجاب شديد بالزعيم الثائر. وما لبث أن اعتنق الاسلام من أجل أن «يجمع بين الجزائر المسلمة وفرنسا المسيحية». ثم سافر في داخل الجزائر أياماً طويلة الى أن بلغ مضارب الأمير عبدالقادر. وقد اعجب الأمير بصدق «ليون روش» بحيث تكفّل شخصياً بتدريسه التعاليم القرآنية، وجعله مساعده الخاص. وحين عثر والد «روش» على معسكر عبدالقادر اتجه اليه وتوسّل ابنه به للعودة معه لكنه رفض. وقد أثر ذلك في نفس عبدالقادر تأثيراً كبيراً. وبعد فترة انتقل الأمير وقواته الى بلدة «عين مهدي» فحاصروها أربعة أشهر.

وحين دخلوا اليها اكتشف «روش» أن حبيته خديجة كانت بين الضحايا!، ومثل جميع رومانسيي القرن التاسع عشر أراد الانضمام اليها، لكن عبدالقادر ثناه طالباً اليه الاستعداد لحملة على الفرنسيين، فتردّد ثم امتنع، وأطلقه عبدالقادر في سبيله غاضباً، قائلاً له: جزاؤك في الاسلام جزاء المرتدين. لكنني أترك معاقبتك لله!

عاد «روش» الى باريس، يوم كانت تعجّ «بالمستشرقين»، فانضمّ الى موظفي الدولة الفرنسية، وعادت اليه أحلامه بالجمع بين الجزائر وفرنسا، وهكذا وضع مشروع «فتوى» في هذا الشأن، وذهب الى جامعة برقة في ليبيا؛ لكي يطلب الى العلماء التصديق عليها، فأحالوه بدورهم على علماء الأزهر، الذين قالوا: إنّ مجلس العلماء في مكة المكرمة وحده يستطيع التصديق عليها. خلال وجوده في القاهرة تعرّف «روش» الى محمد علي باشا، حيث أعرب الزعيم المصري عن تقديره لكفاح الشعب الجزائري ضد الفرنسيين، وقد أعجب محمد علي بصدق «روش» ونواياه، لكنه لم يؤخذ

ص: ١٨٦

كثيراً بمدى اعتناقه الاسلام. وكتب «روش»، فيما بعد، أنه رأى في عيني محمد على تلك القسوة التي أمرت بمذبحة المماليك. ومن القاهرة أخذ الفرنسي الطريق البرى الى السويس ثم بالباخرة الى «ينبع»، حيث أثارته معاملته الحجاج الجزائريين الذين حشروا كل ٢٠٠ فى مقصورة، تتسع فقط لخمسين شخصاً، وقد كتب يشكو شركة النقل الى محمد على، والباب العالى، والقناصل الأوربيين فى جدّة. وبعد أيام من وصوله اتجه «روش» الى الطائف حيث عرض على مجلس للعلماء المشروع الذى جاء من أجله. ومن هناك اتجه الى عرفات، حيث تعرّف إليه جزائريان...، وفجأة رأى نفسه محمولاً على أكف سته من الزنوج الأشداء الذين شدّوا وثاقه الى أحد الجمال السريعة، فنقل الى جدّة، حيث وضع على سفينة أقلته الى مصر. وتبين فيما بعد أنه وضع على سفينة أقلته الى مصر، وأن محمد على وضع حراساً يراقبون تحركات «روش» ويحمونه فى وقت واحد.

كانت طموحات وأشياء كثيرة تتنازع «ليون روش» الذى وجد نفسه فى خدمة الجهاز السرى الفرنسى. وحين عاد الى اوروا انتابته نوبة من الندم، من جرّاء عمله التجسس، فرأى أن الطريق الوحيد الى الهرب هو الانتماء الى سلك الرهينة، فذهب الى روما وانضم الى اليسوعيين، إلّا أنّ الفرنسيين لم يقبلوا استقالته، وأقنعوا البابا غريغورى الثامن عشر بعدم قبوله، وهكذا عاد الى الجزائر؛ لكى يساهم فى هزيمة الأمير الكبير عبدالقادر، وأنهى حياته سفيراً لفرنسا فى اليابان.

كان «ليون روش» الفرنسى يشبه الى حدّ كبير البريطانى، الذى جاء بعده بعشر سنوات، «ريتشارد بورتون» الذى تنازعت، هو الآخر، مشاعر وأهواء كثيرة من الامبريالية الى الوصولية الى الشغف بما رأى (١).

١-١ سمير عطا الله: «قافلة الحبر: الرحالة الغربيون الى الجزيرة والخليج ١٧٦٢-١٩٥٠ م» لندن، دار الساقى، ١٩٩٤ م: ٧٠-٧١.

ص: ١٨٧

فالين: الاعداد والتحويل

أما المهمة السريّة الغامضة الثانية فكان بطلها الرحالة الفنلندي «جورج أوغست فالين» (١). وكان هذا يُحسن التحدّث باللغّة العربيّة بطلاقة، وقد أصبح فيما بعد استاذاً للعربيّة في جامعة هلسنكي. ويُقال: إنه عمل جاسوساً لمحمد علي باشا في شمال نجد. «والحقيقة أن قصّة هؤلاء الرحالة .. تظلّ دائماً والى الأبد من القصص المدهشة المثيرة، في الوقت نفسه الذي بقيت فيه سياسة مصر العثمانية الهاجس والمحرّك الأول لأولئك الأشخاص المختصين» (٢).

ولكى نكون أمام مهمة فالين السريّة، بشكل أكثر وضوحاً، لابدّ من التدرج التاريخي لسيرته، وطريقة إعداده الخاصة. إذ ولد في جزائر آلاندا، غربى فنلندا، وتعلّم في جامعته، وهو في الثامنة عشرة من العمر، وبدأ يدرس اللغات الشرقية موضوعاً أساسياً، وقد خصّص كثيراً من وقته وطاقته للألعاب المختلفة وللموسيقى، لكنه أيضاً حقّق نجاحاً كبيراً في دراساته. وبصرف النظر عن دراساته الأكاديمية البحتة فقد اكتسب بنفسه معرفة عمليّة فعالة في لغات عديدة. وكانت اللغّة السويديّة لغته الأم، غير أنه كان يجيد أيضاً الألمانية والروسية والفرنسية والانكليزية.

وكان من الطبيعي، على وجه الدقة إذن، أن يرغب في بلوغ معرفة عمليّة في اللغات الشرقية (العربيّة، التركيّة، الخ) التي درسها في الجامعة.

وتعلّم أن يتكلّم شيئاً من العربيّة على يدي متفقّه تترى في هلسنكي. ونجم عن اهتمامه في العربيّة الدارجة كتابة اطروحة ماجستير عن الفروق الرئيسيّة بين العربيّة الفصحى والدارجة، تلك الاطروحة التي كتبها باللاتينية في ١٨٣٩ م (٣).

في سنة ١٨٤١ م قصد العاصمة الروسية عندئذ (بطرسبرغ)، والتي سُمّيت ليننغراد لاحقاً. فازداد في جامعته تضلعاً بالعربيّة على يد استاذها الشيخ محمد عياد الطنطاوى،

١ - ١ أشار خير الدين الزركلى الى أنّ من نقلوا اسمه حرفياً سمّوه «جورج اوغست ولين» والصواب ما ذكره فالين، كما ينطقه الفنلنديون. يراجع الاعلام - ٢: ١٤٦، هامش ٢.

٢ - ٢ بلاد العرب القاصية؛ م. س: ١٣١.

٣ - ٣ مجلة الاستشراق البغدادية، العدد الثاني، شباط ١٩٨٧ م: ٩٥، ولعل فالين أول من طرق باب اللهجة العامية مقارنة باللغّة الفصحى.

ص: ١٨٨

حيث مكث في مدرسة الألسن لمدة عامين، وبقي هناك حتى آخر سنة ١٨٤٢ م (١).

ولم تلتف الدراسات الجامعية النظرية انتباه «فالن» كما فعلت الدراسات العملية. ولم يكن هناك شيء أحبّ إلى نفسه من تعلّم المصرية الدارجة على يد معلم العربية الشيخ الطنطاوي (وهو خبير في اللهجة العامية، واستاذ مصري منتدب للتدريس في روسيا). وبالفعل تمكّن «فالين» من كتابة ودراسة لغوية باللهجة المصرية.

وقبل أن يقفل راجعاً إلى بلاده التحق «فالين» بأحد معاهد المدينة الطبية، ليتلقى إعداداً تاماً في دراسة الطب العملي (٢)، وحال عودته إلى هلسنكي يجد «فالن» أمامه منحة زمالة من جامعته، للسفر إلى أواسط الجزيرة العربية. وليبدأ فصل المغامرة التي دامت حوالي ست سنوات.

المنحة ... وطبيعة المهمة السريّة

لقد كان فالين هذا رجلاً فقيراً حصل على منحة مالية من جامعته، وكُلف بالسفر إلى الجزيرة العربية، بمهمة الحصول على معلومات عن طبيعة الظروف السياسية السائدة، والوقوف مباشرة على طبيعة أوضاعها وعادات سكانها. وعندما حصل على المنحة من جامعة هلسنكي لزيارة المنطقة، لم يضيع أيّ فرصة، فغادر هلسنكي في تموز (يوليو) ١٨٤٣ م، متوجّهاً إلى باريس التي ظلّ فيها فترة قصيرة، ومن هناك إلى القاهرة، فوصلها في كانون الثاني (يناير) ١٨٤٤ م (٣) حيث عاش كمسلم لمدة عام يذهب إلى الأزهر لتلقى العلوم. وهناك تقرب منه أحد موظفي وزارة الخارجية المصريّة، وعرض عليه أن يحوّل رحلته إلى الجزيرة العربية، لقاء تزويد الحكومة المصرية بالتقارير عن الأوضاع السياسية. أمّا الغطاء الذي اتفق أن يسافر تحته فهو تجارة الخيول (٤).

وبعد أن مكث أكثر من عام في القاهرة لدراسة اللغة ولائحة

١-١ يُراجع الاعلام للزركلي؛ ٣: ١٤٦، وموسوعة «المستشرقون»، لنجيب العقيقي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٥ م، الجزء الثالث: ١٠٤٠.

٢-٢ يُراجع مجلة الاستشراق؛ م. س، وكتاب «قافلة الحبر»؛ م. س: ٧٢.

٣-٣ صحيفة الحياة طبعه لندن- الاثني ٦ نيسان ابريل ١٩٩٢ م الموافق ٤ شوال ١٤١٢ هـ. العدد ١٠٦٥٠-: ١٧ تراث.

٤-٤ قافلة الحبر؛ م. س: ٧٢.

ص: ١٨٩

الترتيبات الضرورية، شرع فالن في رحلته الى الجزيرة العربية. وكان هدفه هو اجتياز الجزء الشمالي من الجزيرة (١) وهكذا غادر القاهرة في نيسان (أبريل) ١٨٤٥ م، ومعه اثنان من البدو، أما هو فقد تزيًا بالزى العربى وتسمى «عبد الولي» (٢)، وبعدهما عبر سيناء أمضى شهرين في مغان، ثم اتجه شرقاً عبر الصحراء السورية الى آبار ويسات، ومنها الى الجوف، بوابة صحراء النفوذ، أى تلك الصحراء الحمراء التى تقوم على حراسه الجزيرة العربية فى الشمال.

بدأ رحلته عبر النفوذ فى الأول من أيلول (سبتمبر)، ومعه دليل «يتبع نجمة القطب». وفى اليوم العاشر وصلت القافلة الى مياه جبه والعطش يكاد يقضى عليها. وعلى مسافة أيام أخرى كانت تقع حائل التى «تحيط بها حقول الذرة وحدائق الخضار ويرد عنها جبل شمر نفع الشمس» (٣).

أمضى فالين شهرين فى حائل ...

وكان يأمل أن يتمكن من اختراق العمق فى المنطقه الوهابية ويصل الى الرياض. أما جنوب اليمن فقد كان الوصول اليه صعباً لأنشغال السكان بالعمليات الحربية والنزاعات الداخلية. ولقلة أمواله (عكس الرحالة القدماء) والتى كانت تنحصر فى المصاريف الضئيلة التى قدمتها له الجامعة، والتى لم تكف للقيام بأوده. لهذا لم يكن لديه موارد كافية ممكنه من الاستمرار فى العمل. وعندما أصابه المرض علم أن قد حان وقت العوده.

لهذا فقد انضم الى جماعة من الحجاج الآتين من بلاد العجم واشترك معهم فى مسيرة دامت حوالى (٨٥) ساعة متواصله، عبر ذلك السهل الموصل الى المدينة المنورة.

وبعدها ساروا فى تلك الهضاب كثيرة الوهاد والصدوع من أرض الحجاز حتى وصلوا الى مكة .. فهل قام بشعائر الحج يا ترى؟ (٤) حول هذه النقطة، هناك رأيان؛ الأول: يُحسن الظن بفالين ولا يشك فى

١-١ مجلة الاستشراق؛ م. س: ٩٥.

٢-٢ الاعلام للزركلى؛ م. س - ٢: ١٤٦.

٣-٣ قافلة الحبر؛ م. س: ٧٢.

٤-٤ بلاد العرب القاصية؛ م. س: ١٣٣.

ص: ١٩٠

إسلامه. والثاني خلاف ذلك. أمّا الرأى الأول فقد انفردت به صحيفة عربيّة في لندن، إذ كتبت تقول عن «فالين»: غادر العاصمة المصريّة عن طريق سيناء فالجوف وصولاً الى مكة المكرمة، حيث أعلن إسلامه وتلقّب ب «الحاج عبدالولي»، وأدّى فريضة الحج». وفي معرض دفاعها المبطن عن «فالين»، ولإبعاد الشبهات عنه، مضت الصحيفة تلك في سرد أدلّته الدفاع قائلة: يمتاز المستشرقون الاسكندنافيون (السويد، الدنمارك، فنلندا) عن زملائهم الأوربيين الآخرين (بريطانيا، فرنسا، ألمانيا، روسيا) والأمريكيين أيضاً، بأنّ رحلاتهم الى المنطقة ودراساتهم عنها إنما تمّت بدوافع عملية إجمالاً، على نقيض أبحاث ودراسات أخرى عربيّة كانت توظّف لخدمة أغراض السياسة الاستعماريّة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر».

وتضيف الصحيفة: «ومن بين عشرات المستشرقين الاسكندنافيين، يعتبر فالين (عبدالولي) الأكثر أهميّة. فهو أوّل من تجوّل في شمال الجزيرة العربيّة، ووصف عادات أهله وتقاليدهم، ليس انطلاقاً من حبّ المعرفة فقط، بل لأنه وجد في هذه المناطق مبتغاه الروحي والثقافي (.. هكذا!). ولم يكن اعتناقه الدين الاسلامي - كما كان عند عدد من الرحالة الغربيين - مجرد غطاء لتحقيق مآرب ومنافع خاصّة، وإنما كان إيماناً خالصاً (... هكذا أيضاً!) تمثّل في كتابات نشرها في بلاده، توضّح تعاليم الدين الحنيف وتزيل عنه شوائب علقت في أذهان الغربيين، في القرنين الماضيين».

وتستشهد الصحيفة بقول المؤرخ اللبناني «يوسف ابراهيم يزبك» الذي يقول: «نهج (الشيخ عبد الولي) في دراسته نهجاً علمياً إذ رجع الى مخطوطات عربيّة قديمة تعدّ من الينابيع في معرفة تاريخنا وجغرافيتنا، وقرأها بإمعان (...) ومع صدق الشيخ

ص: ١٩١

عبد الولي في إسلامه، ظلَّ الرجل اوروبي الاسلوب في إنشائه».

ثم تُعقَّب الصحيفة على ما تقدم:

«ولعلَّ هذا الاسلوب هو الذي مكَّن عبدالولي من التأثير الكبير في أوساط ودارسى اللغة العربية وآدابها وحضاراتها في الغرب، خلال تلك الفترة، فهو لم يقع أسير شكلية إيمانه الديني الجديد (..)»، بل أخذ منه الجوهر المناسب لعصره (..) وطرحه على الناس بجرأة علمية كانت مميزة في ذلك الوقت. ويؤكد الذين حضروا وفاته المبكرة أن آخر عبارة ردَّدها كانت «الحمد لله، الحمد لله».

وتختتم الصحيفة دفاعها:

«وعرفت بلاده وجامعته هلسنكي تحديداً، هذه الميزة. وكرمه عند وفاته بمدفن متواضع جداً، وضع فوقه حجر نقش عليه اسمه العربي «عبدالولي» وبالعربية أيضاً».

ولم يفت الصحيفة ذكر تسلّمه، عند رجوعه من الشرق، جائزة «الجمعية الجغرافية الملكية» في لندن، عام ١٨٥٠، بوصفه أحد أوائل الاوروبيين الذين اجتازوا شمال الجزيرة العربية، كما أن بلاده قد كرمته بدورها فعينه في كانون الثاني ١٨٥١ استاذاً لكرسى الدراسات الشرقية في جامعة هلسنكي (١).

ونجد لزاماً علينا التوقّف قليلاً، لمناقشة ما ورد آنفاً.

مناقشة ... وردود

وفي الوقت الذي لا- نوى فيه مناقشة بعض الآراء الواردة، التي ترقى الى الأخطاء؛ لأنّ ذلك لا مجال له في منهج البحث ... فإنّ من الممكن الردّ على ما نشرته الصحيفة المذكورة بما يلي:

أولاً: أن أدلّة الدفاع التي حشدتها ليس بمقدورها الصمود إزاء حثيات الاتهام الدافعة. بل نستطيع القول: إنّ الصحيفة لم تثبت إسلام فالين، ولم تدحض، في آن معاً، ضلوعه في مهمة سرية، إن لم يكن العكس.

ثانياً: أن طبيعة الإعداد لمهمّة فالين، وخلفيات انتدابه في المهمة، وما

ص: ١٩٢

رُصد لها من منحة مالية ... كلّ ذلك لم يكن حباً بسواد عيون بدو جزيرة العرب. بدليل أنه أنجز مهمة ... استحققت أن يُكافأ الرجل من الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية، وهي صاحبة اليد الطولى والتاريخ العريق في التخطيط للمهمات السريّة في المشرق الاسلامي.

ثالثاً: استعداده للعب دور العميل المزدوج، وعلى غرار ما يجري اليوم، واتفاقه مع وزارة الخارجية المصرية على تزويدها بالتقارير السريّة، عن الأوضاع السياسية، في شمال الجزيرة العربية .. هو توظيف ماكر لخدمة مهمته السريّة والتستر عليها، تحت هذا الغطاء المناسب.

رابعاً: ليس من المنطقي تكريم شخص يُرسل في مهمة خاصة خطيرة، ثم يعود وقد صبأ عن دينه، معتقاً ديناً مغايراً بل معادياً، وفق الرؤية الأوروبية الباقية حتى اليوم.

ولو كان فالين قد اعتنق الاسلام حقاً لناله بعض ما ينال روجيه غارودي اليوم. وما نال ليوبولد فايس (محمد أسد) الذي تبرأ منه حتى أهله!

إنّ حكاية التظاهر باعتناق الاسلام كانت إحدى المستلزمات الضرورية والمفاتيح الأساسية لنجاح المهمات السريّة الكبرى والتعرّف على المشرق الاسلامي، عن كذب.

خامساً: لم ينبر للدفاع عن إسلام فالين - ما عدا الصحيفة العربية حسب علمنا - حتى اولئك الذين يحسنون الظنّ بالاستشراق وينافحون عنه، كما هو الحال مع الاستاذ نجيب العقيقي؛ صاحب موسوعة «المستشرقون» الذي لم يذكر - من قريب أو بعيد - قصّة إسلام فالين، بل لم يصنّفه حتى في خانة فئة المستشرقين التي أنصفت الاسلام، وإن لم تدن به، قولاً وعملاً وكتابه، فضلاً عن ذكره الذين اعتنقوا الاسلام منهم، حسب رأيه، كبير كهارت ولم يشر الى فالين!

ورغم ذلك، فإنّ العقيقي ربما كان أميل الى الاتهام منه الى أي شيء

ص: ١٩٣

آخر، وذلك حين يقول عن فالين:

«... رحل الى الشرق فطوّف، خلال ست سنوات، بمصر وجزيرة العرب وبغداد واصبهان وبصرى ودمشق، متزيماً بزى البدو، متطبّعاً بطباعهم، متسمّياً باسم عبد الولي ... حاملاً حقيبه مملوءة بالعقاير فأحبه القبائل ويسّرت له دراسة عاداتها ولهجاتها واستقصاء حالة بلادها الطبيعية والجغرافية» (١).

سادساً: ثم ماذا يعنى أن تكون صورته وهو في زى شيخ عربي ذي عمامة وقباء ونطاق ممّا يزين جامعة هلسنكي الى عهد قريب، ولعله لا يزال الى الآن؟ (٢) سابعاً: رغم ندره التطرّق الى مهمة فالين، من قبل الكتّاب الغربيين، إلّا أن إشارة وردت في كتاب «الفارس العربي» للكاتب البريطاني «سيتون ديردون»، ساهمت في إزاحة بعض الستار عن حقيقة مهمّة فالين.

يقول «ديردون»، وهو يتحدّث عن الرحالة الانكليزي «بورتون»: «قبل أن يتوجه الى مهمته (التي تنطوي على الدخول الى جزيرة العرب والحجاز على الأخص، ومن ثم الوصول الى مكة المكرمة في موسم الحج للكتابة عنها بالتفصيل)، علم أن رحاله يدعى «فالين Wallin» كان قد تمكن من الدخول الى مكة والحج مع الحجاج في ١٨٤٥، لكنه لم يستطع تدوين شيء عما فعل ورأى؛ لأنه كان خائفاً على حياته، وخاصة بعد أن لاحظ أن اثنين من اليهود قد اكتشف أمرهما في مكة تلك السنة فقتلها الحجاج الهائجون شنقاً، فقرر (أي بورتون) أن يستفسر منه عن أشياء كثيرة، قبل أن يقدم على الاضطلاع بمهمته، وكتب له بذلك، لكن كتابه لم يصل الى «فالين» إلّا بعد أن كان قد توفي ...» (٣).

ونترك للقارئ اللبيب مهمة الاستنتاج عمّا يعنى هذا التنسيق بين الرحالتين ... وماذا يعنى خوف فالين حينما افتضح أمر اليهوديين؟!..
ألا يكاد المرعب أن يقول خذوني؟!
ثامناً: أن إصراره على اختراق

١- ١ المستشرقون للعقيقي؛ م. س - ٣: ١٠٤٠.

٢- ٢ الاعلام للزركلي؛ م. س - ٢: ١٤٧.

٣- ٣٣٥٩١ Deardon Seaton The Arabian Knight A Study of Sir Richard Burton ,London

. «نقلًا عن موسوعة «العتبات المقدسة- قسم مكة، للمرحوم جعفر الخليلي، ط ٢، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م: ٢٩٥، هامش ١.

أما «بيتر برينت» فحين تساءل حول عمّا إذا قام فالين بشعائر الحج أم لا ... عقب قائلاً: «لكنه- أي فالين- لا يذكر شيئاً عن مناسك الحج، ويبدو أن مرضه قد أقعده ومنعه عن القيام بذلك. وإذا فعل ذلك فلم يستطع تسجيله في ملاحظاته، إذ كان كل ما يرغب فيه الآن هو مغادرة شبه الجزيرة»- يُنظر كتابه «بلاد العرب القاصية»، م. س: ١٣٣.

ص: ١٩٤

قلب جزيرة العرب يدلّ على أنّ مهمته السريّة لم تبلغ نهايتها. وظلّ يواصل المحاولة تلو الأخرى لنيل مأربه والوصول الى هدفه. فقد عاد في آذار (مارس) ١٨٤٦ الى القاهرة، إلّا أنه لم يطل الإقامة فيها، بل غادرها في رحلة قصيرة الى فلسطين خلال كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٦ عاد بعدها الى القاهرة. لكن رحلته الأطول كانت الثالثة. ففي كانون الأول ١٨٤٧ غادر مصر عن طريق البحر الأحمر الى الشاطئ الغربي لجزيرة العرب (١) وقطع جبال تبوك ثم اتجه الى حائل؛ لكي يحاول مرّة أخرى الذهاب الى الرياض، لكن الامير طلال بن الرشيد الذي اكتشف حقيقة أمره نصحه بالأّ يفعل، وهكذا اتجه صوب بغداد، لكنه بلغ البصرة مفلساً (٢) ليعود الى مصر عبر دمشق فيروت، ثم عن طريق البحر الى الاسكندرية، ليصل القاهرة في حزيران (يونيو) ١٨٤٩. وأخيراً عاد الى الاسكندرية متوجّهاً الى هلسنكي مروراً بلندن لتسلم جائزة «الجمعية الجغرافية الملكية» سنة ١٨٥٠.

وحال وصوله فنلندا عين أستاذاً للغات الشرقية في جامعة هلسنكي. وشرع في الحال يخطط لرحلة جديدة الى الجزيرة العربية والتي أراد لها أن تستغرق ست سنوات .. لكنه توفي قبل أن ينهي الاستعدادات لذلك (٣) إذ مات في ٢٣ تشرين الأول (اكتوبر) ١٨٥٢، ولما يتم الحادية والأربعين من العمر. آثاره .. ومذكراته.

ترك فالين آثاراً منها: أهم الفروق بين لهجات العرب المتأخرين والمتقدمين، ونشر تائية ابن الفارض ومطلعها: أو مبيض برق ... مع شرحها للشيخ عبدالغنى النابلسي، وكان قد نسخها بخطه، بترجمة لاتينية وتعليق (هلسنكي ١٨٥٠). وله مذكرات محاضراته في الكلية. ومخطوطات عربية في مكتبته. أما يومياته في الشرق، وهي في وصف ما رآه أيام إقامته في البلاد العربية، فقد طبعت بعد

١-١ صحيفة الحياة: م. س.

٢-٢ قافلة الحبر؛ م. س: ٧٢.

٣-٣ مجلة الاستشراق؛ م. س، وقافلة الحبر؛ م. س.

ص: ١٩٥

وفاته، ووقعت في خمسة مجلدات (١)، وقد أعيد في بيروت سنة ١٩٩٢ إصدار الطبعة الثانية من كتاب «صور من شمال جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر» التي قام بترجمتها سمير سليم شبلي، وكتب مقدمتها فاروق أبو شقرا أستاذ الدراسات العربية في جامعة هلسنكي.

الهوامش:

١-١ الاعلام للزركلي؛ م. س- ٢: ١٤٧، والمستشرقون للعقيقي؛ م. س- ٣: ١٠٤١.

ص: ١٩٦

شخصيات من الحرمن الشريفين (١٠) ابو ذر الغفارى «وحده»

ص: ١٩٨

شخصيات من الحرمين الشريفين (١٠) ابو ذر الغفارى «وحده»

محمد سليمان

كان معلماً بارزاً فى فكره وعلمه ووعيه، وفى عبادته وجهاده، وفى زهده وثورته، وفى صدقه وإخلاصه وحبّه لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وآله وفى التزامه بما عاهد الله تعالى عليه بمقارعة الظالمين وكشف ظلمهم وزيفهم، والدفاع عن المحرومين. حتى غدا بحق مدرسة نائرة جواله، لا تعرف التوقف ولا الاستقرار، ولا تبحث عن الطمأنينة والراحة، ولا تخشى فى الله لومة لائم.

وبقى هذا الرجل الصحابى الجليل حياة متحركة نائرة وقمة عالية شامخة رائدة فى مواقفها، مثالية فى صدقها، شجاعة فيما تقوله وتفعله، فلا تهزه المحن، ولا يرهبه وعيد الطغاة، ولا يخيفه تهديدهم، ولا تغريه أموالهم، ولا تلينه ابتساماتهم. كان سباقاً للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وكان عملاقاً فى تصديه لكل انحراف فى الأمة ... كان يريد لهذه الأمة ولحكماها أن يعيشوا الإسلام سلوكاً وعبادةً وجهاداً وحكماً وإدارةً ... كان يريد للحكام أن يكونوا خداماً صادقين للأمة لا جابرةً عليها، وكان يريد للأمة أن لا تكون ذليلة صاغرة أمام حكماها إذا ما انحرفوا، وأن لا تسير خلفهم معصوبة العينين، بل موقظة لهم، ومدافعة عنهم إذا

ص: ١٩٩

ما صدقوا ... لهذا نراه- قد ركب المركب الصعب- يصارع هاتين النزعتين: نزعة الطغيان لدى الحكام المستبدين والأغنياء المترفين، ونزعة الخنوع والصغار في الأمة. فراح يلاحق الحكام والمترفين ويعلنها بلا- هواده صرخة مدوية عالية كاشفة بذخهم وتعاليهم وكبرياءهم وبعدهم عن الله وشرائعه ... ويبشّرهم بعذاب أليم..

وأيضاً راح يلاحق الأمة ليوظها من سباتها ويشحذ هممها المعطلة؛ لكي تقف أمام المترفين حكماً وأفراداً لتقليلهم عن طريقها، وتبعدهم عن مسيرتها، وإلا حلت بها الكارثة واستحقت القارعة.

وراح صوته هذا مدوياً عبر القرون، وغدا انشودة ترددها شفاه الثوار جيلاً بعد جيل. إنه أبو ذر الغفاري. «يمشى وحده ويموت وحده ويبعث وحده».

*** مع أنّ الاختلاف وقع في تسميته، فهو برير بن جندب، وهو برير بن جنادة، وهو جندب بن عبدالله، وهو جندب بن السكن أو جنادة بن السكن، وهو يزيد بن جنادة (١).

إلا أنّ جندب بن جنادة هو الاسم الذي عرف به، وهو بعد ذلك ابن سفيان ابن عبيد من بني غفار، من كنانة ابن خزيمه الحجازي، بينما ساق ابن سعد في طبقاته نسبه الى غفار بن مليل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة؛ لينتهي به الى خزيمه ابن مدركة ابن إلياس بن مضر بن نزار.

هذا أبوه ونسبه، وأما أمه فهي رمله بنت الوقعة أو الرقعة وهي أيضاً من بني غفار (٢).

كنيته: «أبو ذر» و لقبه «الغفاري» وقد اشتهر بهما، وطغى على اسمه الذي بات لا يعرف إلا عند الخاصة.

وأما صفاته فقد كان آدم ضخماً جسيماً كث اللحية والشعر وقد غلب عليه

١-١ سير أعلام النبلاء للذهبي.

٢-٢ مختصر تاريخ دمشق لابن منظور حرف الذال، الجزء الثامن والعشرون: ٢٧٧.

ص: ٢٠٠

الضعف، وأرهقه الفقر وقله ذات اليد، ولكنه مع كل ما هو فيه علا إيمانه حتى جاوز عنان السماء. وكان رأساً في الزهد والصدق والعلم والعمل قوالاً بالحق لا تأخذه في الله لومة لائم على حدة فيه.. وقد آخى رسول الله صلى الله عليه وآله بينه وبين سلمان الفارسي. فاتته معركة بدر، وشهد فتح القدس (١).

إسلامه:

أما كيفية إسلامه، فالذى يظهر من بعض المصادر أن أبا ذر كان موحداً، فقد عرف أنه كان يتعبد ويكثر من العبادة قبل إسلامه، ففي رواية عبد الله بن الصامت عن أبي ذر نفسه أنه قال: إني صليت قبل أن يُبعث النبي بستين. قلت: أين كنت توجه؟

قال: حيث وجهني الله. كنت أصلي حتى إذا كان نصف الليل سقطت كأني خرقة ...

وفي رواية أخرى، عن عبد الله ابن الصامت أيضاً قريبه من الأولى: ... قال:

وقد صليت يا بن أخي قبل أن ألقى رسول الله صلى الله عليه وآله بثلاث سنين.

قلت: لمن؟

قال: لله.

قلت: فأين توجه؟

قال: حيث يوجهني ربي، أصلي حتى إذا كان آخر الليل ألقى كأني خفاء (كساء) حتى تعلقني الشمس (٢).

وقد روى عن ابن عباس رضوان الله عليه في قصة إسلام أبي ذر أنه قال:

ألا أخبركم بإسلام أبي ذر؟ قلنا: بلى، قال: قال أبو ذر: كنت رجلاً من غفار، فبلغنا، أن رجلاً قد خرج بمكة يزعم أنه نبي، فقلت لأخي: انطلق الى هذا الرجل

١-١ سير اعلام النبلاء للذهبي ٢: ٤٧.

٢-٢ انظر في ذلك: مختصر تاريخ دمشق ٢٨: ٢٧٨ وغيره.

ص: ٢٠١

فكلمه، واثنتي بخبره، فانطلق فلقيه ثم رجع، فقلت: ما عندك؟ قال: والله، لقد رأيت رجلاً يأمر بالحقّ، وينهى عن الشرّ، فقلت: لم تشفني من الخبر، فأخذت جراباً وعصاً ثم أقبلت الى مكّة، فجعلت لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه، وأشرب من ماء زمزم، وأكون في المسجد. فمرّ عليّ فقال: كأن الرجل غريب؟ قلت: نعم، قال:

فانطلق الى المنزل، فانطلقت معه، لا يسألني عن شيء، ولا أخبره. فلما أصبحت غدوت الى المسجد لأسأل عنه، وليس أحد يخبرني عنه بشيء، فمرّ بي عليّ فقال: ما آن للرجل أن يعود؟ قلت: لا، قال: ما أمرك، وما أقدمك هذه البلدة؟ قلت: إن كتمته عليّ أخبرتك، قال: فإنني أفعل، قلت: بلغنا أنه قد خرج رجلٌ يزعم أنه نبي، فأرسلت أخى ليكلمه، فرجع ولم يشفني من الخبر، فأردت أن ألقاه. قال: أما إنك قد رشدت لأمرك، هذا وجهي إليه فاتبعني، فادخل حيث أدخل، فإنني إن رأيت أحداً أخافه عليك قمت الى الحائط، وامضى أنت. قال:

فمضى، ومضيتُ معه حتى دخل، ودخلت معه على النبي صلى الله عليه وآله، فقلت: يا رسول الله، أعرض عليّ الإسلام، فعرضه عليّ، فأسلمتُ مكاني، فقال لي: يا أبا ذر، اكنتم هذا الأمر وارجع الى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل. قلت: والذي بعثك بالحق لأصْرُخَن ما بين أظهركم.

فجاء الى المسجد وقريش فيه، فقال: يا معشر قريش، إنني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فقالوا: قوموا الى هذا الصابئ فقاموا، فضربتُ لأموت، وأدركني العباس، فأكبّ عليّ ثم قال: ويحكم! تقتلون رجلاً من غفار، ومتجركم وممركم على غفار؟ فأقلعوا عني.

فلما أصبحت الغد رجعت، فقلت ما قلت بالأمس، فقالوا: قوموا الى هذا الصابئ، فضرّبوني، فأدركني العباس، فأكبّ عليّ (١). وعن ابي ذر قال: كنت رابع الإسلام، أسلم قبلي ثلاثة، وأنا الرابع، فأتيت النبي صلى الله عليه وآله فقلت: سلام عليك يا نبي الله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً

ص: ٢٠٢

عبده ورسوله. فرأيت الاستبشار في وجه رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: «من أنت؟» قلت: «أنا جندب رجل من بني غفار، قال: فرأيتها في وجه النبي صلى الله عليه وآله حيث ارتدع، كأنه ودّ أني كنت من قبيلة أرفع من قبيلتي. قال: وكنت من قبيلة فيها رقة (قلّة) كانوا يسرقون الحاج بمحاجن لهم (١). وهناك روايات أخرى في أول اسلامه اكتفينا بهذه دونها.

سيرته:

كان أبو ذر معروفاً في قومه وعند غيرهم بأنه رجل شجاع كريم وعزيز وكبير وعارف وحكيم.. وقبل حمله لهذه الصفات؛ هناك من يقول إنه كان أيضاً من قطاع الطرق وقد لا تكون هناك غرابه في ذلك- فهو ابن بيته ومحيطه الذي نشأ فيه- وإن كنت لا أميل إليه ولا تطاوعني نفسي في ذكر ما قيل، فدراستي لأبي ذر واطلاعي على ما يتحلى به هذا الرجل من نبل وشرف حتّى في جاهليته يمنعي كلّ ذلك وغيره عن تصديق هذه الرواية. تقول الرواية: كان أبو ذر رجلاً يصيب الطريق، وكان شجاعاً ينفرد وحده بقطع الطريق ويغير على الصّيرم في عمايه الصبح على ظهر فرسه، أو على قدميه كأنه السبع، فيطرق الحي، ويأخذ ما يأخذ (٢)، ثم تمرد على عادات قومه السيئة قبل إسلامه وعرف بالصلاح..

فلما قذف الله تعالى في قلبه الإسلام تحولت حياته الى حياةٍ خصبةٍ معطاء، وغنيةٍ بالعبر والمثل والدروس، وتجسيد للقيم يثير العجب والإجلال له، وإضافة الى قوة الإيمان وصلابته التي يتمتع بها أبو ذر، ورسوخ جذوره في نفسه المباركة، وإضافة الى زهده ونسكه وشجاعته وحلمه ... كان هناك الصدق الذي أخذ بعداً عظيماً واسعاً في حياته الايمانية والجهادية، هذه الصفة التي تحلّى بها خلقه الشريف ولم يحد عنها قيد أنملة أبداً. ميّزته عمّا حوله من الصحابة والتابعين. فكان بحق من أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون (٣)

. بل تفرّد بها حتى كاد أن لا يوازيه

١-١ مختصر تاريخ دمشق ٢٨: ٢٨٣-٢٨٥.

٢-٢ مختصر تاريخ دمشق ٢٨: ٢٨٤-٢٨٥.

٣-٣ البقرة: ١٧٧.

ص: ٢٠٣

فيها أحد. وكان أبا ذر خلق للصدق، وهو جدير به.

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله فيه: «ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء بعد النبيين امرءاً أصدق لهجةً من أبى ذر».

وفى رواية أبى الدرداء: «ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء من ذى لهجة أصدق من أبى ذر» (١).

حقاً لقد كانت شهادة عظيمة من رسول الله صلى الله عليه وآله الذى لا ينطق عن الهوى لأبى ذر، يقول الدكتور الجميل بعد ذكره لتلك الرواية: أعظم صفة لأعظم رجل، من أعظم نبى ... إنها صدق اللهجة، وهى من أجل دقائق النعوت الموسوم بها أهل الصدق.

وهى نادرة فى عنصر البشر، وجرثومة الناس التى امتزج طبعها بشهوة الدنيا، وحب الحياة، وكلفوا بزخرف الفانية وتهالكوا عليه.

ولا جرم أن أبذر المشهود بصدق لهجته من النبى الصادق المصدق، لا جرم أنه حرى به وقمين بشخصه أن يصدق عليه أيضاً قوله

صلى الله عليه وآله: «يرحم الله أبا ذر ...

يمشى وحده ... ويموت وحده ... ويبعث وحده» (٢).

لقد كلفه صدقه أن يعيش وحيداً، وأن يعيش بعيداً، وأن يموت قريباً ...

لقد تمرّد أبوذر على واقعه كله بعد فترة من نشأته فى قبيلة غفار، التى عرف أفرادها واشتهر رجالها بأنهم قطاع طرق، وبأنهم سادة

السطو والسرقة والغدر والقتل، رجل تمرّد على هوى نفسه وعلى بيئته التى ولد فيها ونشأ وترعرع بين أحضانها، وراح يصدع بأن

الصدق زينة الرجل، وجمال له ... وراح يربى نفسه على قول الحق ولهجة الصدق مهما كلفه ذلك من تغريب وتبعيد وتعذيب ... ولم

يكتف بذلك فقد فاجأ الجميع بإيمانه، وصدع به صرخة مدوية لا غموض فيها تهز ما حوله، جاهراً بشهادة لا إله إلا الله وأن محمداً

رسول الله، أعلنها فى وسط لا- معين له به ولا- ملجأ يلجأ إليه ولا- مأوى يأوى وكانت قريش بكامل عزها وجبروتها وطغيانها ... فنال

بذلك وسام رابع رجل أو خامس رجل لينضم الى السابقين

١- ١ انظر أحمد والترمذى وابن ماجه والطبرانى ...

٢- ٢ صحابة النبى صلى الله عليه وآله، الدكتور السيد الجميل: ٢٥٠.

ص: ٢٠٤

الأولين، أولئك المقربون.

إنها صرخة الحق التي أطلقها أمام أعين الظالمين، وكادوا ينكلون به ويقتلونه، بعد أن أذاقوه سوء العذاب .. حتى غشى عليه مرات عديدة، ولولا- أن تدخل هنا العباس بن عبدالمطلب ليقتلوه، فقد راح يحذرهم ويخيفهم من عواقب ما تقترفه أيديهم، وراح أيضاً يذكرهم بأن أبا ذر هذا من غفار- بعد أن أنساهم طغيانهم وحقدهم ذلك- وأهلها معروفون من هم، فإن تعرضوا له بالأذى، فإن قبيلة غفار ستعرض لقوافلكم التجارية إذ إن طريقكم إليه لا تحويل عنه ...

فعندئذ توقفوا عن تعذيبه، وأطلقوا سراحه، فغادر الرجل مكة لا الى الحبشة كما هاجر إليها إخوانه من المسلمين، ولكن الى عشيرته وقومه، لينذرهم، وكان ذلك استجابةً لأمر رسول الله صلى الله عليه و آله ... فهل أنت مبلغ عنى قومك ...

عاد الى قومه وبقي فيهم، ولم يهاجر الى المدينة إلا بعد غزوة تبوك؛ ليبدأ من هناك مرحلته التبليغيّة، فالأقربون أولى بالمعروف، وهل هناك معروف أعظم من هدايتهم لدين الله تعالى، وإنقاذهم ممّا هم فيه من انحراف وفجور وسطو واعتداء على الأبرياء وطرق التجارة، التي قدر لغفار أن تكون مركزاً لمرورها؟! وبالتالي تخليص الناس من أذاهم، الى غير ذلك من المنافع إذا ما آمنوا واتفقوا. فكان بحق رسول خير لهم..

وفعلما كانت البداية حيث علا في أوساطهم قول الحق بكل وضوح وصراحة صادقة: أن هلموا للإيمان وأن انطقوا بالشهادتين تناولوا بذلك عز الدنيا وخير الآخرة. ولأن دعوته نبعث من قلب صادقٍ فما أسرع ما لاقت آثارها وجنت ثمارها ...! أخذنا يا أباذر إلى حيث نبع الخير والبركة إلى حيث رسول السماء؛ لكي نضع أيدينا على يديه المباركتين فنتزوّد منه، ونعاهده على أن نكون جنداً له، ونضع سيوفنا الى جنب سيوف المسلمين لنصون الحق وأهله.. ونترك كل ما

ص: ٢٠٥

اقترفناه من حيف وظلم وأذى للآخرين. قدم قومه على رسول الله صلى الله عليه وآله يتقدمهم الصحابي الجليل ابو ذر الغفاري ليسمع قوله صلى الله عليه وآله:

«غفار غفر الله لها ... وأسلم سالمها الله».

علمه:

كان أبوذر عالماً عارفاً بالقرآن والحديث، أشاد بعلمه جلّ الصحابة، وقد سئل الإمام علي بن أبي طالب عنه، فقال: عَلِمَ العلم ثم أوكى (أوكى علي ما فى سقائه: إذا شدّه بالوكاء: كلّ سير أو خيط يشدّ به فم السقاء ...) فربط عليه ربطاً شديداً.

وفى قول آخر له عليه السلام: أبو ذر وعاء مُلئ علماً ثم أوكى عليه فلم يخرج منه شيء، حتى قبض.

وفى قول ثالث له عليه السلام عن أبي ذر: وعى علماً عجز فيه (عجز عن كشف ما عنده من العلم) وكان شحيحاً حريصاً؛ شحيحاً على دينه، حريصاً على العلم، وكان يكثر السؤال، فيعطى ويمنع، أما إنه قد مُلئ له فى وعائه حتى امتلأ.

وفى عبارته عليه السلام: «عجز فيه» يبدو أنه أراد أعجز عن كشفه. وقد ورد فى طبقات ابن سعد: أعجز عن كشف ما عنده من العلم. والذي يبدو أنه (أوكى عليه) لأنه لم يجد من يحمله ويستمع اليه كما نرى هذا فى موضوع المقاطعة الآتى، وهذا ظلم آخر يضاف الى مظلومية الرجل. وإلا ما فائدة العلم الذى يبقى مكنوزاً فى صدر صاحبه حتى القبر؟ ثم إظهار العلم للآخرين مستحب، بل قد يكون أحياناً واجباً، وفيه أجر عظيم. ولا أظنّ أبا ذر كان فيه من الزاهدين.

يقول مالك بن أوس فى روايته:

قدم أبو ذر من الشام، فدخل المسجد وأنا جالس، فسلم علينا، وأتى ساريه، فصلى ركعتين تجوز فيهما، ثم قرأ: ألهاكم التكاثر حتى ختمها، واجتمع الناس

ص: ٢٠٦

عليه، فقالوا له: يا أبا ذر، حدثنا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال لهم: سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: في الإبل صدقتها، وفي البقر صدقتها، وفي البر صدقته، من جمع ديناراً أو درهماً، أو تبراً، أو فضة لا يعده لغريم، ولا للنفقة في سبيل الله كوي به». قلت: يا أبا ذر، انظر ما تخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فإن هذه الأموال قد فشت. فقال: من أنت يا بن أخي؟ فانتسبت له، قال: قد عرفت نسبك الأكبر، ما تقرأ والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله....

وكثيراً ما كان يردد هذه الآية وآية ألهاكم التكاثر حتى زرم المقابر.

رواياته:

عرف عنه أنه كان مواظباً على ملازمته لرسول الله صلى الله عليه وآله والاستفادة منه، وكان يطيل الجلوس عنده، حتى إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يتدئ أبا ذر إذا حضر، ويتفقده إذا غاب، وكان أكثر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله سؤالاً؛ لهذا فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله قرابته ٢٨٠ حديثاً، وراح بعض الصحابة يروون عنه، فقد روى عنه ابن عباس وأنس بن مالك وحذيفة بن أسيد وابن عمر وجبير بن نفير وأبو مسلم الخولاني وزين بن وهب وأبو الأسود الدؤلي وربيع بن جراش والمعمر بن سويد وغيرهم ...

ومما رواه عن رسول الله صلى الله عليه وآله عن جبريل، عن الله تبارك وتعالى، أنه قال: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا، يا عبادي، إنكم الذين تخطؤون بالليل والنهار، وأنا الذي أغفر الذنوب ولا أبالى، فاستغفروني أغفر لكم».

يا عبادي كلكم جائع إلأمن أطعمته، فاستطعموني اطعمكم.

يا عبادي كلكم عار إلأمن كسوته، فاستكسوني أكسكم.

ص: ٢٠٧

يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، لم ينقص ذلك من ملكي شيئاً.
يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل منكم، لم يزد ذلك في ملكي شيئاً.
يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل واحد منهم ما سأل، لم ينقص ذلك من ملكي شيئاً، إلا كما ينقص البحر أن يُغمس المحيط غمساً واحداً.

يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحفظها عليكم، فمن وجد خيراً، فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومنّ إلا نفسه» (١).
ومن رواياته أيضاً، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يكون في جهنم عقبه كؤود لا يقطعها إلا المخفون»...
وفي المصافحة والمعانقة سئل أبوذر: هل كان رسول الله صلى الله عليه وآله يصافحكم إذا لقيتموه؟
قال: ما لقيني قط إلا -صافحني، ولقد جئت مرة، فقيل لي: إن النبي صلى الله عليه وآله طلبك، فجئت، فاعتنقني، فكان ذلك أجود وأجود.

وقال أيضاً: أرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في مرضه الذي توفي فيه، فأتيته، فوجدته نائماً، فأكبت عليه، فرفع يده فالتزمني.
ومن الجدير بالذكر أن أبا ذر هو أول من حيا رسول الله صلى الله عليه وآله بتحية الإسلام (٢).
دعاء الرسول صلى الله عليه وآله له ووصاياه:
راحت أذعية رسول الله صلى الله عليه وآله ووصاياه تواكب أبازر وهو يخطو خطواته في طريقه اللاحب. فكان صلى الله عليه وآله كثيراً ما يدعو له حين يراه وفي غيبته، راجياً من الله

١-١ سير اعلام النبلاء ٢: ٤٨.

٢-٢ مختصر تاريخ دمشق ٢٨: ٢٨١.

ص: ٢٠٨

تعالى تسديده وإعانتة على تجاوز الصعاب والمشاق التي يعلم رسول الله صلى الله عليه وآله بأن الرجل سيواجهها في حياته ... ويظهر من ذلك أن ما كان مكلفاً به أمر مهم وخطير وأن مسيرته شائكة، وأن كل ما فعله رضوان الله عليه كان بأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله ووفقاً لرغبته صلى الله عليه وآله ورضاه.

يقول: أوصاني حبي (أى رسول الله) بخمس: ... وأن أقول الحق ولو كان مرّاً ... «وكيف أنت عند ولائى يستأثرون عليك» قلت (يا رسول الله): أضع سيفى على عاتقى وأضرب حتى ألحقك ...

أمرنا رسول الله ألا نغلب على أن نأمر بالمعروف، وننهى عن المنكر، ونعلم الناس السنن.

قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا أبا ذر، أنت رجل صالح، وسيصيبك بعدى بلاء»

قلت: فى الله؟

قال: «فى الله».

قلت: مرحباً بأمر الله.

فمنذ أول بادرة إيمانية ظهرت على لسان أبى ذر وهى نطقه بالشهادتين ... كلّفه رسول الله صلى الله عليه وآله بأن يكون داعيةً ومبلغاً لرسالة السماء.

بمن تأمرنى يا رسول الله؟

فأجابه صلى الله عليه وآله: ترجع الى قومك حتى يبلغك أمرى ...

فهل أنت مبلغ عنى قومك ... عسى الله أن ينفعهم بك ويأجرك فيهم؟

وأين؟! إنها دعوة خطيرة، فهى لقومه غفار، هذه القبيلة التى عرفت بالجاهلية من بين قبائل العرب بقسوتها وشدتها وحبها للغزو وتفانيها من أجل السطو والنهب الذى كان مصدر عيشها.

نعم بعثه صلى الله عليه وآله مبلغاً لمفاهيم السماء وقيمها فى عشيرته، التى كانت مضرب المثل بين قبائل العرب وغيرهم فى السطو وبث الرعب فى قلوب المارة، حتى صار المار

ص: ٢٠٩

بديارهم يحسب ألف حساب قبل أن يخطو خطوة في طريقه ... كانوا يرقبون الحاج بمحاجن لهم. وكانوا حلفاء الليل والظلام. والويل والويل لمن يسلمه الليل الى واحد من قبيلة غفار كما يقول خالد محمد خالد.

فعملية التغيير التي ألقاها رسول الله صلى الله عليه وآله على عاتق هذا العبد الصالح ليست أمراً سهلاً أبداً؛ لهذا نرى رسول الله صلى الله عليه وآله يلاحق أبا ذر في تحركاته، ويكثر له من الدعاء في أن يسدده الله تعالى وأن يثبتته. وفعلاً استطاع أبو ذر - وكما تقول مصادر التاريخ - أن يهدى أكثر من نصف قبيلته وبقى النصف الآخر ليعلن إسلامه على يدى رسول الحق صلى الله عليه وآله. وكان من أدعيته صلى الله عليه وآله التي طالما كررها له:

اللهم أغفر لأبى ذر وتب عليه.

آجرك الله يا أبا ذر ...

أما من وصاياهم صلى الله عليه وآله الأخرى:

فمن أبى ذر: دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: «يا أبا ذر ألا أوصيك بوصايا إن أنت حفظتها نفعك الله بها؟ قلت: بلى بأبى أنت وأمى.

قال: جاور القبور تذكر بها وعيد الآخرة، وزرها بالنهار، ولا تزرها بالليل، واغسل الموتى؛ فإن في معالجة جسد خاو عضة، وشيع الجنائز، فإن ذلك يحرك القلب ويحزنه، واعلم أن أهل الحزن في أمن الله، وجالس أهل البلاء والمساكين، وكُل معهم، ومع خادمك، لعل الله يرفعك يوم القيامة، والبس الخشن الصيفيق من الثياب تذللًا لله - عز وجل - وتواضعاً؛ لعل الفخر والبطر لا يجدان فيك مساغاً، وتزين أحياناً في عبادة الله بزينة حسنة تعففاً وتكرماً، فإن ذلك لا يضرك - إن شاء الله - وعسى أن يحدث لله شكراً» (١).

ص: ٢١٠

ومن أقواله ووصاياه التى تتسم بالحكمة:

كانت له أقوال ووصايا تتسم بالحكمة وتنم عن خبرة وتجربة وعن إيمان متجذر فى نفسه وقلبه، كما تكشف عن أن الرجل يتمتع بعقل قوى وذهن حاد ونفس صلبة وهمة عالية.. كما أن هذه الوصايا تبين لنا أن أباذر كان مخلصاً صادقاً محباً لهذه الأمة وراعياً لها لهذا نراه لم يبخل عليها بشيء، ومن كان سخياً بنفسه وحياته فى سبيلها فهل نراه يبخل عليها بكلماته وأقواله ووصاياه إن رأى فيها مصلحة لها؟!

قالوا: يا أبا ذر، إنك امرؤ ما يبقى لك ولد.

فقال: الحمد لله الذى يأخذهم فى الفناء، ويدخرهم فى دار البقاء.

قالوا: يا أبا ذر، لو اتخذت امرأة غير هذه؟

قال: لأن أتزوج امرأة تضعنى أحب الي من امرأة ترفعنى.

قالوا: لو اتخذت بساطاً ألين من هذا؟

قال: اللهم غفراً، خذ مما خولت ما بدا لك.

- بعث حبيب بن مسلمة الى أبى ذر وهو بالشام ثلاثمائة دينار، وقال: استعن بها على حاجتك، فقال أبوذر: ارجع بها اليه، فما أحد أغنى بالله منا، لنا ظل نتوارى به، وثلة من غنم تروح عليها، ومولاه لنا تصدقت علينا بخدمتها، ثم إنى لأتخوف الفضل.
- إن لك فى مالك شريكين: الحدثان (الليل والنهار) والوارث، فإن استطعت ألا تكون أبخس الشركاء حظاً فافعل.
- وشمه رجل: فقال له: يا هذا، لا تغرق فى شتمنا، ودع للصالح موضعاً، فإننا لا نكافئ من عصى الله فىنا بأكثر من أن نطيع الله فيه.

ص: ٢١١

- إنى لأقربكم مجلساً من رسول الله صلى الله عليه و آله يوم القيامة، إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله يقول: «إن أقربكم منى مجلساً يوم القيامة من خرج من الدنيا بهيئة ما تركته فيها» وإنه والله ما منكم أحد إلا وقد تشبث منها بشيء.

- وقال رسول الله صلى الله عليه و آله: والذي بعثك بالحق لا لقيتك إلا على الذى فارقتك عليه.

- كان قوتى على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله فى كل جمعة صاعاً، فلست بزائد عليه حتى ألقاه.

- دخل شباب من قريش على أبى ذر- ممن يريدون إيذاءه- فقالوا له:

فضحتنا بالدنيا، وأغضبوه، فقال: ما لى وللدنيا، وإنما يكفى صاع من طعام فى كل جمعة، وشربة من ماء فى كل يوم.

إلى عند ذلك من الوصايا النافعة والأقوال الحكيمه..

مواكبة رسول الله صلى الله عليه و آله له:

حقاً لقد تربي هذا الصحابى الجليل فى بيت النبوة فنهل من أخلاقها، وتأدب بآدابها. وكان رسول الله صلى الله عليه و آله يواكبه فإن وجد فيه ما يشين نبيه عليه، وإن وجد فيه خيراً ثبته عليه، وكان أبو ذر طوع بنان رسول الله صلى الله عليه و آله منقاداً له أيما انقياد، ويسمع منه ويقتدى به ...

يقول ابن سويد: نزلنا الربدة، فإذا رجل عليه برد، وعلى غلامه برد مثله، فقلنا له: لو أخذت برد غلامك هذا فضممته الى بردك هذا فلبسته كانا حلّة (الحلة عند العرب ثوبان، ولا تطلق على ثوب واحد)، واشتريت لغلامك برداً غيره.

قال: إنى سأحدثكم عن ذلك: كان بينى وبين صاحب لى كلام، وكانت امه أعجمية، فلتت منها. فأتى النبى صلى الله عليه و آله ليعذره منى. (يقال: من يعذرنى من فلان؟ أى من يقوم بعذرى إن أنا جازيته بسوء صنيعه).

ص: ٢١٢

فقال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا أبا ذر، ساببت فلاناً؟» فقلت: نعم، قال: «فذكرت أمه؟» فقلت: من سب الرجال ذكر أبوه وأمه، فقال لي: «إنك امرؤ فيك جاهلية» قلت: على حال ساعتى من الكبر؟ قال: «على حال ساعتك من الكبر، إنهم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه، وليلبسه من لباسه، ولا يكلفه ما يغلبه».

سمع رسول الله صلى الله عليه وآله أبا ذر يقول حَدَّثَانِ إِسْلَامَهُ لِابْنِ عَمِّهِ: يَا بْنَ الْأُمَّةِ، فَقَالَ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «مَا ذَهَبَتْ عَنْكَ أَعْرَابِيَّتُكَ بَعْدَ».

هكذا كان صلى الله عليه وآله يواكب أصحابه المخلصين ويسددهم ويقومهم؛ ويقتلع ما فيهم من آثار الجاهلية وما تركته بيئتهم في نفوسهم والانسان ابن بيئته، ليبدلها بأخلاق إسلامية وآداب قرآنية بعيدة عن حالات التعصب التي طالما كان يقول عنها: دعوها فإنها تنته دعوها فإنها تنته.

كرمه:

عرف عنه أنه كان كريماً كثير الإحسان رغم فقره وضعفه وقله ما في يده، ولم يترك بعد وفاته شيئاً في بيته حتى انه لم يجدوا عنده ما يكفن به.

فمن كرمه:

- دفع رسول الله صلى الله عليه وآله الى أبي ذر غلاماً، فقال: «يا أبا ذر، أطعمه ممّا تأكل، واكسّه ممّا تلبس».

فلم يكن عنده غير ثوب واحد، فجعله نصفين، فراح الى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال:

«ما شأن ثوبك يا أبا ذر؟».

فقال: إنّ الفتى الذى دفعته الّى أمرتنى أن أطعمه ممّا آكل، وأكسوه ممّا ألبس، وإنه لم يكن معى إلّا هذا الثوب فناصفته.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أحسن اليه يا أبا ذر».

ص: ٢١٣

فانطلق أبو ذر فأعتقه.

فسأله رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما فعل فتاك؟».

قال: ليس لي فتى، قد أعتقته.

قال صلى الله عليه وآله: «أَجْرَكَ اللهُ يا أبا ذر».

- يقول عطاء بن مروان: رأيت أبا ذر في نمره (شملة فيها خطوط بيض وسود، وبردة من صوف يلبسها الأعراب) مؤتزرًا بها، قائمًا يصلي، فقلت: يا أبا ذر، مالك ثوب غير هذه النمره؟ قال: لو كان لي لرأيت عليّ، قلت: فإني رأيت عليك منذ أيام ثوبين، فقال: يا بن أخي، أعطيتهما من هو أحوج مني اليهما، قلت: والله إنك لمحتاج إليهما، قال: اللهم غفرًا، إنك لمعظم للدنيا، أليس ترى عليّ هذه البردة؟ ولي أخرى للمسجد، ولي أعنز أحلبهما، ولي أحمره نحتمل عليها ميرتنا، وعندنا من يخدمنا ويكفينا مهنة طعامنا، فأى نعمه أفضل مما نحن فيه؟ (١) مواقفه:

الذي لا يهاب الموت لا يهاب ما دونه؛ لهذا نرى أبا ذر لا يخشى بأسهم ولا يخاف طغيانهم، ولا يكثر بظلمهم، ولا يابه بتهديبهم وإنذارهم ووعيدهم... إنه كان يخشى فقط وعيد السماء وإنذارها...

بايعني رسول الله صلى الله عليه وآله خمسًا، وواتقني سبعا، وأشهد عليّ تسعًا ألا أخاف في الله لومة لائم، وفي قول آخر له صلى الله عليه وآله: «هل لك الي بيعه ولك الجنة؟»

قلت: نعم، وبسطت يدي فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يشترط عليّ: «أن لا تسأل الناس شيئًا» قلت: نعم، قال: «ولاسوطك إن سقط منك حتى تنزل إليه فتأخذه» (٢).

فكان هذا عهده وهو الوفي به، وكانت تلك صرخاته المتتالية ضد الظالمين والمترفين عن عقيد غصب تنهال على رؤوسهم، وكان لسانه سيفًا صارمًا يكشف

١- ١ طبقات ابن سعد ٤: ٢٣٥.

٢- ٢ مختصر تاريخ دمشق ٢٨: ٢٩٣-٣٩٤.

ص: ٢١٤

زيفهم ويعرى مواقفهم وادعاءاتهم...

كانت كل أمنياته أن يحذف ويلغى كل انحرافٍ من حياة هذه الأمة، فهو يخشى إن بقي هذا الانحراف أن يتجذر، ويصبح وكأنه هو الصحيح وغيره خطأ، وكان يخشى على هذه الأمة أن تذهب بعيداً عما بناه رسول الله صلى الله عليه وآله وارتأته السماء ... لهذا ولغيره تصدى أبوذر وتحمل عواقب هذا التصدى.

كانت له مواقف عديدة شهد بها التاريخ ومؤرخوه تتسم بالقوة والشدة صبت كلها ضد حكام عصره والأغنياء وثرواتهم بغير حق ... فكانت دروساً قيمة للأجيال في مقارعتها للظلم والظالمين والترف والمترفين، وراحت مواقفها الجريئة هذه انشودة لا يتخلى عن إنشادها المناضلون ولا- يعزف عن التغني بها المجاهدون، وراح يترسمها الأحرار في كل مكان وزمان ... وقد سببت له ابتلاءات كثيرة كان يستعذبها لأنها في الله ولله، «يا أبا ذر، أنت رجل صالح، وسيصيبك بعدى بلاء»، قلت: في الله؟ قال صلى الله عليه وآله: «في الله»، قلت: مرحباً بأمر الله.

كانت كلمات رسول الله تلاحقه، وكان هو الآخر يستحضرها في كل خطواته وأقواله، أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله ألا نغلب على أن نأمر بالمعروف، وننهي عن المنكر، ونعلم الناس السنن.

وكان في جهاده هذا يستوحى كل موقفه وكلماته من السماء ورسولها ولا يغير ولا يبدل: والله، ما كذبت على رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا أخذت إلعنه، وعن كتاب الله عز وجل.

والله إنى لعلى العهد الذي فارقت عليه رسول الله صلى الله عليه وآله، ما غيرت، ولا بدلت.

لقد بايعت رسول الله على أن لا تأخذنى فى الله لومة لائم ...

قصد أبو ذر الشام واستقرّ بدمشق حيث الثروة المبددة، والإسراف الفاحش، والدنيا الفارهة، وحيث الترف والمترفين الى جانب ذلك كله وجد الفقر المدقع والحاجة القاتلة، فأعلنها مدوية صرخة ضد الأغنياء لبيروا الفقراء، ثورة ضد

ص: ٢١٥

الطغاة لينصفوا الرعية. كان صوتاً عالياً ضد أصحاب الأموال؛ ليمدوا يد العون لإخوانهم. كانت بحق ثورة كبرى ضد الطبقة القاتلة التي تنخر بالمجتمع المسلم وتهدد كيانه وتطيح بقيمه ومبادئه. يقول الدكتور الجميلي:

لقد كان يرى أن المال فتنه تثير الغفلة والرياء والشبهات حول أولى الأمر، هذا رأيه، وهذا فهمه، وتلك طبيعته المفطورة على الطهر والنقاء والنظافة والتزهر عن مجرد الارتياح.

كان يشتد به الضيق عندما يرى امراء المؤمنين يتمرغون في القصور، ومن ورائهم يرى الجياع المترين ذوى الخصاصة يتضورون متهاكين، فكان دائماً يردد قوله تعالى:

والذين يكتزون الذهب والفضة ولا- ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم* يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون (١).

حمل رداءه، واشتمل بردته، وسار الى بلاد الشام حيث ثم معاوية ابن أبي سفيان يقطن ويستمتع بالخصوبة والفيء والمروج الخضر، حيث الثروات والقصور المنيفة والضيع الوارفة الظلال، ولم يسكت على الثورة الضاربة في داخل كيانه، لكنها انطلقت على لسانه، فصرخ في الناس.

«عجبت لمن لا يجد القوت في بيته، كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه».

فإن أمير القوم أول من يجوع إذا جاعوا، وآخر من يشبع إذا شبعوا.

كان يأتي معاوية في عقر داره في مجلسه، ويعلنها واضحة لا لبس فيها:

خياركم أزهكم في الدنيا، وأرغبكم في الآخرة، وشراركم أرغبكم في الدنيا وأزهكم في الآخرة.

ص: ٢١٦

كانت معارضة أبي ذر معارضة قوية، يُخشى بأسها، ويعمل حسابها؛ لأنها صادرة من نفس أبيه عالية وهمه شامخة، شايها كثير من صحابه رسول الله صلى الله عليه وآله والتفوا حولها (١).

سحب أبو ذر فضل رداؤه قائلاً: «لا حاجة لي في دنياكم» قال ذلك بعدما استدعاه الخليفة الثالث من دمشق تلبية لطلب معاوية حيث كتب لعثمان: إن كان لك بالشام حاجة فأرسل الي أبي ذر.

فكتب إليه عثمان يأمره بالقدوم عليه، وعندما سمع قول عثمان له: «ابق معي هنا بجانبني، تغدو عليك اللقاح وتروح»... فكان جوابه رضوان الله عليه:

نعم «لا حاجة لي في دنياكم».

«لا حاجة لي في ذلك تكفي أباذر صيريمته.. دونكم معاشر قريش دنياكم فاخدموها ودعونا وربنا.. لم تكن هذه كلمات فقط، وإنما كانت مواقف هزت كيان الظالمين وأرست قواعد للإيمان الصحيح والمواقف المبدئية الصلبة... ومن تلك المواقف:

كان أبو ذر أشد الصحابه غضباً على ما فعله الخليفة الثالث حين ولي الخلافة، فقد قام بتوزيع كثير من أموال بيت المال على من يرغب وهو عطاء غير مسؤول، فقد أعطى مروان ابن الحكم ما أعطاه، وأعطى الحارث ابن الحكم ثلاثمائة ألف درهم، وأعطى زيد بن ثابت مائة ألف درهم ...

فوقف أبو ذر موقفاً مليئاً بالقوة والشدة والغضب، وراح يتلو قوله تعالى:

والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم.

وجرت محاورات كانت في بعض جوانبها تتسم بالجرأة، وأثبت له خطأ تصرفاته وأنها بعيدة عن الشرع في الوقت الذي راح كثير من الصحابة- وقد

ص: ٢١٧

ملئت قلوبهم غيظاً وضيقتاً على أفعال الخليفة - يميلون الى تأييد أبو ذر في مساعيه وجهوده من أجل إيقاف هذا الانحراف أو الحد منه، وبدلاً من أن يتعظ الخليفة بذلك، أخذته العزة بنفسه مؤيداً من قبل المستفيدين، فقد أصدر أمره بإبعاد الصحابي الجليل أبو ذر عن المدينة الى الشام، وكان ذلك سنة تسع وعشرين للهجرة، وفعلاً التحق أبو ذر بالشام، وهناك راح ينكر على معاوية أموراً كثيرة وانحرافات خطيرة، فما كان من معاوية إلا أن يرسل له ثلاثمائة دينار كي يستميله الى جانبه أو على الأقل يخرس صوته ... فقال له أبو ذر: إن كان من عطائي الذي حرمتونه عامي هذا قبلتها، وإن كانت صلة فلا حاجة لي فيها.

ولما رأى قصر الخضراء الذي بناه معاوية بدمشق، لم يلد أبو ذر بالسكوت بل أعلنها واضحة جلية أمام معاوية: يا معاوية! إن كانت هذه الدار من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهذا الإسراف.

فلم يحرم معاوية جواباً بل لاذ بالسكوت منتظراً نزول الظلام، فبعث اليه بألف دينار. فما كان من أبي ذر إلا أن أنفقها في سبيل الله.

ولما صلى معاوية صلاة الصبح، دعا رسوله، فقال: اذهب الى أبي ذر فقل: أنقذ جسدي من عذاب معاوية، فإني أخطأت.

قال: يا بني، قل له: يقول لك أبو ذر: والله ما أصبح عندنا منه دينار، ولكن انظرنا ثلاثاً حتى نجمع لك دنائرك.

فلما رأى معاوية أن قوله صدق فعله؛ كتب الى عثمان: أما بعد؛ فإن كان لك بالشام حاجة أو بأهلك، فابعث الى أبي ذر فإنه وغل صدور الناس ... (١) فما كان من عثمان إلا أن كتب الى معاوية: أما بعد، فاحمل جندباً على أغلظ مركب وأوعره.

فوجه معاوية من سار به الليل والنهار (٢) وكان ذلك سنة ثلاثين بعد أن

١-١ اعلام النبلاء ٢: ٥٠.

٢-٢ أنساب الاشراف ج ٥، ترجمة عثمان.

ص: ٢١٨

قضى سنه في دمشق، وأما في تاريخ يعقوبي: فكتب اليه أن احمله على قتب بغير وطاء، فقدم به الى المدينة وقد ذهب لحم فخذيته. أما في مروج الذهب: فحمله على بعير عليه قتب يابس، معه خمسة من الصقالبة يطرون به حتى أتوا به المدينة وقد تسلخت أفخاذه وكاد أن يتلف.

ومع كل ذلك لم يترك أبو ذر جهاده وصرخته بالحق والعدل ضد كل ظلم وانحراف وتعدى. فلما قدم أبو ذر المدينة جعل يقول مخاطباً الخليفة: تستعمل الصبيان، وتحمي الحمر، وتقرب أولاد الطلقاء. فما كان من الخليفة إلا أن سيره الى الربذة (١). المقاطعة:

وخلال فترة مناهضته للحكام وللأغنياء الذين استحوذوا على الأموال بغير حق، وقبل نفيه الى الربذة لإبعاده عن الأمة، تعرّض الرجل الجليل المسنّ الى مضايقات كثيرة وأذى عظيم، فإضافةً إلى منعهم عطاءه من بيت المال منع الناس من الاتصال به وحضور مجالسه وحلقات دروسه، فقد كانت لأبي ذر حلقات للتفسير والحديث والفتيا، وكان الناس يحتشونه، بعض يطلب تفسير آية، وبعض يستفتيه، وآخر يقول له: حدّثنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله فكانت هذه الحالة وهي كثرة الذين يستفتونه يأخذون العلم منه تلقى في قلوب بعضهم الخشية منه، حتى منعه بعض أمراء عصره من ذلك، ولكي لا يتصل به أحد فيتأثر بأرائه راحوا يلا-حقون مجالسه ويحظرون الاستماع اليه ...

يقول أبو كثير: حدّثني أبي قال: أتيت أبا ذر وهو جالس عند الجمرة الوسطى، وقد اجتمع الناس عليه يستفتونه، فأتاه رجل، فوقف عليه، فقال: ألم ينهك أمير المؤمنين عن الفتيا؟ فرفع رأسه اليه ثم قال: أرقب أنت عليّ؟! لو وضعت المصمامة (السيف القاطع) على هذه- وأشار بيده الى قفاه- ثم

ص: ٢١٩

ظننتُ أن أنفذ كلمةً سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وآله قبل أن تجيزوا عليّ لأنفذتها.
وفي روايه أن رجلاً أتى أبا ذر فقال:

إن المصدقين - يعني جباه الصدقة - ازدادوا علينا، فغيب عنهم بقدر ما ازدادوا علينا؟

قال: لا، قف مالك عليهم فقل: ما كان لكم من حق فخذوه، وما كان باطلاً فذروه، فما تعدوا عليك جعل في ميزانك يوم القيامة.

وكان علي رأسه فتى من قريش، فقال: أما نهاك أمير المؤمنين عن الفتوى؟

فرفع رأسه إليه ثم قال له: أرقب أنت علي؟! لو وضعتم الصمصامة ...

يقول الأحنف بن قيس: أتيت المدينة، ثم أتيت الشام، فجمعت (أي شهدت الجمعة) فإذا أنا برجل لا ينتهي الى سارية إلفر أهلها، يصلّي ويخفُ صلاته، فجلستُ إليه، قال: قم عنى لا أعزك بشر، فقلت: كيف تعزني بشر؟ قال: إن هذا - يعني معاوية - نادى مناديه أن لا يجالسنى أحد.

وفي روايه أخرى له: كنتُ جالساً في حلقة بمسجد المدينة، فأقبل رجل لا تراه حلقة إلفروا حتى انتهى الى الحلقة التي كنت فيها،

ففروا، وثبت، فقلت: من أنت؟ فقال: أنا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله، قلت: فما يُفّر الناس منك؟

قال: إنى أنهاهم عن الكنوز، قلت: فإن أعطيتنا قد بلغت وارتفعت، أفتخاف علينا منها؟ قال: أما اليوم فلا، ولكن يوشك أن يكون أثمان دينكم، فإذا كان أثمان دينكم فدعوهم وإياها.

وكل هذا وغيره لم يثنه عن عزمه، وعن الوفاء بعهده الذي عاهد عليه رسول الله، وراح يواصل ثورته وكفاحه ضد كنز المال بعد أن

رأى أنه عصب خطير وعظيم في حياة الناس؛ لهذا فقد راح ينادى أن للفقراء حقاً في مال الأغنياء وأنه نصير للفقراء، فاجتمع حوله

الكثيرون وناوَاه آخرون ممن كان هواهم جمع المال ...

يقول الأحنف بن قيس كما في سير أعلام النبلاء (١):

ص: ٢٢٠

قدمت المدينة، فبينما أنا في حلقة فيها ملاً من قريش إذ جاء رجل أخشن الثياب، أخشن الجسد، أخشن الوجه، فقام عليهم، فقال: بَشْر الكنازين بَرَضِفِ (الحجارة المحماء) يُحمى عليهم في نار جهنم.

قال: فوضع القوم رؤوسهم، فما رأيت أحداً منهم رجع إليه شيئاً، (أى أجابه بشيء) فأدبر، فتبعته حتى جلس الى ساريه، فقلت: ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم، فقال: إن هؤلاء لا يعقلون شيئاً، إن خليلي أبا القاسم دعاني، فقال: «يا أبا ذر» فأجبت، فقال: «تري أحداً» فنظرت ما عليه من الشمس، وأنا أظنه يبعث بي في حاجة له، فقلت: أراه، فقال: «ما يسرنى أن لى مثله ذهباً أنفقه كله إلا ثلاثة دنانير».

ثم هؤلاء يجمعون للدنيا، لا يعقلون شيئاً! فقلت: ما لك ولاخوانك من قريش، لا تعترتهم، وتصيب منهم؟

قال: لا وربك ما أسألهم دنيا، ولا أستفتيهم عن دين حتى ألحق بالله ورسوله.

إضافةً الى كل ذلك فإنه لم ينجو من الاتهامات الأخرى، التي اعتاد الحكام على ملء وسائل إعلامهم بها ضد من يخالفهم، فقد اتهموه بأنه من الخوارج ومثير الفتن حتى اضطرت هذه الامور - أحياناً - الى التصدى لها وتفنيدها في مجالسهم، فقد دخل يوماً على عثمان وهو في مجلسه يحيطه جمع، فقال له وقد حَسَرَ عن رأسه: والله ما أنا منهم ... يريد الخوارج ومثري الفتن.

وكيف يكون من هؤلاء وهو الصادق القائل لرسول الله صلى الله عليه وآله: والذي بعثك بالحق لا لقيتك إلا على الذي فارقتك عليه. خرج من مجلس الخلافة قاصداً الربذة وهو يقول للخليفة الذي قال له: نأمر لك بنعم من نعم الصدقة تغدو عليك وتروح: لا حاجة لي في ذلك، تكفى أبا ذر صريمته ... ثم راح يخاطبهم: دونكم معاشر قريش دنياكم فأخذموها، ودعونا وربنا.

ص: ٢٢١

المنفى الأخير «الربذة»:

لقد كان الصراع الذي خاضه أبو ذر طيلة عمره الشريف ضد الحكام واستئثارهم وضد ثروتهم المتزايدة بعيداً عن المبادئ والقيم وحاجة الناس وعوزهم... لا بد أن ينتهي الى إبعاده عن الساحة- على أقل التقادير- وهذا ما جرى بالفعل، وخير ما يصور لنا جهاد الرجل وإخلاصه ومناوأة للظالمين نهج البلاغة، يقول الإمام على عليه السلام: وهو يودعه: يا أبا ذر، إنك غضبت لله، فارجع من غضبت له. إن القوم خافوك على دنياهم، وخفتهم على دينك، فاترك في أيديهم ما خافوك عليه، واهرب منهم بما خفتهم عليه، فما أحوجهم الى ما منعتهم، وما أغناك عما منعوك! وستعلم من الراجح غداً، والأكثر حسداً. ولو أن السماوات والأرضين كانتا على عبد رتقا، ثم اتقى الله؛ لجعل الله منهما مخرجا! لا يؤنسك إلا الحق، ولا يوحشك إلا الباطل، فلو قبلت دنياهم لأجوك، ولو قرضت منها لأمنوك (١).

اشتد مرضه الذي ألم به، وانتابه ضعف شديد جعله وجود بنفسه وحيداً في غربه قاتله، وقد فقد المعين وغاب عنه الناصر إلا ابنته وعلى رواية زوجته، وماذا تستطيع البنت أن تقدم لأبيها وهو يصارع سكرات الموت!؟

رمقها بنظرة فرآها تبكي، عرف معنى بكائها، فقال لها: ما يبكيك؟

قالت: مالي لا أبكي وأنت تموت بفلاة من الأرض، ولا يدان لي بتغييبك وليس عندي ثوب يسعك كفناً لي ولا لك؟! ولا بد منه لنعشك، قال: فأبشري ولا تبكي، إني سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «لا يموت بين امرأتين من مسلمين ولدان أو ثلاثة فيصبرا ويحتسبا، فيريان النار أبداً».

وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لنفر وأنا فيهم: «ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين».

ص: ٢٢٢

ثم أردف قائلاً: وليس من أولئك النفر أحد إلامات في قرية أو بجماعة. فأنا ذلك الرجل، والله ما كذبت ولا كذبت، فأبصرى الطريق. فقالت: أنى وقد ذهب الحاج وتقطعت الطرق؟! فقال: اذهبي وتبصرى.

وطلب منها أن تعلق مرتفعاً من الجبل تؤشر للمارة؛ كي يحضر بعضهم اليه ساعة الوفاء، فكانت تشد الي كتيب، ثم ترجع الي أبى ذر المحتضر.

فبينما هما على هذه الحالة وإذا برجال كأنهم الرخم تجد بهم رواحهم. ورأوا هذه المضطربة تلوى بطرف رداها إليهم، فأسرعوا اليها حتى وقفوا عليها وهي تنادى:

يا عباد الله المسلمين، يا عباد الله الصالحين.

- سألوها- ما بك؟ وما تريدن؟

- هذا أبوذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله هلك غريباً، ليس لى أحد يعيننى عليه!

- صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله؟

- نعم

فنظر بعضهم بعضاً، وحدوا الله على ما ساق اليهم واسترجعوا وقالوا: فداؤه آباؤنا وأمهاتنا.

أسرع اليه القوم وفيهم مالك الأشر بن الحارث النخعى رضى الله عنه وأسرعوا حتى دخلو عليه.

فقال أبو ذر لهم: «ابشروا فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لنفر وأنا فيهم:

«ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين، ما من أولئك النفر رجل إلا وقد هلك فى قرية أو جماعة، والله ما كذبت ولا كذبت. أنتم تسمعون أنه لو كان عندى ثوب يسعنى كفناً لى أو لامراتى- لم أكفن إلا فى ثوب لى أو لها.

إنى أنشدكم الله إنى أنشدكم الله أن لا يكفننى رجل منكم كان أميراً أو عريفاً

ص: ٢٢٣

أو بريداً أو نقيباً، وليس من أولئك النفر إلا وقد قارف ما قال، إلأفتى من الأنصار فقال: (أنا أكفئك يا عم أكفئك بردائى هذا أو فى ثوبين فى عبيتى من غزل أمى) قال أبو ذر (أنت تكفنتى) ثم قال (بسم الله وبالله وعلى ملء رسول الله صلى الله عليه وآله ولفظ نفسه الأخير).

وهكذا انطفأ هذا المصباح، وضاع هذا الصوت، ومات هذا البطل المجاهد العظيم استرجع القوم على عظم المصيبة، وبكوا ثم شرعوا فى تجهيزه، وتنافسوا فى كفته (١).

حتى خرج من بينهم بالسواء، وتولى غسله مالك الأشتر وصحبه حتى فرغوا، ولّفه مالك الأشتر فى برد يمانى كان قيمته ٤٠٠٠ درهم وصلى عليه، ودفنوه على قارعة الطريق. ثم مسح الأشتر القبر بيده وقام عليه وقال:

(اللهم هذا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله عبدك فى العابدين، وجاهد فيك المشركين. لم يغير ولم يبدل، لكنه رأى منكراً فغيره بلسانه وقلبه حتى جفى ونفى وحرم واحتقر. ثم مات وحيداً غريباً...) الى آخر ما قاله (٢). وكانت وفاته رضى الله عنه فى آخر ذى القعدة الحرام سنة إحدى وثلاثين بعد الهجرة (٣).

أما ابنته أو زوجته على رواية، فقد حملها القوم معهم الى المدينة وسلمها مالك الأشتر الى الإمام على ابن ابى طالب عليه السلام معززةً مكترمةً محترمةً الى ما شاء الله (٤).

وأنهى أبو ذر فى سنة ٣٢ هـ حياةً جليلاً وعظيمةً كانت كل مفاصلها فى عين الله تعالى؛ ليجد نداء الحق أمامه: أن تلکم الجنة اورثتموها بما كنتم تعملون.

فدفن رضوان الله عليه فى مكان على قارعة الطريق فى الربذة وهى من قرى المدينة على ثلاثه أيام قريه من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكة... (٥) وقد حفرت عندها آبار وقناة، وأشهر آبارها (بئر الوسيط) راح أهالى القرى

١- ١ تنقيح المقال فى علم الرجال ٢: ٤٩ باب الميم فى ترجمه مالك الأشتر.

٢- ٢ المستدرک للحاكم النيسابورى ٣: ٣٤٥.

٣- ٣ أنساب الأشراف للبلاذرى ٥: ٥٦.

٤- ٤ معالم الزلفى: ١٠٦، سير اعلام النبلاء ٢: ٤٧-٤٨.

٥- ٥ معجم البلدان ٣: ٢٤.

ص: ٢٢٤

المجاورة والقوافل يرتون من مائها العذب وغرست بجوارها أشجار النخل والرمان وغيرهما، وتعرف اليوم باسم قرية واسطة تقع عند الكيلومتر ١٢٦ للذهاب من المدينة الى جدة أو مكة المكرمة على حافة الطريق المبلط بالأسفلت بانحراف قليل عن الجادة القديمة. تقع مدرستها الابتدائية ومركز شرطتها وبيوت القرية وبساتينها على جانب الطريق الأيسر، لها سوق وبساتين ومزارع أنشئت مع امتداد الطريق، وتسقى من قناة تسمى ب (سُقيا الوسيط) ويمر أغلب الحجاج بهذه الناحية ولا يعرفون عنها شيئاً (١).

«رحم الله أبا ذر يحشر وحده ويموت وحده ويبعث وحده».

هذا ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله حينما رآه وقد أبطأ بعيره في غزوة تبوك، فحمل متاعه على ظهره، وتبع أثر الرسول صلى الله عليه وآله ماشياً حتى لحق به.

فسلام عليك يا أبا ذر في الخالدين.

الهوامش:

رسالة في الترتيب بين أعمال الحجّ

ص: ٢٢٦

رسالة في الترتيب بين أعمال الحج

محمد حسن القديري

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وآله الطيبين والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ... وبعد

من واجبات الحج أعمال منى، التي هي في حج التمتع عبارة عن الرمي والذبح والحلق أو التقصير.

ومن الواجبات المهمة للحج أعمال مكة أى الطواف وصلاته والسعى وطواف النساء وصلاته. ولكل من هذه الأعمال زمان ومكان، واعتبر فيها شرائط بينت في محلها مع التفصيل والاستدلال.

ومن جملة الشرائط المعتمدة في تلك الأعمال الترتيب بين أعمال منى، والترتيب بين أعمال منى وأعمال مكة، وحيث إن اعتبار الترتيب أثراً مهماً وهو بطلان الحلق قبل الذبح لو اعتبر الترتيب بينهما، ومع عدم الاعتبار يصح الحلق مع تأخير الذبح، ويخرج المحرم عن إحرامه بالحلق قبل الذبح، فيمكن تأخير الذبح إلى وقت يمكن حفظ الذبيحة عن التلف، أو مراعاة سائر أحكام الذبح؛ فلذا انقده في بالي أن أكتب رسالة في هذه المسألة؛ وحيث إن صاحب الجواهر قدس الله نفسه

ص: ٢٢٧

بحث فيها بنحو أوفى وأحسن قدّمت عين عبارته، وذكرت بعض المطالب بعدها، والله وليّ التوفيق.

قال في الجواهر:

ويجب تقديم الحلق أو التقصير على زيارة البيت لطواف الحجّ والسّعي بلا خلاف أجده فيه، وفي كشف اللثام «كأنه لا خلاف فيه» وفي المدارك «لا ريب في وجوب تقديمهما على زيارة البيت للتأسي وللأخبار الكثيرة» ولعلّ مراده ما سمعه من النصوص (١) الأمر بإعادته للناسي أو مطلقاً وبالشاة للعالم، لكن في الرياض - بعد الاعتراف بنفي خلاف ظاهر فيه في جملة من العبائر - قال: «فإن تمّ إجماعاً وإلا فظاهر الصحيح المتقدّم وغيره المتضمّنين للفظي (لا حرج) و (ينبغي) كالصحيح الآتي المتضمّن أيضاً للفظ «لا ينبغي» - خلافة، ولا ينافيه إيجاب الدّم في الأخير؛ لإمكان الحمل على الاستحباب، لكن لا خروج عمّا عليه الأصحاب» ومراده بالصحيح الأول صحيح جميل (٢) عن الصادق عليه السلام: «أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أتاه أناس يوم النحر، فقال بعضهم: يا رسول الله، حلقت قبل أن أذبح، وقال بعضهم: حلقت قبل أن أرمي، فلم يتركوا شيئاً كان ينبغي لهم أن يقدموه إلّا أخروه، ولا شيئاً كان لهم أن يؤخروه إلّا قدموه، فقال: لا حرج».

والظاهر كما في كشف اللثام إنّما ينفي الإثم عن الجاهل والنّاسي أو أحدهما.

وأما الآخر فهو صحيح جميل أيضاً وحسنه، سأل الصادق عليه السلام «عن الرّجل يزور البيت قبل أن يحلق فقال: لا ينبغي إلّا أن يكون ناسياً، ثمّ قال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أتاه أناس يوم النحر» إلى آخر ما سمعناه آنفاً، ونحوه صحيح محمّد بن حمران (٣) عنه عليه السلام أيضاً، لكن يمكن إرادة التّهي

١-١ الوسائل، الباب ٥ و ٢ من أبواب الحلق والتقصير.

٢-٢ الوسائل، الباب ٣٩ من أبواب الذّبح، الحديث ٤.

٣-٣ الوسائل، الباب ٢ من أبواب الحلق والتقصير، الحديث ٢.

ص: ٢٢٨

منه، ولو بقرينة شهرة الأصحاب وما تسمعه من النصوص.

وعلى كل حال، فلو قدّم ذلك على التقصير عامداً جبره بشاء بلا خلاف أجده فيه، بل نسبه بعض إلى قطع الأصحاب، وإن أغفل في بعض الكتب كمحكي المقنعة والمراسم والغنية والكافي، ونسبه في الدروس إلى الشيخ وأتباعه، بل عن ابن حمزة: فإن زار البيت قبل الحلق أعاد الطواف بعده، وإن تركه عمداً لزمه دم شاء، فيحتمل ترك الإعادة أو إرادة ترك الحلق حتى زار، إلّا أنّ الجميع ليس خلافاً محققاً، وفي صحيح ابن مسلم (١)، عن أبي جعفر عليه السلام «في رجل زار البيت قبل أن يحلق فقال:

إن كان زار البيت وهو عالم أنّ ذلك لا ينبغي فإنّ عليه دم شاء» وهو ظاهر في الوجوب المقتضى لوجوب الترتيب عليه، بل هو مشعر بإرادة عدم الجواز من قول «لا ينبغي» في غيره من النصوص، فما سمعته من الرياض من إمكان إرادة ندب الدم فيه في غير محلّه، نعم هو خالٍ عن ذكر الإعادة التي مقتضى الأصل نفيها أيضاً، بل في الدروس نسبه ذلك إلى ظاهرهم، بل عن الصيمري التصريح به، ولكن فيه أنه معارض بما حكاه ثاني الشهيد من الإجماع على وجوب الإعادة الذي يشهد له أوليته من الناس؛ وترك الاستفصال في صحيح ابن يقطين (٢):

«سألت أبا الحسن عليه السلام عن المرأة رمت العقبة وذبحت ولم تقصّر حتى زارت وطافت وسعت من الليل، ما حالها وما حال الرجل إذا فعل ذلك؟ قال:

لا بأس به يقصر ويطوف للحج ثم يطوف للزيارة، ثم قد أحلّ من كل شيء». وما قيل: من أنّ الطواف المأتي به قبل التقصير منهي عنه فيكون فاسداً، فلا يتحقق به الامتثال وإن كان لا يخلو من نظر؛ لأعمية ذلك من الشرطية. اللهم إلّا أن يدعى ظهورها من الأمر بها في نحو العبارات المركبة، وحينئذ يتّجه الاستدلال به على المطلوب الذي لا ظهور في

١-١ الوسائل، باب ٢، من أبواب الحلق والتقصير، الحديث ١.

٢-٢ الوسائل، الباب ٤، من أبواب الحلق والتقصير، الحديث ١.

ص: ٢٢٩

الصحيح المزبور بما ينافيه، إذ خلّوه عن ذكر الإعادة أعمّ من عدم وجوبها، لكن في الرياض بعد ذكر الصحيح الدال عليها بالإطلاق، قال:

«وتنزّل هذا على ما يؤلّ إلى الأوّل بحمله على غير العامد، وإبقاء الأوّل على ظاهره من عدم وجوب الإعادة ليس بأولى من العكس، وإبقاء هذا على عمومته وحمل الأوّل على خلاف ظاهره، وبالجملة التعارض بينهما كتعارض العموم والخصوص من وجه يمكن صرف كل منهما إلى الآخر، وحيث لا مرجح ينبغي الرجوع إلى مقتضى الأصل، وهو وجوب الإعادة كما مرّ» ولا يخفى عليك ما في ذلك. هذا كلّ في العالم العامد.

ولو كان ناسياً لم يكن عليه شيء من دم ونحوه بلا خلاف أجده فيه للأصل وغيره، ولكن عليه إعادة الطواف على الأظهر، بل لا أجد فيه خلافاً كما اعترف به في المدارك وغيرها؛ لإطلاق صحيح ابن يقطين السابق الذي لا ينافيه صحيح جميل السابق وغيره الذي استثنى فيه الناسى بعد عدم إشعار فيه بعدم الإعادة، بل ولا نفى الحرج في صحيحه الآخر المراد منه عدم بطلان الحجّ كنفى البأس في صحيح ابن يقطين.

وأما الجاهل فلا دم عليه للأصل المعتضد بمفهوم صحيح ابن مسلم، نعم عليه الإعادة وفقاً لثاني الشهيدين وغيره؛ لأولويته من الناسى، وإطلاق صحيح ابن يقطين الذي لا ينافيه الحرج في صحيح جميل بعدما عرفت المراد منه، فما عن الشهيد من الميل إلى العدم لا يخلو من نظر.

هذا والظاهر كما في كشف اللثام أنّ كلّ من وجبت عليه الإعادة فإن تعمد تركها بطل الحجّ إلّامع العذر فيستتبع وإن كان تعمد التقديم.

كما أنّ الظاهر وجوب إعادة السعي حيث تجب إعادة الطواف، كما

ص: ٢٣٠

عن العلامة في التذكرة التصريح به تحصيلاً للترتيب الظاهر من الأدلة وجوبه، وربما كان ظاهر المتن عدمه، ولعله لصحيح ابن يقطين السابق الذي لا ظهور له في ذلك.

ولو قدم الطواف على الذبح أو على الرمي ففي إلحاقه بتقديمه على التقصير وجهان: أجودهما ذلك كما في المسالك والمدارك. انتهى موضع الحاجة من كلام صاحب الجواهر.

قوله: والظاهر كما في كشف اللثام إنما ينفي الإثم عن الجاهل والناسي أو أحدهما. أقول:

أولاً: ظاهر «لا حرج» في الصحيح أنه لا حرج في تقديم ما ينبغي أن يؤخر ولا حرج في تأخير ما ينبغي أن يقدم وهذا أمر وضعي لا تكليفي، ومعناه صحة المتقدم والمتأخر، ف «لا حرج» لا ينفي الإثم بل ينفي شرطية الترتيب.

ثانياً: لم يفصل في الصحيح بين العالم والعمد، وبين الجاهل والناسي أو أحدهما، ولا نسلم دعوى ظهوره في الجاهل والناسي والانصراف بدوي، وإطلاق الصحيح شامل للجميع. فمحصل الحديث أن الترتيب بين أعمال منى وبين أعمال مكة وفي نفس أعمال منى لا يكون شرطاً للصحة، وهذا بإطلاقه قابل للانطباق على مورد العلم والعمد أيضاً، ولا موجب لتقييده بمورد الجهل والنسيان، نعم لو كان لسان الحديث لسان النهي أو ثبوت الإثم لا يختص بمورد العلم والعمد، ولو كان لسانه نفي الإثم لا يختص بمورد الجهل والنسيان، إلماً لسان لا حرج في مخالفة الترتيب لسان الوضع ونتيجته الصحة، فيشمل جميع الموارد بالإطلاق، وعليه يكون وجوب الترتيب مطلقاً تعبدياً لا شرطياً حتى حال العلم والعمد، فيصح العمل وإن كان آثماً لو خالف بلا عذر. والله العالم.

قوله: ولو قدم الطواف على الذبح أو على الرمي الخ.

ص: ٢٣١

أقول: الدليل إنما هو ناظر إلى الترتيب بين الحلق والطواف، لا بين أعمال منى وأعمال مكة، فحيث نقول بلزوم الترتيب إنما نقول به بين الحلق والطواف لا غير.

والله العالم.

قوله: كما أن الظاهر وجوب إعادة السعي حيث تجب إعادة الطواف.

أقول: لا دليل على لزوم الترتيب شرطاً بينهما والأصل البراءة عن الشرطية، ووجوب الترتيب الظاهر من الأدلة على ما أفاده غير مسلم، ومع التسليم فلا إطلاق للأدلة بالنسبة إلى الاشتراط حتى في مورد العلم والعمد فإنها في مقام بيان حكم آخر.

قوله: لإطلاق صحيح ابن يقطين الذي لا ينافيه صحيح جميل السابق وغيره، الذي استثنى فيه الناسى بعد عدم إشعار فيه بعدم الإعادة، بل ولا نفى الحرج في صحيحه الآخر المراد منه عدم بطلان الحج كنفى البأس في صحيح ابن يقطين.

أقول: الظاهر أن هذا الكلام مورد للتعجب من مثله قدس سره الشريف، كيف لا- تنافى بين هاتين العبارتين: «يقصير ويطوف» في

صحيح ابن يقطين و«لا ينبغي إلا أن يكون ناسياً» في صحيح جميل، وكيف لا يدل على عدم لزوم الإعادة في مورد النسيان. ولا سيما

بملاحظة قوله عليه السلام «لا حرج» في ذيل الصحيحة المنطبق على الصدر ولا أقل في مورد النسيان، وقوله أيضاً المراد من لا حرج

عدم بطلان الحج كنفى البأس في صحيح ابن يقطين يزيد في التعجب، أليس جواب رسول الله صلى الله عليه وآله لسؤال الناس: «لا

حرج» يدل على صحة أعمالهم؟ أليس عدم ذكر وجوب الإعادة بعد قوله صلى الله عليه وآله: «لا حرج» مع فرض وجوبها تأخير البيان

عن زمان الحاجة؟ وكيف كان، فهمى قاصر عن تصديق ما أفاده رحمه الله هنا.

والظاهر المعارضة بين صحيح جميل الدال على عدم لزوم الإعادة في موارد الإخلال بالترتيب بين أعمال منى ومكة حتى في حال

العلم والعمد، وصحيح ابن

ص: ٢٣٢

يقطين الدال على لزوم إعادة الطواف مطلقاً، فلا بد من حمل هذا على الاستحباب جمعاً. فلا تجب الإعادة إلا أن يكون إجماع ودون إثباته خرط القتاد.

كلام صاحب الجواهر في ترتيب المناسك يوم النحر
قال في الجواهر:

وكيف كان، ترتيب هذه المناسك واجب يوم النحر، والرمي ثم الذبح ثم الحلق كما في النافع والقواعد، بل ومحكى النهاية والمبسوط والاستبصار، وظاهر المقنع في الأخيرتين، بل نسبه غير واحد إلى أكثر المتأخرين؛ لقوله تعالى (١): «ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله وللتأسي مع قوله (٢) صلى الله عليه وآله: «خذوا عني مناسككم» وقول الصادق عليه السلام في خبر عمر بن يزيد (٣): «إذا ذبحت أضحيتك فاحلق رأسك واغتسل وقلم أظفارك وخذ من شاربك» وفي خبر جميل (٤): «تبدأ بمنى بالذبح قبل الحلق». وفي صحيح معاوية بن عمار أو حسنه (٥): «إذا رميت الجمره فاشتر هديك». وفي خبر أبي بصير (٦): «إذا اشترت أضحيتك وقمطتها في جانب رحلك فقد بلغ الهدى محله، فإن أحببت أن تحلق فاحلق» وإن كان هو دالاً على قيام ربطها في رحله مقام الذبح، ونحوه أخبار (٧).

وفي موقّع عمّار (٨) عنه عليه السلام أيضاً: «سألته - إلى أن قال - وعن رجل حلق قبل أن يذبح، قال: يذبح ويعيد موسى «لأن الله تعالى يقول:

ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله» وخبر سعيد السمان (٩)

«سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله عجل النساء ليلاً من المزدلفة إلى منى، فأمر من كان عليها منهن هدى أن ترمى ولا تبرح حتى تذبح، ومن لم يكن عليها منهن هدى أن تمضي إلى مكة حتى تزور».

١- ١ سورة البقرة: الآية ١٩٢.

٢- ٢ تيسير الوصول ١: ٣١٢.

٣- ٣ الوسائل، الباب ١، من أبواب الحلق والتقصير، الحديث ١.

٤- ٤ الوسائل، الباب ١، من أبواب الذبح، الحديث ٣.

٥- ٥ المصدر السابق ح ١.

٦- ٦ المصدر السابق ح ٧.

٧- ٧ الوسائل، الباب ٣٩، من أبواب الذبح، الحديث ٧ بطريقتين آخرين.

٨- ٨ الوسائل، الباب ٣٩ من أبواب الذبح الحديث ٨.

٩- ٩ الوسائل، الباب ١٧، من أبواب الوقوف بالمشعر، الحديث ٥.

ص: ٢٣٣

وصحيح أبي بصير (١) عنه عليه السلام أيضاً، قال: «سمعتة يقول: لا بأس أن تقدّم النساء إذا زال الليل فيقفن عند المشعر الحرام ساعة، ثم ينطلق بهنّ إلى منى فيرمين الجمره، ثم يصبرن ساعة، ثم يقصّرن وينطلقن إلى مكه فيطفن، إلّا أن يكن يردن أن يذبح عنهنّ، فإنهن يوكلن من يذبح عنهنّ» وصحيح سعيد الأعرج (٢) «قلت لأبي عبدالله عليه السلام: جعلت فداك معنا نساء فأفيض بهنّ بليل؟ فقال: نعم- إلى أن قال:- افض بهنّ حتّى تأتي الجمره العظمى فيرمين الجمره، فإن لم يكن عليهن ذبح فليأخذن من شعورهنّ وليقصّرن من أظفارهنّ».

وخبر موسى بن القاسم (٣) عن عليّ عليه السلام قال: «لا- يحلق رأسه ولا- يزور البيت حتّى يضحى فيحلق رأسه ويزور متى شاء». وصحيح عبدالله بن سنان (٤)، سأل الصادق عليه السلام «عن رجل حلق رأسه قبل أن يضحى، قال: لا بأس، وليس عليه شيء ولا يعودن» بناءً على إرادة الحرمة من التهي عن العود وعدم الإعادة منه نفى البأس، كما ستعرف إن شاء الله. وعلى كلّ حال فلا إشكال في ظهور مجموع ما ذكرناه من الآيه والروايه في وجوب الترتيب في الثلاثه، خلافاً للمحكّي من الخلاف والسرائر والكافي ومن عدم الوجوب، وعن الأولين استحبابه كما عن المختلف، ومال إليه بعض متأخري المتأخرين؛ للأصل وصحيح جميل السابق المشتمل على نفى الحرج، الذي قد عرفت احتمال إرادة الإجزاء منه وحال الجهل والنسيان والضرورة ونفى الفداء ونحوه، بل مال إليه في الرياض مرجحاً لاحتمال حمل الأوامر المزبوره على التدب على احتمال غيره بالأصل، وخبر أحمد بن محمد بن أبي نصر (٥) «قلت لأبي جعفر الثاني عليه السلام: جعلت فداك إن رجلاً من أصحابنا رمى الجمره يوم

١-١ المصدر السابق، ح ٧.

٢-٢ الوسائل، الباب ١٧، من أبواب الوقوف بالمشعر، الحديث ٢.

٣-٣ الوسائل، الباب ٣٩، من أبواب الذبح، الحديث ٩.

٤-٤ المصدر السابق، ح ١٠.

٥-٥ المصدر السابق، ح ٦.

ص: ٢٣٤

النحر وحلق قبل أن يذبح، قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله لما كان يوم النحر أتاه طوائف من المسلمين، فقالوا: يا رسول الله ذبحنا من قبل أن نرمى، وحلقنا من قبل أن نذبح. فلم يبق شيء مما ينبغي لهم أن يقدموه إلّا أخره ولا شيء مما ينبغي لهم أن يؤخروه إلّا قدموه، فقال: لا - حرج. بل وغيره من الأخبار، ومصير أكثر العامة كما في المنتهى إلى الوجوب، قال: فيترجح بهما الاستحباب وإن تساوى الجمعان. والتأسي إنما يجب لو لم يظهر الاستحباب من الخارج، مضافاً إلى أولوية حمل صحيح النهي عن العود على الكراهة مما عرفت؛ لظهور نفي البأس في جواز الترك، ولذا استدلل به الفاضل في المختلف عن الندب، إلّا أن الجميع كما ترى، خصوصاً مع تصريح الآية بالبعض مع عدم القول بالفصل، وخصوصاً مع الشهرة وغير ذلك.

وكيف كان، فلو قدم بعضاً على بعض عالمًا عامدًا أثم قطعاً ولا إعادة بلا خلاف محقق أجده فيه، بل في المدارك أن الأصحاب قاطعون به، وأسندوه في المنتهى إلى علمائنا مؤذناً بدعوى الإجماع عليه، وحينئذ يكون الوجوب المزبور تعبدياً لا شرطياً، ولعله المراد من صحيح ابن سنان السابق المشتمل على نفي البأس والنهي عن العود لمثل ذلك، بل ونصوص نفي الحرج وإن لم يكن قد صرح فيها بالعمد، والأمر بامرار موسى بعد الذبح لمن قدم الحلق محمول على ضرب من الندب، فما في المدارك - من إشكال ذلك بأنها محمولة عند القائل بوجوب الترتيب على الجهل والنسيان وإلّا لم يجب الترتيب - في غير محلّه، وإن صدر من بعضهم ذلك، ووجوب الترتيب أعم من شرطيته، كما أن ما فيها وفي غيرها من إشكال الحكم المزبور بأنه مناف لقاعدة عدم الإتيان بالمأمور به على وجهه المقتضية وجوب الإعادة كذلك أيضاً،

ص: ٢٣٥

ضرورة عدم الشرطية على التقدير المزبور جمعاً بين الأدلة، بل لعل المراد من قوله عليه السلام «لا حرج» الإشارة إلى قوله تعالى: وما جعل عليكم في الدين من حرج الذي منه التكليف بالإعادة، فحينئذ يكون الترتيب واجباً مستقلاً لا شرطاً، فالفاعل ممثّل في أصل الفعل وإن عصى في عكس الترتيب، وعلى كلّ حال فما عن أبي علي - من أنّ كلّ سائق هدياً واجباً أو غيره يحرم عليه الحلق قبل ذبحه، ولو حلق وجب دم آخر - محجوج بما عرفت إن أراد عدم الإجزاء إذا خولف الترتيب، وقد يحتمل الكفارة، فلا خلاف حينئذ، والله العالم.

انتهى موضع الحاجة من كلام صاحب الجواهر.

قوله: وقول الصادق عليه السلام في خبر عمر بن يزيد إلى آخر ما ذكره من الأخبار.

أقول: الإنصاف أنّ ظهور الأقوال والأخبار في وجوب الترتيب في أعمال منى غير قابل للإنكار.

ولكنّ الوجوب الشرطي منفي بصحيحة جميل، وقد مرّ بيانه تفصيلاً في المسألة السابقة وبيّنه بعد ذلك بعد قول المحقّق قدس سره: فلو قدّم بعضاً على بعض أثم ولا إعادة. فلاحظ.

قوله: لقوله تعالى: ولا تحلقوا ... الخ.

أقول: الآية الكريمة واردة في مقام بيان حكم الحصر «وإن أحصرتم» وهذا لا يدلّ على حكم أعمال منى ولزوم الترتيب بينها، ومن هذا يظهر عدم تمامية الاستدلال بموثّق عمّار: سألته - وعن رجل حلق قبل أن يذبح، قال: يذبح ويعيد الموسى؛ لأنّ الله تعالى يقول: ولا - تحلقوا رؤوسكم حتّى يبلغ الهدى محله، فإنّ التعليل بالآية الواردة مورد بيان حكم الحصر يدلّ على أنّ السؤال والجواب في الرواية عن وظيفة المحصور. فلا يمكن الاستدلال بالرواية أيضاً للزوم الترتيب بين الذّبح والحلق في أعمال منى في غير مورد الحصر.

ص: ٢٣٦

قوله: وللتأسى مع قوله صلى الله عليه وآله «خذوا عني مناسككم».

أقول: لو سلمت تماماً هذا الدليل للزوم اتباع فعل النبي صلى الله عليه وآله في المناسك ولا نسلم؛ لأن الفعل أعم من الوجوب والنبي صلى الله عليه وآله يعمل بالمستحبات فيها قطعاً، ولا دلالة لما ذكر أي «خذوا عني مناسككم» للزوم اتباع فعله صلى الله عليه وآله في المناسك حتى يقال: بأن الأصل في فعله صلى الله عليه وآله هنا الوجوب إلماً خرج بالدليل.

فمع ذلك لا يتم هذا الدليل في مسألة الترتيب فإن المدعى دلالة الدليل على عدم لزوم الترتيب، فلا بد من البحث في ذلك. خلاصة الكلام

إن الاستفادة من الكلمات خصوصاً الجواهر هو أنه لا وجوب شرطي للترتيب في أعمال مني، ونسب ذلك إلى المشهور بل أزيد، ولو فرض وجوبه فهو وجوب تعديدي، بل ذهب بعض إلى استحبابه، ولكن الترتيب بين الحلق وأعمال مكة اعتبروه شرطاً خصوصاً حال العلم والعمد، وعليه فلو أن شخصاً حلق بعد الرمي وأخر الذبح يوماً أو أكثر فلا إشكال في الصحة على المشهور المنصور، بل ادعى عدم الخلاف في ذلك كما هو الظاهر من كلام فقيه أهل بيت العصمة صاحب الجواهر رضوان الله عليه، وعلى تقدير الوجوب فالمخالفة تكليفية؛ التي تسقط عند العذر، وأي عذر أوجه من تلف الهدى لو لم يؤخر الذبح؟ ومع التأخير يمكنه إعطاء الهدى للفقراء. وبناءً عليه فمع عدم كون الإخلال مضرراً بصحة العمل لا إشكال تكليفاً أيضاً.

هذا كله على المشهور في الترتيب وهو المنصور أيضاً بالنسبة إلى نفس أعمال مني، وأما بين أعمال مني وأعمال مكة فيحسب الصناعة الوجوب تكليفي أيضاً، وإن لم يكن مشهورياً في صورة العلم والعمد. والأحوط ما عليه المشهور. وأما في مورد الجهل والنسيان فليس الوجوب شرطياً، والله العالم.

ص: ٢٣٧

وتؤيد ما مرّ بما ذكره الشيخ الأعظم الأنصاري قدس سره في مناسكه وآية الله البهجة في الحاشية وما أفتى به السيد القائد. قال الشيخ قدس سره: «اعلم أنّ الترتيب بين الرمي والذبح والحلق واجب على الأشهر الأحوط، ولكن إذا خالف فقدّم الثاني على الأول أو قدّم الثالث على الثاني أو الأول فإن كان ذلك عن نسيان فلا يضرّ، وأمّا إن كان عن عمد فالمشهور عدم وجوب الإعادة، وفي دليلهم تأمل، فلا يترك الاحتياط إن أمكنه ذلك». وذكر آية الله البهجة في الحاشية «الأظهر تمامية قول المشهور». وجاء في مناسك السيد القائد:

مسألة ٢٨٦: يجب في يوم العيد رمي جمرة العقبة أولاً ثم الذبح ثم التقصير أو الحلق، فإن أخلّ عمداً بالترتيب المذكور كان عاصياً، ولكن لا يجب عليه إعادة الأعمال مرتبّة على الظاهر، وإن كانت الإعادة مع التمكن موافقة للاحتياط، وكذا الحكم في صورتى الجهل والنسيان.

والحمد لله رب العالمين

الهوامش:

وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الصَّبِيِّ

ص: ٢٣٩

وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ

محسن الأسدي

واحدة من آيات ثلاث ذكرت الطواف الذي هو من أعظم وأفضل مناسك الحج- على عظمتها وفضيلتها- أجراً وثواباً وأكثرها أحكاماً وآداباً وتفصيلاً:

وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١)

وَطَهَّرُوا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢)

والآية التي نحن بصدد الوقوف عندها هي الثالثة:

وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣)

وفقرتها الأولى وليطوفوا...

هي محور مقالتنا هذه من الناحيتين التفسيرية والفقهية.. لنصل بعد ذلك إلى واحد من الأطوفاة المهمة عند الإمامية وهو طواف النساء الذي سينصب أكثر بحثنا عليه.. فيما ستكون فقرتها الثانية... بالبيت العتيق محل بحث آخر إن شاء الله تعالى. وليطوفوا...

الاعراب:

وليطوفوا: معطوف بالواو على فعل مضارع مجزوم بلام الأمر قبله

١-١ البقرة: ١٢٥.

٢-٢ الحج: ٢٦.

٣-٣ الحج: ٢٩.

ص: ٢٤٠

وهو ليقضوا، فحذفت نونه لأنها علامة جزمه وهو من الأفعال الخمسة يطوفون. والواو فاعله، والألف للتفريق. ثم هو نفسه أيضاً مجزوم بلام الأمر الداخلة عليه.

القراءة:

قرأ بعضهم - وهو المشهور - اللام في الكلمات الثلاث الواردة في هذه الآية: ... ثم ليقضوا ... وليوفوا .. وليطوفوا .. بإسكان لام الأمر في جميعها.

فيما قرأ آخرون: وليوفوا ..، وليطوفوا .. بكسر اللام فيهما (١).

الطواف لغة:

طاف حول الشيء وبالشيء طوفاً وطوفاً وطوفاً دار حوله.

والجمع: الأطواف.

وطوف حول الشيء وبه تطويفاً وتطوفاً، وتطوف تطوفاً واطوفاً ..

واستطاف استطافاً طاف وأكثر المشى حوله، وطوف فلاناً. طاف به.

وأطاف بالشيء إطافاً ألم به وقاربه.

قال بشر:

أبو صبيبة شعثٌ يُطيفُ بشخصه كوالح أمثالُ العاسيب ضمر

والطواف: مصدر. ورجل تطوف: أي طاف. ورجل طاف أي كثير الطواف، وطوف أي أكثر الطواف وطاف بالبيت وأطاف عليه: دار حوله.

قال أبو خراش:

تُطيفُ عليه الطيرُ وهو ملتحبٌ خلافَ البيوتِ عندِ محتملِ الضرم

الطواف: أصله المشى أو مشى فيه استدارةً. طاف حول الكعبة وبها يطوف طوفاً وطوفاً وطوفاً ومطافاً وطوفاً وطاف يطيف وتطوف واطوفاً واستطاف: استدار بها وطوف: أكثر الطواف. والمطاف:

موضع الطواف. ورجل طاف: كثير الطواف (٢). وهو من أعمال الحج والعمرة.

فالطواف: الدوران بالشيء من جوانبه. يقول تعالى: وليطوفوا بالبيت العتيق. والمطاف: موضع الطواف حول الكعبة وغيرها (٣).

١- ١ معجم القرآيات القرآنية ٤: ١٧٨.

٢- ٢ انظر الافصاح في فقه اللغة ٢: ١١٧٧. لسان العرب لابن منظور ٩: ٢٢٥ طوف. محيط المحيط، المعلم بطرس البستاني: ٥٦٠ طوف.

٣- ٣ المصدر نفسه.

ص: ٢٤١

الطواف اصطلاحاً

وشرعاً فهو وجوب الدوران سبعة أشواط حول البيت (الكعبة المشرفة) تعظيماً لها وامتنالاً لأمره تعالى في ذلك بدليل الآية المذكورة والسنة النبوية: «خذوا عني مناسككم». والنصوص والإجماع.

ابتداءً من الحجر الأسود وانتهاءً به وفق ضوابط وشروط مذكورة في كتب الفقه عند جميع الفرق الإسلامية .. ليشكل بذلك منسكاً عظيماً من مناسك فريضة الحج وركناً من أركانها الستة: «النية والإحرام والوقوف بعرفات والوقوف بالمشعر والطواف والسعي» وسواء أكان الحج حج تمتع أو أفراد أو قران.

وركناً - أيضاً - من أركان العمرة «النية والإحرام والطواف والسعي» سواء أكانت عمرة مفردة أو عمرة التمتع.

*** وقد ذكروا للطواف أنواعاً:

عند المذاهب الأربعة

١- طواف القدوم: يستثنى منه أهل مكة ومن هم في ضواحيها؛ لعدم صدق القدوم إلى مكة عليهم، كما أنه لا يسن للحاج بعد الوقوف بعرفة ولا للمعتمر لأنه دخل وقت طوافهما المفروض، فيما هو سنة عند جمهور فقهاءهم لكل حاج دخل مكة المكرمة أي الآفاقي وهو غير المكي، قبل الوقوف بعرفة سواء أكان هذا الحاج مفرداً أم قارناً.

إذاً هو مستحب في مذاهبهم ويشبه ركعتي التحية للمسجد وهو هنا تحية للبيت لا للمسجد. ولهذا سمي طواف التحية، استحبابه متفق عليه عند الشافعية والحنبلية والحنفية، أما المالكية فقد تفرّدوا بقولهم: إن على تارك هذا الطواف دمًا.

يقول الزحيلي:

فيستطواف القدوم عن ثلاثة:

المكي ومن في حكمه وهو من كان منزله دون المواقيت.

المعتمر والمتمتع ولو آفاقياً.

ومن قصد عرفه رأساً للوقوف.

ونقل قول المالكية: إن طواف

ص: ٢٤٢

القدوم يجب على من أحرم من الحّل ولو كان مكياً، وتجب الفدية على من قصد عرفه وترك طواف القدوم وكان الوقت متسعاً. وقالوا أيضاً: يطوف المتمتع للقدوم قبل طواف الإفاضة ثم يطوف طواف الإفاضة. أما الحكمة منه: فيقول: إن الطواف تحية البيت لا المسجد، فيبدأ به لا بصلاة تحية المسجد؛ لأنّ القصد من إتيان المسجد البيت، وتحيته الطواف.

وذكر له أحكاماً وآداباً متعدّدة.. (١) ومن أسمائه الأخرى التي ذكرها:

طواف التحية للسبب الذي ذكر.

وطواف القادم. طواف ورود الحجاج مكة أو الوارد.

٢- طواف الزيارة: باتفاق جميع الفقهاء من الفريقين أنه ركن لا يتم الحج بدونه ويفوت بفواته. وأنه إن ترك لا يجزئ عنه دم للآية الكريمة:

وليطوفوا بالبيت العتيق. ولما ورد عن أم المؤمنين عائشة: «حججنا مع النبي صلى الله عليه وآله فأفضنا يوم النحر، فحاضت صفيّة، فأراد النبي صلى الله عليه وآله منها ما يريد الرجل من أهله، فقلت: يا رسول الله، إنّها حائض، قال: أحابستنا هي؟ قالوا: يا رسول الله، إنّها قد أفاضت يوم النحر، قال: اخرجوا» (٢).

يقول الزحيلي بعد ذكره لهذه الرواية: فمن ترك طواف الزيارة، رجع من بلده متى أمكنه محرماً، لا يجزئه غير ذلك، لقصة صفيّة المتقدّمة، فإنّه صلى الله عليه وآله قال بعد أن حاضت:

«أحابستنا هي؟ قيل: إنّها قد أفاضت يوم النحر، قال: فلتنفر إذا».

فهذا يدلّ على أنّ هذا الطواف لا بدّ منه، وأنه حابس لمن لم يأت به، فإن نوى التحلل ورفض إحرامه، لم يحل بذلك؛ لأنّ الإحرام لا يخرج منه بتيّة الخروج. وعلى هذا فإذا فات طواف الإفاضة عن أيام النحر لا يسقط، بل يجب أن يأتي به؛ لأنّ سائر الأوقات وقته.

١- ١ الزحيلي ٣: ١٤٤-١٤٦ الفقه الإسلامي وأدلّته.

٢- ٢ نيل الأوطار ٥: ٨٨ متفق عليه.

ص: ٢٤٣

ومع أنه ركن في جميع المذاهب بالإجماع، إلا أن أبا حنيفة مع كونه واجباً ركناً عنده إلا أنه فرّق بين أشواطه السبعة، فجعل الأشواط الأربعة منها شرطاً والثلاثة الأخيرة واجباً.

وأيضاً له أسماء عندهم:

فهو يسمّى بطواف الزيارة؛ لأنّ الحاج يأتي مكة زائراً لا مقيماً فيها، فمبنيته في منى.

وسمى بطواف الإفاضة؛ لأنّ الحاج - سواء أكان مكياً أو آفاقياً - يأتي به عند إفاضته من منى إلى مكة، وهو من أعمال مكة.

وسمى بطواف الركن؛ لأنه ركن لا يتمّ الحجّ إلّاه وهو محلّ اتفاق جميع الفقهاء، وأيضاً - لهذا السبب - يسمّى بطواف الحجّ وبطواف الفريضة.

٣- طواف الوداع أو طواف الصدر وهو آخر طوافٍ بالبيت سميّ بذلك لأنّ الحاج يودع البيت ويصدر عنه عائداً إلى أهله ووطنه،

وقال الحنفية والحنابلة بوجوبه إذا تركه الحاج يلزمه دم فقط فيما قالت المالكية:

إنّه مستحبّ. أمّا الشافعي فله قولان فيه: الوجوب، الاستحباب.

عند الإمامية:

هناك أطوفة واجبة عند الإمامية وأخرى مستحبة:

أمّا الواجبة فهي أربعة:

١- طواف عمره التمتع وهو واجب وركن فيها تبطل بتركه عمداً.

٢- طواف الحجّ ويسمى طواف الزيارة وهو واجب وركن يبطل الحجّ بتركه عمداً.

٣- طواف النساء، واجب في الحجّ وفي العمرة المفردة وليس ركناً فيهما.

٤- طواف العمرة المفردة واجب وركن فيها تبطل بتركه عمداً.

أمّا المستحبة فهي كثيرة حتى ورد أنّه يستحبّ للحاج أن يطوف عشرة أسابيع في كلّ يوم وليلة، بل ورد أنّه «يستحبّ أن يطوف

ثلاثمائة وستين اسبوعاً على عدد أيام السنة،

ص: ٢٤٤

فإن لم تستطع فتلاثمائة وستين شوطاً، فإن لم تستطع فما قدرت عليه من الطواف» (١).

فمع استحباب الاكثار من الطواف بالبيت إلّا أنّ هناك أطوفه أكد استحبابها وعظم ثوابها، منها:

١- طواف القدوم: مستحب يجوز تركه.

٢- طواف الوداع: مستحب هو الآخر، وإن قيل بأنّه يجزى عن طواف النساء إلّا أنّ هذا يفتقر إلى دليل معتبر لإجزائه عن الواجب الآخر وهو طواف النساء. نعم هناك خبر إسحاق ابن عمّار وهو الخبر الوحيد بهذا الخصوص، الذي أفتى على ضوءه على ابن بابويه على ما حكى ذلك عنه في الجواهر وفي الحدائق (٢)، والذي يدلّ بظاهره على كفاية طواف الوداع عن طواف النساء. وابن الجنيد سمى طواف النساء.. طواف الوداع وأوجه (٣).

فعن موسى بن القاسم عن عبد الله بن سنان عن إسحاق بن عمّار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لولا ما منّ الله به على الناس من طواف الوداع؛ لرجعوا إلى منازلهم ولا ينبغي لهم أن يمسوا نساءهم.... (٤) وهو ما جاء في التهذيب ٥: ٨٥٣/٢٥٦. وهو خبر مردود لأنّه:

أولاً: ورد في الكافي ب (طواف النساء) وليس بطواف الوداع، والكافي أقدم من غيره. فعن عبد الله ابن سنان عن اسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لولا ما منّ الله عزّوجلّ على الناس من طواف النساء لرجع الرجل إلى أهله وليس يحلّ له أهله. وفي هامش هذه الرواية في الكافي ذكر أنّ معناها: ظاهر والأظهر طواف الوداع بدل طواف النساء كما في التهذيب والفقهاء. وتوجيهاً منه لهذه الرواية راح يذكر: أنّ العامّة وإن لم يوجبوا طواف النساء.. إلّا أنّ طوافهم ينوب مناب طواف النساء وبه تحلّ لهم النساء وهذا بما منّ الله تعالى به عليهم.. أو المراد من نسي طواف

١- ١ وسائل الشيعة ١٣: ٣٠٨.

٢- ٢ الحدائق الناضرة ١٦: ١٨٥.

٣- ٣ انظر فتاوى ابن الجنيد: ١٣٩.

٤- ٤ وسائل الشيعة ١٣: ٢٩٩، ح ٣.

ص: ٢٤٥

النساء وطاف طواف الوداع فهو قائم له مقامه بفضل الله في حلّ النساء ولزمه التدارك (١).. وإن كانت هذه مجرد استحسانات.. لا دليل معتبر عليها.

ثانياً: ضعيف السند. وفيه تأمل.. حيث قال في الحدائق: إن في إسحاق بن عمار قولاً (٢). ولعلّ هذا لكونه فطحياً أو لأنّ هناك من قال: فالأولى عندي التوقف فيما ينفرد به.

علماً بأنّه من أصحاب الصادق والكاظم وهو ثقة وأصله معتمد..

وقال عنه النجاشي: كان شيخاً من أصحابنا ووثقه ابن شهر آشوب أيضاً.. فإسحاق بن عمار سواء قلنا بأنّه واحد أو قلنا بأنّه متعدّد أيّ الصيرفي أو الساباطي.. فهو - فيما تيسر لي - لا شك في أنّه ثقة باتّفاق علماء الرجال (٣).

ثالثاً: معارض من قبل الروايات الأخرى الدالّة صراحة على وجوب طواف النساء.

رابعاً: يخالف ما عمل به المشهور وما أجمع عليه من وجوب طواف النساء لا طواف الوداع الذي هو مستحب عندهم.

وهناك رواية لم يعمل بها الفقهاء لأنها مرسلّة، فقد روى فيمن نسي طواف النساء أنّه إن كان طاف طواف الوداع فهو طواف النساء

(٤)***

بعد كلّ هذا نأتى إلى ما يقوله المفسّرون والفقهاء بخصوص الطواف المأمور به في الآية: وليطوفوا أمر بالطواف بالبيت بل فيه تأكيد ومبالغة أي جاء الأمر بالطواف والمبالغة فيه والاكثار منه، بعدما تطهروا في منى وبعدهما وفوا بنذورهم... ثمّ ليقضوا تفثهم وليوفوا بنذورهم.. وقد انتهى احرامهم وجاءوا إلى البيت الحرام لأداء باقى المناسك وقد حلّ لهم كلّ شيء بالحلق إلّامسّ النساء والطيب وهذا الأخير يحلّ بطواف الزيارة، وأمّا حليّة النساء فلا تتمّ إلّابطواف النساء وهو ما عليه الإمامية وتفردت به دون الفرق الأخرى التي يحلّ

١- ١ الكافي ٤: ٥١٣، الهامش.

٢- ٢ الحدائق الناضرة ١٦: ١٨٥.

٣- ٣ أنظر جامع الرواة ١: ٨٢، والخلاصة للعلامة الحلي: ٣١٧-٤١٨ و خاتمة الوسائل ٣٠: ٣٧ وغيرها من كتب الرجال.

٤- ٤ وسائل الشيعة ١٣: ٤٠٨.

ص: ٢٤٦

لحجاجها كل شيء حرم عليهم بالنحر وبعد إتمام الحج بالطواف الواجب طواف الزيارة.
يقول الشيخ مغنية في تفسيره:

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الطواف في صيغته المبالغة حيث يستحب الإكثار منه، كما يستحب الإكثار من الصلاة، فلقد اشتهر عن نبي الرحمة صلى الله عليه وآله أنه قال: «الطواف بالبيت صلاة» (١).

وفي وصفه لهذا الطواف، بعد أن تطهر الحاج في منى من ذنوبه ومن قبلها في المزدلفة وعرفات ومما تحيطه من أدران وأوساخ... وحل له كثير مما حرم عليه بعد إحرامه، يقول القشيري صاحب كتاب لطائف الإشارات:

فيبدأ الطواف بالبيت حيث يطوف بنفسه حوله وبقلبه في ملكوت السماء، وبسرّه في ساحات الملكوت (٢)..
الطواف المراد بالآية:

وقد اختلفت آراء المفسرين والفقهاء حول الطواف المراد بهذه الآية فبعضهم وقف في مرادها عند الواجب فيما ذهب فريق آخر إلى أن المراد الطواف الواجب والمستحب..

السنة:

فبعد قوله في تفسير هذه الآية: ... وبالنحر ينتهي الإحرام فيحل للحاج حلق شعره أو تقصيره، وبتف شعر الأبط، وقص الأظفار والاستحمام، مما كان ممنوعاً عليه في فترة الإحرام، وهو الذي يقول عنه:

ثم ليقتضوا تفثهم وليوفوا نذرهم التي نذروها من الذبائح غير الهدى الذي هو من أركان الحج.

يقول سيد قطب بخصوص آيتنا المذكورة: وليطوفوا بالبيت العتيق طواف الإفاضة بعد الوقوف بعرفات، وبه تنتهي شعائر الحج، وهو غير طواف الوداع (٣).

أما الزحيلي فبعد أن يقول: ثم أمر بالنظافة وإيفاء النذر والطواف فقال: ثم ليقتضوا تفثهم وليوفوا نذرهم وليطوفوا بالبيت العتيق هذه أوامر بواجبات ثلاثة على سبيل الإيجاب، أي ليزيلوا الأوساخ من على أجسادهم بقص الأظفار وحلق

١- ١ تفسير الكاشف لمحمد جواد مغنية في تفسير الآية ٢٩ من سورة الحج.

٢- ٢ لطائف الإشارات ٢: ٥٤٠.

٣- ٣ في ظلال القرآن ٤: ٢٤٢٠ في تفسير الآية ٢٩ من سورة الحج.

ص: ٢٤٧

الأشعار ونحوه من الأغمسال، وليوفوا نذورهم التي نذروها تقرباً إلى الله تعالى من أعمال البر. والنذر: كل ما لزم الإنسان أو التزمه. ذكر أنه:

وليطوفوا طواف الركن أو الإفاضة، وقبل طواف الوداع، بالبيت العتيق أى القديم، فهو أقدم بيت للعبادة (١).

وينتهى الزحيلي أخيراً إلى أن قوله تعالى: وليطوفوا.. يدل على لزوم هذا الطواف، والمراد به طواف الإفاضة الذى هو من واجبات الحج، وينقل قول الطبرى أنه: لا خلاف بين المتأولين فى ذلك (٢).

ثم راح يردّ على من يقول: إنه طواف الوداع- وهو ما احتمله ابن عطية كما ذكره صاحب تفسير البحر المحيط الذى كان يذهب إلى أنه طواف الزيارة وهو ركن والذى به تمام التحلل (٣)- أما القول بأنه طواف الوداع (الصدر) فهو بعيد؛ لأن الطواف الذى يلي قضاء التفث إنما هو طواف الإفاضة، فلا مناسبة هنا لطواف الوداع (٤).

وبعد أن يذكر أنواع الأطوفة عند الفرق الإسلامية الأربعة ينتهى إلى أن طواف الإفاضة فرض وركن لا يتم الحج إلابه بالاتفاق؛ لقوله تعالى:

وليطوفوا بالبيت العتيق (٥).

يقول الرازى حول هذه الآية فى تفسيره الكبير: إن المراد الطواف الواجب وهو طواف الإفاضة والزيارة (٦). وهو ما عليه القرطبي كما فى أحكامه حيث يقول: هو طواف الإفاضة الذى هو من واجبات الحج (٧)، وقد نفى الطبرى فى تفسيره الخلاف فيه كما ذكرناه آنفاً (٨).

وقد نفى الجصاص فى أحكامه أن يكون الطواف المذكور فى الآية غير طواف الحج: وليطوفوا بالبيت العتيق فالطواف المذكور هو طواف الحج لا غيره وهو طواف ركن لا واجب فقط يبطل الحج بتركه بنص هذه الآية، ولا يمكن الاستناد إليها على وجوب الأطوفة الأخرى عند الفريقين، فيبقى الطواف الواجب بنص القرآن الكريم هو طواف الحج الذى

١-١ التفسير المنير. الدكتور الزحيلي ١٧: ١٩٧.

٢-٢ التفسير المنير. للدكتور الزحيلي ١٧: ٢٠٢.

٣-٣ انظر تفسير البحر المحيط لابن حيان الأندلسي ٦: ٣٣٩.

٤-٤ التفسير المنير. للدكتور الزحيلي ١٧: ٢٠٣.

٥-٥ التفسير المنير ١٧: ٢٠٣.

٦-٦ التفسير الكبير للرازى. الآية.

٧-٧ أحكام القرآن للقرطبي فى تفسير الآية.

٨-٨ تفسير الطبرى، الآية.

ص: ٢٤٨

يسمى طواف الزيارة أو طواف الإفاضة أو ..

ثم إن بعد أعمال يوم النحر في منى، لا طواف واجب يكتمل به الحج إلّا طواف الحج هذا المذكور في الآية. كما راح يذكر: أنّ هناك من صرف هذه الآية إلى طواف آخر فبعد أن يذكر قول الحسن إنّه قال: طواف الزيارة، وقول مجاهد: إنّه الطواف الواجب، فإن قيل: يحتمل أن يريد به طواف القدوم الذي فعله رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه حين قدموا مكة وحلّوا به من إحرام الحج وجعلوه عمره إلمارسول الله صلى الله عليه وآله فإنه كان قد ساق الهدى فمنعه ذلك من الإحلال ومضى على حجته.

وهنا يذكر ردوداً على هذا فيقول: لا يجوز أن يكون المراد به طواف القدوم من وجوه:

الأول: أنّه مأمور به عقيب الذبح، وذبح الهدى إنّما يكون يوم النحر؛ لأنّه قال: ويذكروا اسم الله ... وليطوفوا بالبيت العتيق (١)

وحقيقته ثم للترتيب والتراخي وطواف القدوم مفعول قبل يوم النحر، فثبت أنّه لم يُرد به طواف القدوم. الثاني: أنّ قوله: وليطوفوا هو أمر والأمر على الوجوب حتى تقوم دلالة الندب. وطواف القدوم غير واجب، وفي صرف المعنى إليه صرف للكلام عن حقيقته.

الثالث: أنّه لو كان المراد الطواف الذي أمر به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله حتى قدموا مكة لكان منسوخاً؛ لأنّ ذلك الطواف إنّما أمروا به لفسخ الحج وذلك منسوخ بقوله تعالى: وأتموا الحجّ والعمرة لله (٢).

وبما روى ربيعة عن الحارث بن بلال بن الحارث المزني عن أبيه قال:

قلت: يا رسول الله أ رأيت فسخ حجتنا لنا خاصة أم للناس كافة؟ قال:

«بل لكم خاصة» وروى عن عمر وعثمان وأبي ذر وغيرهم مثل ذلك.

وقال ابن عباس: لا يطوف الحاج للقدوم وإنّه إن طاف قبل عرفه صارت حجته عمرة. وكان يحتجّ بقوله

١- ١ سورة الحجّ: ٢٨ و ٢٩.

٢- ٢ سورة البقرة: ١٩٦.

ص: ٢٤٩

تعالى: ثُمَّ مَحَلَّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ فَذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ يَحِلُّ بِالطَّوْفِ قَبْلَهُ قَبْلَ عَرَفَةَ أَوْ بَعْدَهُ، فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ هَذَا الْحَكْمَ بَاقٍ لَمْ يَنْسَخْ وَإِنْ فَسَخَ الْحَجَّ قَبْلَ تَمَامِهِ جَائِزٌ بِأَنْ يَطُوفَ قَبْلَ الْوُقُوفِ بِعَرَفَةَ فَيَصِيرُ حَجَّهُ عَمْرَةً. وَقَدْ ثَبَتَ بِظَاهِرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ لِلَّهِ نَسَخَهُ.

وهذا معنى ما أراده عمر بن الخطاب بقوله: «متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله أنا أنهى عنهما وأضرب عليهما؛ متعة النساء و متعة الحج» وذهب فيه إلى ظاهر هذه الآية وإلى ما علمه من توقيف رسول الله صلى الله عليه وآله إياهم على أن فسح الحج كان لهم خاصة؛ وإذا ثبت أن ذلك منسوخ لم يجز تأويل قوله تعالى: وليطوفوا ... عليه فثبت بما وصفنا أن المراد طواف الزيارة (١).

وفي تفسير الوسيط يقول النيسابوري: وليطوفوا ... يعنى الطواف الواجب ويسمى طواف الإفاضة لأنه يكون بعد الإفاضة (٢). وقال ابن عربى فى أحكامه: هذا هو طواف الزيارة وهو طواف الإفاضة وهو ركن الحج باتفاق، وبه يتم الحج؛ لأنه أحد أعماله ونهاية أركانه (٣).

الشيعة الإمامية:

فى هذه المسألة لهم أقوال ثلاثة:

الأول: يذهب إلى أن المراد بالآية الطواف الواجب سواء أكان طواف الحج أو طواف عمره التمتع أو العمرة المفردة.

الثانى: يذهب إلى أن المراد بالآية الطواف الواجب وطواف النساء.

الثالث: يذهب إلى أن المراد بالآية هو طواف النساء وهو ما سنجدّه فيما يأتى.

الرابع: يذهب إلى أكثر من هذا وذاك ليخلص إلى أن الآية تدلّ على الأطوفه الواجبه والمستحبّه.

أما ما قاله الشيخ الطوسى فى تبيانه: وليطوفوا بالبيت العتيق أمرٌ من الله تعالى بالطواف بالبيت (٤).

١- ١ أحكام الجصاص ٣: ٣٥٤.

٢- ٢ الوسيط فى تفسير القرآن المجيد، الواحدى النيسابورى ٣: ٢٦٨ فى تفسير الآية ٢٩ الحج.

٣- ٣ أحكام القرآن لابن عربى ٣: ٢٨٥.

٤- ٤ تفسير التبيان الآية ٢٩ الحج.

ص: ٢٥٠

دون أن يذكر نوع هذا الطواف، إلا أنه واضح من كلمته «أمراً» أنه يقصد الطواف الواجب دون المستحب وإن لم يبين نوع الطواف الواجب..

أما السيد شبر في تفسيره فيذهب إلى أن وليطوفوا أعم من كونها تختص بالطواف الواجب طواف الحج فيقول: وليطوفوا طواف الزيارة والنساء أو الوداع أو ما يعمها (١).

وهو ما ذهب إليه أيضاً صاحب كنز العرفان حيث يقول: وليطوفوا بالبيت العتيق صريح في الأمر بالطواف بالبيت الدال على الوجوب اتفاقاً، لكنه مجمل علم بيانه من الرسول صلى الله عليه وآله لقوله صلى الله عليه وآله: «خذوا عني مناسككم» (٢) فيكون شاملاً لطواف الزيارة والنساء وغيرهما من طواف العمرة فلا وجه [حينئذ] لحمله على طواف الزيارة لا غير أو النساء لا غير (٣).

واستظهر صاحب زبدة البيان (طواف الزيارة): ويجب طواف البيت الذي في المسجد الحرام وهو القبلة... وقيل: المراد طواف الزيارة وقيل طواف النساء ويحتملها معاً، وقيل:

طواف الوداع، ويحتمل الكل مجازاً، والظاهر الأول. حيث كان الكلام في الحج، وأنه ذكره بعد التحليل والذبح، ويمكن فهم وجوب الترتيب في الجملة بين مناسك منى (٤).

ولعل مستندهم ما رواه في الكافي عن أحمد بن محمد.. قال: قال أبو الحسن عليه السلام في قول الله عز وجل: وليطوفوا بالبيت العتيق قال:

«طواف الفريضة طواف النساء» باعتبارهما طوافين واجبين بعد مناسك منى.

أو جمعاً بين الروايات التي تفسر الطواف الوارد في الآية بطواف الفريضة وبين التي تفسره بطواف النساء.

فمن أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن الرضا عليه السلام قال: سألته عن قول الله تبارك وتعالى: ثم ليقتضوا تفثهم وليوفوا نذورهم قال: تقليم الأظفار،

١-١ تفسير القرآن الكريم، الآية ٢٩ الحج.

٢-٢ سنن أبي داود ١: ٤٥٦ ولفظه: لتأخذوا مناسككم فإنني لا أدري لعلّي لا أحج بعد حجتي هذه.

٣-٣ انظر كنز العرفان في فقه القرآن للسيوري، كتاب الحج ١: ٢٧٠.

٤-٤ زبدة البيان للمقدس الأردبيلي، كتاب الحج: ٢٨٨.

ص: ٢٥١

وطرح الوسخ عنك، والخروج من الاحرام وليطوفوا بالبيت العتيق طواف الفريضة (١).

فيما روى حماد بن عثمان، عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل:

وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق قال: طواف النساء (٢).

في حين كان الطبرسي في تفسيره للآية أكثر تفصيلاً فقد قال: هذا أمر وظاهره يقتضى الوجوب، وقيل: أراد به طواف الزيارة؛ لأنه من

أركان أفعال الحج بلا خلاف. وقيل: إنه طواف الصدر (أى طواف الرجوع من منى) لأنه أمر به عقيب المناسك كلها.

وذكر في ذيل كلامه هذا أنه: وروى أصحابنا أن المراد به طواف النساء الذى يستباح به وصل النساء وذلك بعد طواف الزيارة، فإنه

إذا طاف طواف الزيارة حل له كل شيء إلا النساء، فإذا طاف طواف النساء حلت له النساء (٣).

بينما راح جمع من الفقهاء - واستناداً إلى طائفة من الروايات التى تفسّر الطواف الوارد فى الآية المذكورة، بأنه طواف النساء -

يصرّحون بأن طواف النساء هو مراد الآية والذى هو واجب فى الحج بأنواعه وفى العمرة المفردة وبدونه لا تحلّ النساء لأزواجهنّ ولا

يحلّ الرجال لزوجاتهم يقول فى الجواهر:

«.. وكذا تحرم عليه النساء لمسا بشهوة وعقداً لنفسه أو لغيره.

بلا خلاف بل الاجماع بقسميه عليه (٤).

الروايات:

فعن حماد بن عثمان عن أبي عبد الله عليه السلام فى قول الله عز وجل:

وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق قال: «طواف النساء» (٥).

وعن حماد الناب قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل:

وليطوفوا بالبيت العتيق قال: «هو طواف النساء» (٦).

واتخذ فقهاء الإمامية هذه الآية وتفسيرها المذكور فى الروايات دليلاً على وجوب طواف النساء إضافةً إلى روايات أخرى منها:

١- ١ الوسائل ١٣: ٢٩٧ باب ١ وجوب طواف الحج والعمرة ح ١٣.

٢- ٢ الوسائل ١٣: ٢٩٩ باب ٢ وجوب طواف النساء ح ٥.

٣- ٣ مجمع البيان ٧: ١٣٠.

٤- ٤ الجواهر ١٨: ٢٨٩ وغيره.

٥- ٥ الوسائل ١٣، الباب ٢، من أبواب الطواف، ح ٢.

٦- ٦ الوسائل ١٣: ٢٩٩، ح ٤.

ص: ٢٥٢

عن معاوية بن عمّار في الصحيح أو الحسن عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

«القارن لا يكون إلّا بسياق الهدى، وعليه طواف بالبيت وركعتان عند مقام إبراهيم وسعى بين الصفا والمروة، وطواف بعد الحجّ وهو طواف النساء» (١).

وعن أحمد بن محمد، قال: قال أبو الحسن عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ:

وليطوفوا بالبيت العتيق قال:

طواف الفريضة طواف النساء (٢).

صحيحه معاوية بن عمّار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «على المتمتع بالعمرة إلى الحجّ ثلاثة أطواف بالبيت، وسعيان بين الصفا والمروة، فعليه إذا قدم مكة طواف البيت وركعتان عند مقام إبراهيم عليه السلام وسعى بين الصفا والمروة، ثمّ يقصّر وقد أحل، هذا للعمرة، وعليه للحجّ طوافان وسعى بين الصفا والمروة ويصلّى عند كلّ طواف بالبيت ركعتين عند مقام إبراهيم عليه السلام» (٣). يقول هنا صاحب الحدائق:

قوله عليه السلام: «وعليه للحجّ طوافان» المراد طواف الزيارة وطواف النساء (٤).

وما رواه في الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «التمتع عليه ثلاثة أطواف بالبيت وطوافان بين الصفا والمروة» (٥).

وعن منصور بن حازم في الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

«على المتمتع بالعمرة إلى الحجّ ثلاثة أطواف بالبيت، ويصلّى لكل طواف ركعتين، وسعيان بين الصفا والمروة» (٦).

وهناك رواية فسّرت طواف الزيارة بطواف النساء، ففي الصحيح عن معاوية بن عمّار - كما رواه الشيخ في التهذيب - عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «... وأما المفرد للحجّ فعليه طواف بالبيت، وركعتان عند مقام إبراهيم وسعى بين الصفا والمروة، وطواف الزيارة وهو طواف النساء...» (٧).

هذا بالنسبة لما ورد من نصوص.

١- ١ الوسائل ١٣: الباب ٢، من أبواب أقسام الحجّ، ح ١٢.

٢- ٢ الوسائل ١٣، من أبواب الطواف، ح ٤.

٣- ٣ الوسائل ١١: الباب ٢، من أبواب أقسام الحجّ، ح ٨.

٤- ٤ الحدائق ١٧: ٢٨٢.

٥- ٥ الوسائل ١١: الباب ٢، من أبواب أقسام الحجّ، ح ١١.

٦- ٦ الوسائل ١١: الباب ٢، من أبواب أقسام الحجّ، ح ٢.

٧- ٧ الوسائل ١١: باب ٢، من أبواب أقسام الحجّ: ٢١٢-٢١٣٧ ح ٢.

ص: ٢٥٣

وأما أقوال فقهاء الإمامية:

يقول الشيخ الطوسي: دليلنا على وجوب طواف النساء: إجماع الفرقة، وطريقة الاحتياط (١).

ويقول صاحب الحدائق:

ولا- خلاف بين أصحابنا في وجوبه على جميع أفراد الحاج من الرجال والنساء والصبيان والخصيان، وادعى عليه الإجماع في المنتهى

ويدل على ذلك أيضاً ما رواه الشيخ في الصحيح عن الحسين بن علي بن يقطين قال:

سألت أبا الحسن عليه السلام عن الخصيان والمرأة الكبيرة، أعليهم طواف النساء؟ قال: «نعم عليهم الطواف كلهم».

فيما يقول صاحب الجواهر بلا خلاف معتد به أجده فيه بل عن المنتهى [هذا الطواف المسمى بطواف النساء فرض واجب على الرجال

والنساء والخصيان من البالغة وغيرهم، ذهب إليه علماؤنا أجمع، وأطبق الجمهور على أنه ليس بواجب] وفي التذكرة الإجماع عليه في

الجملة (٢) ويدل عليه مضافاً إلى الأصل وإطلاق قوله تعالى:

فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج [والرفث هو الجماع] وما دل على حرمة الرجال عليها بالاحرام.

وقاعدة الاشتراك إلأى ما استثنى، ذيل حديث إسحاق بن عمار: «... ولا تحلّ لهم النساء حتى يرجع فيطوف بالبيت اسبوعاً آخر بعدما

سعى بين الصفا والمروة وذلك على النساء والرجال واجب».

وقال صاحب براهين الحج:

أجمع الأصحاب على وجوب طواف النساء في الحج والعمرة المفردة... (٣) أمّا في مهذب الأحكام فيقول:

طواف النساء واجب في الحج بجميع أنواعه للإجماع والنصوص المستفيضة.. (٤).

فالمسلم به عند فقهاء الإمامية هو وجوب هذا الطواف وعدم كونه ركناً من أركان الفريضة..

وتبقى النصوص الواردة بهذا الخصوص هي أقوى الأدلة لوضوحها واستفاضتها.

١- ١ انظر الخلاف ومختلف الشيعة، الحج، الطواف.

٢- ٢ الجواهر ١٩: ٤١٠.

٣- ٣ براهين الحج للكاشاني ٤: ١٢٢.

٤- ٤ مهذب الأحكام للسبزواري ١٤: ٢٧.

ص: ٢٥٤

طواف النساء والعمرة المفردة والتمتع بها:

وطواف النساء واجب في العمرة المفردة كما هو واجب في الحج، وليس بواجب في العمرة المتمتع بها إلى الحج، التي يتحلل فيها الحاج من إحرامه وتروكه بمجرد التقصير.

فالمشهور بين فقهاء الإمامية وتوصف بأنها شهرة عظيمة أنه واجب في العمرة المفردة، كما أن المشهور بينهم عدم وجوبه في العمرة المتمتع بها إلى الحج، فيما قال السيد الخوئي: لا يجب طواف النساء في عمرة التمتع، ولا بأس بالإتيان به رجاءً. وقد نقل شيخنا الشهيد وجوبه عن بعض العلماء (١). فيقول في التذكرة: «هذا الطواف واجب في الحج والعمرة المبتولة عند علمائنا أجمع».

الروايات:

فعن إسماعيل بن رباح، قال:

سألت أبا الحسن عليه السلام عن مفرد العمرة عليه طواف النساء؟ قال: نعم (٢).

وعن محمد بن عيسى، قال: كتب أبو القاسم مخلد بن موسى الرازي إلى الرجل عليه السلام يسأله عن العمرة المبتولة، هل على صاحبها طواف النساء، والعمرة التي يتمتع بها إلى الحج؟

فكتب: أما العمرة المبتولة فعلى صاحبها طواف النساء، وأما التي يتمتع بها إلى الحج فليس على صاحبها طواف النساء (٣) وغيرها (٤). في حين ورد عن أبي خالد مولى علي بن يقطين أنه قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن مفرد العمرة عليه طواف النساء؟ قال عليه السلام: ليس عليه طواف النساء (٥).

ويأسناده عن محمد بن علي بن محبوب، عن عدة من أصحابنا، عن محمد بن عبد الحميد مثله، إلا أنه قال: عن مفرد الحج.

أقول: والقول ما زال لصاحب الوسائل: حمله الشيخ علي من أفرد العمرة في أشهر الحج، ثم أراد أن يجعلها عمرة التمتع لما [جاء في الأحاديث ١٢، ٢، ٥، ٨ من أحاديث

١- ١ مناسك الحج للسيد الخوئي: ١٥٤، المسألة ٣٥٧.

٢- ٢ الوسائل الباب ٨٢ من أبواب وجوب الطواف: ٤٤٣ ح ١، ٨.

٣- ٣ المصدر السابق.

٤- ٤ انظر الوسائل ١٣ الباب ٨٢.

٥- ٥ الوسائل ١٣ باب ٨٢: ٤٤٥.

ص: ٢٥٥

الباب ٨٢ باب وجوب طواف النساء في الحج مطلقاً، وفي العمرة المفردة دون عمرة التمتع: ٤٤٢-٤٤٥] ويحتمل الحمل على الإنكار، وعلى التقية (١).

فالمشهور بين الأصحاب شهرة عظيمة وجوبه فيها، بل لم يعرف الخلاف إلا عن الجعفي الذي نسب إليه عدم وجوبها فيها (٢)، مستفيداً من الخبر الوارد عن أبي خالد علي بن يقطين عن أبي الحسن عليه السلام قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن مفرد العمرة عليه طواف النساء؟ قال: ليس عليه طواف النساء (٣).

ومرسل يونس: ليس طواف النساء إلا على الحاج.

وفي صحيح معاوية، قال الصادق عليه السلام: إذا دخل المعتمر مكة من غير تمتع وطاف بالكعبة وصلّى ركعتين عند مقام إبراهيم عليه السلام وسعى بين الصفا والمروة فليحج بأهله إن شاء (٤).

وغيرها من النصوص وهي صريحة أو ظاهرة في عدم الوجوب؛ إلا أن عدم وجوب طواف النساء في العمرة المفردة لا يثبت بها، لأنها تعارض الأخرى التي عليها مشهور الفقهاء ولأنهم أعرضوا عنها، ولموافقها للعامة، كما أن الجمع بينها وبين النصوص الموجبة للطواف غير ممكن لوضوح التعارض بينها..

فالرواية القائلة: ليس على صاحبها طواف النساء والأخرى القائلة: في مفرد العمرة على صاحبها طواف النساء واضحة التعارض بنظر العرف. فإذاً الجمع بينها لا يمكن لأن التعارض مستقر فلا بد من إعمال تلك المرجحات وبالتالي يترجح العمل بالروايات الدالة على وجوب طواف النساء في العمرة المفردة (٥).

هذا وأن طواف النساء وإن كان واجباً إلا أنه ليس ركناً في الحج وهو ما عليه فقهاء الإمامية ومسلم بينهم، فلو أخل به الحاج أو تعمد تركه لا يوجب بطلان الحج. نعم حلية النساء لا تتم إلا بأدائه، وإن كان هذا لا يخلو من كلام بينهم، كما سيأتي.

١-١ الوسائل: ١٣ باب ٨٢: ٤٤٥ ذيل خبر أبي خالد مولى علي بن يقطين.

٢-٢ الجواهر ٩: ٤٠٦.

٣-٣ الوسائل ١٣ باب ٨٢: ٤٤٥ ح ٩.

٤-٤ الوسائل باب ٩ من أبواب العمرة ح ٢.

٥-٥ السيد السبزواري، نقاش لما ورد من الروايات بهذا الخصوص في مهذب الأحكام ١٤: ٢٩، وغيره.

ص: ٢٥٤

التحلل:

فتروك الإحرام والتي منها النساء يتحلل منها الحاج في الأوقات أو الأماكن التالية:

الأول: بعد أن يحلق أو يقصير، يحل له كل شيء حرم عليه إلا الطيب والنساء. والصيد ظاهراً؛ وإن حرم لاحترام الحرم باعتبار أن الصيد المحرم بالاحرام أو للحرم...

الثاني: بعد طواف الحج الذي يسمى طواف الزيارة وركعتيه وعن بعضهم بعد السعي بين الصفا والمروة، فيحل له الطيب.

الثالث: بعد أدائه لطواف النساء وركعتيه، فتحل له النساء.

فعن معاوية بن عمارة في صحيحته عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا ذبح الرجل وحلق (أي: يوم النحر) فقد أحل من كل شيء أحرم منه، إلا النساء والطيب. فإذا أراد البيت وطاف وسعى بين الصفا والمروة فقد أحل من كل شيء أحرم منه إلا النساء، وإذا طاف طواف النساء فقد أحل من كل شيء أحرم منه إلا الصيد.

وعن إسحاق بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لولا ما من الله عز وجل على الناس من طواف النساء؛ لرجع الرجل إلى أهله وليس يحل له أهله.

دائرة الحلية:

وقد اختلف في سعة دائرة هذه الحلية المتوقفة على أداء هذا الطواف بعد السعي، تبعاً لاختلاف ما ورد فيها من روايات على ثلاثة وجوه: ثالثها الاحتياط وهي:

الأول: حلية الجماع؛ لأن الاستمتاع والامور الأخرى وقع إحلالها قبل طواف النساء أي بعد الحلق والتقشير في مناسك منى.

ويستفاد هذا الوجه من صحيحة الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن رجل نسي أن يزور البيت حتى أصبح، فقال: ربما أخرته حتى تذهب أيام التشريق، ولكن لا تقربوا النساء والطيب (١).

إذن فالذي نهت عنه هذه الرواية

ص: ٢٥٧

هو مقارنة النساء أى الجماع بدليل ولا تقربوهن حتى يطهرن.. أى بالجماع (١).

الثانى: حلية الجماع والاستمتاع الأخرى كالتقبيل وهو ما ورد فى صحيحه معاوية بن عمّار عن أبى عبد الله عليه السلام قال: سألته عن رجل قبل امرأته وقد طاف طواف النساء ولم تطف هى، قال: عليه دم يهريقه من عنده (٢).

مع أنه لم تصرّح الرواية بالحرمة إلا أنه واستناداً إلى الملازمة العرفية يمكن القول بالحرمة المستكشفة من وجوب الكفارة على هذا الفعل. إلا أنّ صاحب الجواهر وكما حكى ذكر فى ذيل هذه الرواية التى يكون سندها صحيحاً معتبراً أنه لم يحضرنى أحد عمل به على جهة الوجوب فلا بأس بحمله على ضرب من الندب؛ لأن الغرض كونه قد أحلّ فلا شىء عليه إلا الإثم لو كان (٣).

الثالث: وهو أنّ حلية النساء وكلّ ما يتعلّق بها من عقد وتقبيل ولمس يتوقّف على أداء طواف النساء.

يقول السيد الإمام: «يجب الاحتياط عن مطلق التلذذ» (٤).

وجوب طواف النساء على الجميع:

لا فرق فى وجوب هذا الطواف بين الرجال والنساء والصبيان والخناثى والخصيان.

فهو لا يختصّ بالرجال دون النساء ولمقتضى إطلاق الآية فلا رث... التى لم تفرق بين الرجال والنساء وغيرهم فى التحريم، وللإجماع وللروايات التى تصرّح بأنّ هذا الطواف يجب على النساء أيضاً، ولأن الرث المذكور فى الآية فلا رث... هو الجماع كما ورد عن ابن مسعود وقتاده... وهو الجماع والتعريض له بمداعبة أو مواعدة عن الحسن.

يقول صاحب مجمع البيان فى تفسير قوله تعالى فى سورة البقرة أحلّ لكم ليلة الصيام الرث إلى نسائكم: الرث الجماع هاهنا بلا خلاف.

١- ١ سورة البقرة: ٢٢٢. وانظر مجمع البيان للطبرسى.

٢- ٢ الوسائل أبواب كفارات الاستمتاع الباب ١٨ ح ٢.

٣- ٣ تفصيل الشريعة ٥: ٣٨١.

٤- ٤ مناسك الحجّ: ٤٢١، مسألة ١٢٠٥.

ص: ٢٥٨

وفى الرواية... قال: الرفث:

جماع النساء... (١) وقد جاء فى المختار أن الرفث:

الجماع، وهو أيضاً الفحش من القول إلا أنه جاء فى المعجم الوسيط: الرفث كلمة جامعة لما يريد الرجل من المرأة فى سبيل الاستمتاع بها من غير كناية (٢).

وبالتالى فإن الجماع والمجامعة صيغة مفاعلة تحتاج إلى الطرفين، فلا بد من أن التحليل يشمل هذين الطرفين.

ورواية عبدالله بن صالح عن أبى عبدالله عليه السلام قال: المرأة المتمتع إذا قدمت مكة... ثم خرجت للحج إلى منى، فإذا قضت المناسك.. ثم طافت طواف الحج. ثم خرجت فسعت، فإذا فعلت ذلك فقد أحلت من كل شىء يحل منه المحرم إلا فراش زوجها، فإذا طافت طوافاً آخر، حل لها فراش زوجها (٣).

وعن الحسين بن على بن يقطين قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن الخصيان والمرأة الكبيرة، أعليهم طواف النساء؟ قال: نعم عليهم الطواف كلهم (٤).

ويقول فى مهذب الأحكام: تحرم النساء على الصبيان بعد البلوغ إن لم يأتوا بطواف النساء فى الحج قبله؛ لعدم التكليف عليهم قبل البلوغ وثبوته بعده، ويبطل العقد من الولى لهم قبل البلوغ أيضاً.. فىكون طواف النساء واجباً نفسياً حكمته حلية النساء لا أن يكون واجباً غيرياً يدور وجوبه مدار إمكان مباشرة النساء فعلاً (٥).

فرواية أبان بن تغلب قال:

سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «الصبي إذا حج به فقد قضى حجه الإسلام حتى يكبر» فىكفى فى هذا قصد الولى ومساعدته فهو نظير تزويج الولى إياه. فىستفيد الفقهاء من هذا أن إطلاق حجة الإسلام عليه ظاهر بل صريح فى كونه مشروعاً وصحيحاً وإن لم يكن المراد الحجة الواجبة، وهذا يتضمّن أنه إذا أحرم الصبي مميراً كان

١-١ وسائل الشيعة ١٣: ١١٥.

٢-٢ المختار من صحاح اللغة: رفث، المعجم الوسيط: ٣٥٨.

٣-٣ الوسائل، أبواب الطواف، الباب الرابع والثمانون ح ١.

٤-٤ الوسائل، أبواب الطواف، الباب ٢، ح ١.

٥-٥ مهذب الأحكام للسيد السبزواري ١٤: ٢٨.

ص: ٢٥٩

أو غير ممیز فإنه محرم واقعاً ولا بد من أن يحصل التحلل ممياً حرم عليه. ولذا يترتب عليه الآثار مثل وجوب اتقاء الولي عليه من المحرمات، ويترتب عليه وجوب الكفارة على أبيه، وهذا واضح في حديث زرارة عن أحدهما عليهما السلام قال: إذا حجَّ الرجل بابنه وهو صغير فإنه يأمره أن يلتي ويفرض الحج، فإن لم يخش أن يلبي لبوا عنه ويطاف به ويصلى عنه. قلت: ليس لهم ما يذبحون. قال: يذبح عن الصغار ويصوم الكبار، ويقضى عليهم ما يتقى على المحرم من الثياب والطيب، وإن قتل صيداً فعلى أبيه (١).

فإن وجوب الاتقاء وثبوت الكفارات على أبيه واضح وظاهر في صحته حججه وشرعيته وكذا عمرته. كما يترتب على هذا الأجر والثواب، فعن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سمعته يقول: مرَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم برويته وهو حاج، فقامت إليه امرأة ومعها صبى لها فقالت: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيجح عن مثل هذا؟ قال: نعم ولك أجره (٢).

فترتب الأجر على أداء عمل أو ترتيب الكفارة على تركه دليل مشروعته. فلا بد من أن يطوف به طواف النساء حتى يصح تزويجه بعد بلوغه، أو يأتي بطواف النساء بعد بلوغه؛ لأن طواف النساء لا تشترط فيه الفورية.

إذن طواف النساء مع وجوبه إلا أنه ليس ركناً من أركان فريضة الحج، بل ذهب بعض الفقهاء إلى أنه ليس بجزء من الحج ولا شرطاً متأخراً عنه. بل هو مأمور به بأمر وجوبى مستقل وأن يؤتى به فى وقت مخصوص بعد الحج، وعنوان البعدية كما فى رواية ابن عمارة... «وطواف بعد الحج وهو طواف النساء» (٣) لا يتحقق مع الجزئية. فمن تركه عمداً أو سهواً فلا يبطل حجّه بل حجّه صحيح، ولكن لا تحل له النساء حتى يأتي به مع إمكان الإتيان به وإلا فله أن يستنيب للروايات، وكيف لا تصح النيابة فيه وهو لم يكن بأهمية طواف

١-١ الوسائل، الباب ١٧ من أبواب أقسام الحج ح ٥.

٢-٢ الوسائل، الباب ٢٠ من أبواب وجوب الحج وشرائطه.

٣-٣ الوسائل، الباب الثانى من أبواب أقسام الحج، ح ٦، ١٢، ١.

ص: ٢٤٠

الزيارة الذي تجوز فيه النيابة؟

كما أنه ليس واجباً غيرياً يدور وجوبه مدار إمكان مباشرة النساء فعلاً بل هو واجب نفسى حكمته حلية النساء بل لا تتحقق إلأيه (١). فالطواف إذاً إما مباشرة من قبل المكلف فإن لم يستطع يطاف به كما هو الحال مع الطفل غير المميز أو مع السرير .. فإن لم يستطع من الأمرين المذكورين ينتقل عمله إلى المرحلة الثالثة وهو أن يطاف عنه، أى يأتى دور الاستنابة كما هو حال الحائض أو عدم القدرة على الرجوع إلى مكة لأداء الطواف تداركاً لما تركه نسياناً أو سهواً أو تعمداً (٢) ..

ثم إن الذى يدل على الجزئية إضافة إلى البعدية «وطواف بعد الحج وهو طواف النساء» الرواية... امرأة حاضت ولم تطف طواف النساء...

لا يقيم عليها جمالها ولا تستطيع أن تتخلف عن أصحابها، تمضى وقد تم حجها. فيما وردت غيرها تدل على الجزئية، مثل رواية منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: على المتمتع بالعمرة إلى الحج ثلاثة أطواف بالبيت ويصلى لكل طواف ركعتين وسعيان بين الصفا والمروة (٣). ورواية ابن عمارة عن أبي عبد الله... وعليه للحج طوافان وسعى بين الصفا والمروة ويصلى عند كل طواف بالبيت ركعتين عند مقام إبراهيم (٤).

وهنا لابد من وقفه قصيرة:

الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج (٥)

١- فالحج أشهر معلومة وهى شوال، ذوالقعدة، العشرة الأولى من ذى الحجة وعلى قول هو ذوالحجة كله، لا يقع الإحرام للحج إلأى هذه الأشهر...

ففى مجمع البيان: وأشهر الحج عندنا شوال وذوالقعدة وعشر من ذى الحجة على ما روى عن أبي جعفر وبه قال ابن عباس ومجاهد والحسن

١- ١ مهذب الأحكام ١٤: ٢٨.

٢- ٢ انظر فى هذا تفصيل الشريعة، ومهذب الأحكام، وفقه الصادق عليه السلام، وبراهين الحج.

٣- ٣ الوسائل، الباب الثانى من أبواب أقسام الحج، ح ٩.

٤- ٤ الوسائل، الباب الثانى من أبواب أقسام الحج، ح ٨.

٥- ٥ سورة البقرة: ١٩٧.

ص: ٢٤١

وغيرهم، وقيل هي شوال وذوالقعدة وذوالحجة عن عطاء والربيع وطاوس وروى ذلك في أخبارنا، وإنما صارت هذه أشهر الحج لأنه لا يصح الإحرام بالحج إلّا فيها بلا خلاف، وعندنا لا يصح أيضاً الإحرام بالعمرة التي يتمتع بها إلى الحج إلّا بها. ومن قال: إن جميع ذى الحجّة من أشهر الحج، قال: لأنه يصح أن يقع فيها بعض أفعال الحج مثل صوم الأيام الثلاثة وذبح الهدى... (١) وفي الكافي عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: الحج أشهر معلومات... قال: الحج أشهر معلومات شوال وذوالقعدة وذوالحجة ليس لأحد أن يحج فيما سواهن.

٢- والذي أوجب على نفسه الحج أي من أحرم فيهن بالحج عليه أن يلتزم بتروك الإحرام هذا كما ذكرت مفصلة من قبل الفقهاء في رسائلهم وكتبهم الفقهية...

٣- كلّ أفعال الحج تقع في هذه الأشهر وبأوقاتها المخصوصة، إلّا أنّ للحاج أن يؤخر ذبح الهدى وصوم الأيام الثلاثة على أن لا يتعدى التأخير نهاية ذى الحجّة، باستثناء السبعة أيام فيصومها الحاج عند رجوعه إلى أهله فيما إذا لم يكن من أهل مكة. فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَّةً يَوْمَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ [أي في أشهر الحج الثلاثة لا في غيرها] وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ (٢)

وما عدا ذلك فالذي يبدو أنه لا يجوز للحاج أن يتعمد تأخير عمل من أعمال الحج ومناسكه ومنها طواف النساء إن ثبتت جزئيته حتى وإن لم يكن ركناً منه. كما عليه رواية ابن حازم ورواية عمار المتقدمان، وأنه يجب قضاؤه.

وهذه الجزئية تنسجم مع الاستدلال بالآية فلا رفق... الذي هو الجماع.

رابعاً: فلا رفق... الذي هو الجماع بدليل الآية الأخرى أحلّ لكم ليلة الصيام الرفق إلى نسائكم (٣)

١- ١ مجمع البيان للطبرسي ١: ٥٢٤، التبيان للطوسي ٢: ١٦٢.

٢- ٢ سورة البقرة: ١٩٦.

٣- ٣ سورة البقرة: ١٨٧.

ص: ٢٤٢

وما ورد في الرواية من أن الرفث الجماع وما عليه اللغة.

فالرفث الذي هو الجماع محرم بنص هذه الآية على من أحرم سواء كان إحرامه للحج أو للعمرة المفردة أو للعمرة التمتع.. فهو إذن من تروك الإحرام وهو بالتالي يكون محدداً كباقي التروك بوقت الحج وما دام المكلف لم يتم الحج. كما في نص الآية... في الحج والذي أقصاه نهاية ذى الحجة.

فالمذاهب الإسلامية الأربعة تذهب إلى أن التحلل يقع بعد طواف الزيارة أى طواف الحج فيجوز الجماع بعده.

وأما عند الإمامية فيقع التحلل من حرمة الجماع بعد أداء الحاج رجلاً كان أو امرأة لطواف النساء.

فإذن الآية تحدد الممنوع ما دام الحج باقياً، فإذا انتهى الحج بطواف الزيارة فإن كل ما حرم يتحلل منه الحاج إلا النساء عند الإمامية فقط، لأن هذا الأمر يحتاج إلى طواف آخر وهو طواف النساء، فإن قلنا: إن طواف النساء جزء من الحج فلا بد من الإتيان به في أشهر الحج ولا يجوز تركه عمداً وعندئذ لا يتم الفراغ من الحج إلا بأدائه، وبالتالي يتلاءم هذا مع الاستدلال بالآية على المراد. وهو حرمة الجماع. وأما إذا قلنا: بأنه ليس جزءاً من الحج والحج يتم بدونه..

ف عندئذ من تعمد تركه فلا تحلل له النساء وبالتالي يتمدد وقت التحريم إلى وقت قد يطول وقد يقصر خارج مدة الحج المحددة قرآنياً، وعندئذ لا يمكن الاستدلال بالآية، لأن طواف النساء يكون بذلك خارجاً عن الحج وزمنه، وهو ما ذهب إليه بعض من الفقهاء مستفيداً من رواية «وطواف بعد الحج وهو طواف النساء» والبعديّة هذه لا تنسجم مع الجزئية، في حين أن الآية الكريمة المذكورة الحج أشهر معلومات... مع ضم الروايات التي يظهر منها وبشكل واضح قد يصل إلى التصريح بأن طواف النساء جزء من مناسك الحج

ص: ٢٤٣

وهي ليست قليلة، تصلح لأن تكون أقوى دليلاً من غيرها على جزئية هذا الطواف وأنه منسك لا يجوز تركه تعمداً أو تأخيره حتى تنتهي مدة الحج المحددة في الآية المذكورة.

ثم إن الروايات التي تدعو إلى جزئية هذا المنسك تنسجم مع الآية وبالتالي لا يقع تعارض وهو ما قد يبدو من الأخذ بالروايات الأخرى التي تدل على عدم الجزئية وبالتالي أليس من الأفضل إسقاطها وتركها خصوصاً مع وجود روايات أخرى قوية سنداً ومتناً تدل على الجزئية؟

ونكتفي أخيراً بما انتهى إليه المحقق الداماد بعد أن طرح السؤال التالي: هل يعتبر طواف النساء في حجهن بالنسبة إلى حل الرجال لهن أم لا؟

يقول: قد يستدل لذلك بقوله تعالى: ولا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج حيث إن إطلاقتها يدل على حرمة الرفث المفسر بالجماع مادام الحج باقياً، ففي خلاله يحرم الرفث من دون التفاوت في ذلك بين الرجال والنساء.

ثم يقول: ولكن الاستدلال بها متوقف على توقف الفراغ من الحج على طواف النساء بحيث يكون من مناسكه، فما لم يؤت به لم يتم الحج، وأما إذا كان خارجاً عن الحج، فلا يكون الفراغ منه متوقفاً على إتيانه وإن فرض لزوم الإتيان به.

فيخلص إلى أن هذه الآية فلا-رفث ولا-فسوق... وحدها غير كافية في الاستدلال. نعم بانضمام ما يدل على أنه من المناسك يتم نصاب البرهان.

ثم راح يقسم الروايات الواردة بخصوص هذا الطواف إلى ثلاث طوائف.

الطائفة الأولى: ما يدل على توقف حليه الرجال لهن على طواف النساء.

التي منها:... ثم طافت طوافاً للحج ثم خرجت فسعت فإذا طافت طوافاً آخر حل لها فراش زوجها (١).

ص: ٢٤٤

الطائفة الثانية: ما يدلّ على أنّ طواف النساء من المناسك وينقل رواية حسين بن علي بن يقطين.. نعم عليهم الطواف كلهم. ورواية اسحاق ابن عمار... لا- تحلّ لهم النساء حتّى يرجع فيطوف بالبيت اسبوعاً آخر بعد ما يسعى بين الصفا والمروة وذلك على النساء والرجال واجب..

ويستفيد من هاتين الروايتين أمرين:

الأول: أن حلية النساء متوقفة على هذا الطواف.

والثاني: كون طواف النساء بنفسه أيضاً من الواجبات الحجية...

الطائفة الثالثة: ما يدلّ على قضاء طواف النساء، وينقل رواية معاوية بن عمّار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن رجل نسي طواف النساء حتّى يرجع إلى أهله، قال عليه السلام:

لا- تحلّ له النساء حتّى يزور البيت فإن هو مات فليقض عنه وليه أو غيره مادام حياً فلا يصلح أن يقضى عنه وإن نسي الجمار فليسا بسواء أن الرمي سنة والطواف فريضة (١).

وظهورها في لزوم القضاء واضح فيكشف عن كونه من المناسك، لا انه ليس له الا تحليل النساء فمن شاء طاف ومن لم يشأ تركه، بل يجب على الكل الاتيان به. ويتلوها روايات ابن عمّار والحلبى (٢) في لزوم القضاء على الولي بعد الموت.

ثمّ يقول: وممّا يترتب على كونه من المناسك أنّه لولا اعتبار الولاء والتتابع فيها لحكم ببقاء الإحرام ولوآزمه بحالها ما لم يأت بطواف النساء وإن طال الفصل. وأما على اعتبار التتابع فلعل ذلك الفصل مبطل لأصل الحجّ وليس ذلك إلّا لأنّه من اجزاء الحجّ (٣).

أحكام أخرى:

هذا وأن طواف النساء يبقى بذمة المكلف إن تركه عسياناً أو لعذر ولم يأت به لا مباشرة ولا استناباً ثمّ وفق لحج آخر أو لعمرة مفردة فلا يسقط عنه ذلك الطواف أي طواف النساء وإن أتى بطواف النساء بالحج

١- ١ الوسائل، أبواب الطواف، الباب ٥٢، ح ٢.

٢- ٢ الوسائل، ابواب الطواف، الباب ٥٨، ح ٣ و ٦ و ١١.

٣- ٣ كتاب الحجّ. المحقق الداماد ٣: ٣٧٥-٣٧٩.

ص: ٢٦٥

الآخر أو العمرة الأخرى المفردة، فلا- يسقط ما أتى به من طواف النساء طواف النساء السابق. وهل تحلّ عليه النساء بما أتى به من طواف النساء لاحقاً أو لا تحلّ إلباليتان بما وجب عليه سابقاً؟
وهنا يجب السيد السبزواري في مهذب الأحكام عن ذلك بقوله:
وجهان: مقتضى الأصل هو الأخير (١) في حين ذهب السيد الإمام إلى كفاية طواف نساء واحد إذا لم يطفه في العمرة المفردة وطواف طواف النساء في حجّ الأفراد، فأفتى سماحته رحمه الله على كفايته (٢).
ومن أحكام هذا الطواف أنه: لو نسى وترك الطواف الواجب من عمرة أو حجّ، أو طواف النساء، ورجع وجامع النساء، يجب عليه الهدى، ينحره أو يذبحه في مكة ..
الهوامش:

١- ١ مهذب الأحكام ١٤: ٣١.

٢- ٢ مناسك الحجّ للسيد الإمام: ٤٢٥ مسألة ١٢١٧.

تأملات في آيات الحج

ص: ٢٦٩

تأملات في آيات الحجّ

عبدالرحمن شرفي

قاضي المحكمة العليا- السودان

هذه رؤى لهموم ووحدة المسلمين وإسلامهم من خلال مناسك الحجّ وآياته ... والفارق يبدو جلياً بين الواقع والواجب- من هذه الرؤى.

مقدمه

قال تعالى:

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ * ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ * ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ * لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ * وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ

ص: ٢٧٠

بِهَيْمِهِ الْأَنْعَامَ فَالْهَيْمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَارِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَإِيحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ * أذن للذين يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلْمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ * (١).

هذه الآيات الكريمة، وما تضمنتها من حرمان الله وشعائره، ومناهج ابتغاء الغايات ... نتلمس فيها بعض معاني الوحدة الإسلامية والتسليم للخالق ... وما يقتضيه هذا التسليم - والايان - من مدافعة ومناصرة ... ونهتدى هذه المعاني إلى كل من لبى النداء الإبراهيمي من لدن أبي الأنبياء، إلى أن يورث الله أرضه لعباده الصالحين ويرثها ومن عليها ...

هذه المعاني إلى كل من أجاب النداء وأقبل إلى الله وهو يردد: (لبيك اللهم لبيك) ... أقدم هذه المعاني ذكرى .. فالغفلة قد استطلت واستطارت ... أمة الإسلام غافلة - غافلة، مغيبة، ممزقة، مذبوحه، مغتصبة. ... إنها مؤامرة مدبرة من قبل النظام العالمي الجديد، شعارها: (إبادة المسلمين واستخراب ديارهم) ... إنها بعض الحقيقة ونحن في غناء عن مزيد بيان، غير أنه ما زال هنالك رجاء .. الرجاء كائن، ما ظل الناس يهرعون رجالاً، وعلى كل ضامر، من كل فج عميق، ليدكروا اسم الله

ص: ٢٧١

في أيام معلومات ... يؤدّون فيها شعائر الله، وليطوّفوا بالبيت العتيق ... الأمل كائن رغم الغفلة ...
 إنّ الذين اتقوا إذا مسّهم طائفٌ من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون (١).
 ... الغفلة ليست أبدية ... إنّها طائف تبّدها التذكرة ... (المسلمون قادمون) ...

هتاف بدأ ينبعث من حناجر شبابنا المسلم ... شعاع الفجر الصادق بدأ يشقّ ثنايا ظلمات افق الجاهلية المعاصرة ... جاهلية النظام
 العالمي الجديد ... إنّها بدايات التذكرة ... الذين كانت أعينهم في غطاء عن منهج الله ... سيّخذون إلى ربّهم سبيلاً وتولد امتنا من
 جديد، من بين أرحام ظلمات الجاهلية، ويصدق وعد الله القائل:

ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون (٢).

.. الأرض التي عاث فيها الكافرون فساداً، يرثها الصالحون من عباد الله ...

الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور ... ومبدأ المنطلق من هنا
 ... من هذه الشعائر ... نستشعر ذلك من تسلسل هذه الآيات المبدوءة بالآذان الإبراهيمي ...

مروراً بصياغة الإنسان الرسالي - والامة الرسالية -، وبين الغايات ومناهج بلوغها ... بلوغ غاية الغايات ولله عاقبة الامور.

ينخرط الإنسان المسلم في الطريق ... بعد التمكين الرباني ... تسعد الإنسانية بمنهج الامة الرسالية ... هذه معاني بعض أهداف الآيات
 القرآنية العظيمة حول شعائر الله ... حجّ بيت الله ... فإن أصابت الرؤية - والقراءة - فالحمد لله على نعمه الضياء ونعمة البصر ونعمة العلم
 الذي لم نؤت منه إلّا قليلاً ... وقل ربّ زدني علماً ... وإن كانت الاخرى فنسأل الله المغفرة وإقاله العثرات.

الحجّ رمز وحدة المسلمين

جاءت آية فرضية الحجّ من سورة آل عمران مقرونة مع وحدة

١-١ الأعراف: ٢٠١.

٢-٢ الأنبياء: ١٠٥.

ص: ٢٧٢

المسلمين - مع بيان منهج الوحدة ودستورها - قال تعالى: ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ... ولما كان الحج يمثل مؤتمراً إسلامياً جامعاً سنوياً، فقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يبين منهج الجماعة وهديتها ... إنه الاعتصام بالله، والإيمان الصادق به وتسليم الأمر والاستسلام للخالق وحده، ووصولاً لآيات فرضية الحج قال تعالى: وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلِتُكِنَ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَمَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * (١)

انظروا يا أهل التلبية أن هذه الشعيرة التي تدافعتم إلى أدائها رجالاً وعلى كل ضامرٍ من كل فجٍ عميق، في وحدة ناطقة، لها منهج ... صحيح أنكم أحرمتم في الميقات ... استوى الأثرياء والفقراء، حين تجرد الجميع من الثياب والرياش ...

و حين ارتدى الجميع هذا الزي الموحد ... المتواضع ... زالت كل الفوارق ... إنها وحدة نادرة ناطقة بأروع بيان ... ولكن الأمر أعمق من وحدة شكلية ... الوحدة الشكلية الخالية من المنهج هي التي تجمعنا الآن ... هذا هو الواقع ... إنها الحقيقة الأليمة ... كيف لا نتأمل ... كيف لا نستشعر التكليف الحقيقي من وراء هذه الوحدة ...

الوحدة أصبحت استراتيجية العالم المعاصر ... عند تحقق وحدتنا بالمنهج الإسلامي، نكون أقوى وأوثق، وتكون الجماعة الإسلامية صاحبة القيادة والريادة للبشرية ... منهج وحدة الجماعة الإسلامية، أن تعصم الجماعة الإسلامية أن تلتزم وجوباً بالايان والتقوى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ...

ص: ٢٧٣

منهج وحدة الجماعة الإسلامية أن تستسلم وجوباً إلى الله وحده فلا تخضع ولا ترعع إلا لله ... ولا تستذل ولا تستعبد لمخلوق ... ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ...

أليست هذه الآيات الكريمة هي ذات آيات فريضة الحج ...؟ إننا فقط نعيد قراءتها بتأمل ... ونضيف في معرض التأمل في ذات الآيات ... إن منهج وحدة الجماعة الإسلامية أن تتحرر وجوباً ... تتحرر قرارها ... لا ترهن مصيرها وقرارها لأهل الشر وأهل الشرك - ولو كانوا من أهل الكتاب - أو كانوا من دونهم، ... أولئك لا يعرفون القسط والعدل في حق امتنا ... ولا يريدون لها أن تبلغ حقها وغاياتها ...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عُنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ* هِيَ أَنْتُمْ أَوْلِيَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَمَّا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ* إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَضَرَّبُوا وَتَتَّقُوا لَإِيْضْرُكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ* (١).

... يا ترى كم من قلوب امه الإسلام اتخذت اليوم بطانه من دون المؤمنين؟ ...

رغم البغضاء التي تبدو من أفواههم ... وما تخفي صدورهم أكبر ... ها أنتم تحبونهم ولا يحبونكم ... ما أروع بيان القرآن وهدايته ... إن تمسكم حسنة تسؤوهم! ...

تلک بعض تأملاتی فی آیات فرضیه الحج من سورة (آل عمران) ... فالحج رمز وحدة المسلمين .. وفي الإحرام تتجسد الوحدة ... الكل يرتدى لونا واحداً ..

غطاءً واحداً، وبنمط واحد ... الكل يردد ذات الكلمات ... والكل في موقف واحد في عرفات ... الكل يفيض ... الكل يطوف حول البيت العتيق ... الكل يسعى ... وحدة في المبتداً ووحدة في المنتهى ... وحدة في التوجه ... الإله واحد ... الدين واحد ...

ص: ٢٧٤

القبله واحده ... البيت واحد ... الجماعه واحده، والفرد عضو في جسد جماعه موحده ... الوحده رمزنا، والحجّ رمز وحدتنا ... غير أننا قد أضعنا المنهج .. ضللنا ..

لم يعد الحجّ سوى مكان إجتماع ... مؤتمر عام يجمع ذوى مشارب شتى ... يجتمع المؤتمرون وقلوبهم شتى، ويفترقون وقلوبهم شتى ... يجتمعون في ذات الميقات والمكان، وبين قلوبهم بعد المشرقين ... ويفترقون بذات ما حملتها الصدور من إحن .. بذات روح العدا .. مفرّقون ممزّقون .. إنها الفريضة الحاضرة الغائبة .. امتنا واجهها التأمل والعمل الفوري بكلّ أمر وجوبى ذكرناه آنفاً بعبارات- وجوباً ..

وجوباً .. وجوباً .. والأمل في إنقاذ الواجبات قريب بإذن الله .. على الافق تلوح تباشير الإنقاذ بعد أن كنّا على شفا حفرة من النار .. وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ... تنزل رحمته الإنقاذ بالتوجه والعمل الخالصين .. وكما تنزلت قبل، تكون اخرى - بإذن الله - فإنّ مع العسر يسراً ... إنّ مع العسر يسراً ... وتعود امتنا إلى الوحده على منهج القرآن .. وتتآلف قلوبنا بعد طول البغضاء والشحناء ..

وتعصم امتنا بحبل الله جميعاً من جديد، ولا نعود بعدها إلى التفرّق والتمزّق أبداً بإذن الله، فقد رأينا بأعيننا مدى بغض أعدائنا لنا .. فى الأندلس .. فى البلقان .. فى الهند .. فى روسيا .. فى الغرب كلاًه .. فى الشرق .. فى فلسطين وفى البوسنة والهرسك وما تخفى صدورهم أكبر ...

الحجّ إسلام وتسليم

قلنا قبل: إنّ من آيات فريضة الحجّ قوله تعالى: ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون .. إنها دعوة إلى الإسلام المقرون بالتقوى .. أيها الحجّاج:

الآن .. فوراً .. يجب أن نرقى إلى درجة الإسلام، فلا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون ..

فقد تموت اللحظة .. الموت غيب وما تدرى نفس بأى أرض تموت ... ولا تدرى نفس فى أى وقت تموت ... ويجب أن يكون إسلامنا شاملاً .. استسلامنا لله

ص: ٢٧٥

الخالق وحده .. بالطاعة الكاملة واتباع المنهج .. والاحتكام إلى الله فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً (١).

... ولنظمن أننا قد عرجنا في مدارج الاستسلام لله، نراجع ذواتنا ونحن في الطواف حول البيت العتيق .. وفي السعي بين الصفا والمروة .. وفي رمي الجمرات ..

وقبل ذلك كله في الوقوف بعرفة .. كلها ترمز إلى الاستسلام والتسليم .. الطاعة لله والخضوع له .. هذه الشعائر من ذا الذي يحيط بشيء من حكمته .. سوى الله الخالق .. العليم الخبير .. ما علينا إلا التردد بإخلاص وصدق (لبيك اللهم لبيك) .. وهذا هو التسليم الخالص لله سبحانه وتعالى.

ولقد وهنت عرى التسليم الواعي في الأنفس .. كثيرون لا- خلوص لهم في التسليم والاستسلام لله. ينادون (لبيك اللهم لبيك) ولا تكاد الكلمات تنفذ إلى دواخلهم، لتزلزل كلّ علائق الشرك أو الهوى. المطلوب هو التوجه الخالص إلى ربّ الخلائق .. إنه وحده المعبود المحبوب المطاع .. بعض الملبين يشركون المال أو السلطان .. بعضهم يشركون في الحبّ .. حبّ الذات أو المال أو الولد .. أو خلاف ذلك .. لا- تسليم ولا إسلام لأولئك الذين يشركون .. أفراد الخضوع لله والخلوص في التوجه إلى الخالق المعبود هو ما يجب استحضاره مع كلّ تلبية .. وفي كلّ حين .. فلا خضوع لغير الخالق المعبود .. ذلك هو المقام الذي يجعل من الإنسان مخلوقاً ربّانياً ..

يدعو فيستجاب له .. يجاهد في سبيل الله فيهديه الله إلى سبيله .. سبل النصر والعزة والتوكل والرقى في مدارج الكمال .. والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبُلنا (٢)

... إنه الإنسان المستسلم إلى الله- المتوكل عليه- توكلنا إبراهيمياً .. أبو الأنبياء سلم أمره لله وهو يُلقى في النار .. فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين (٣)

.. وبعد طول سؤال ودعاء رزقه الله سيدنا إسماعيل .. ربّ هب لي من الصالحين* فبشرناه بغلامٍ حلِيم (٤).

١- ١ النساء: ٦٥.

٢- ٢ العنكبوت: ٦٩.

٣- ٣ الصافات: ٩٨.

٤- ٤ الصافات: ١٠٠- ١٠١.

ص: ٢٧٦

... وجاء الاختبار الثاني: فلمّا بلغ معه السعى قال يا بني إنّي أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين (١).

... وضرب سيدنا إبراهيم المثل في غاية الخضوع لله والاستسلام له .. ذهب ليذبح ابنه ... وتأهب ثم بدأ يشرع، خاضعاً لله فلمّا أسلما وتله للجبين* ونادينه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنّنا كذلك نجزي المحسنين (٢).

... ومن قبل تمثّل التوكل الإبراهيمي في الاستسلام لله بترك هاجر وطفلهما إسماعيل عليه السلام عند مقام البيت الحرام، حيث كان المكان صحراء جدباء، وقفل راجعاً وهو يستهل لربه قائلاً- كما في سورة إبراهيم- ربّنا إنّني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحترم ربّنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون (٣).

... تلك بعض صور الخضوع الخالدة .. يرمز إليها الحج، في التلبية وفي كلّ الشعائر .. وبإخلاص التوجه لله والاستسلام له يرقى المسلم في مدارج الإسلام والإيمان .. وحين تبلغ الجماعة المسلمة وأفرادها، هذه المقامات، تسعد البشرية جمعاء .. هذه البشرية التي جمعت من النعم المادية، وحققت في عالم المادة ما لم يتحقق من قبل، تعاني من فشل ذريع في جبهه السلام والأمن والطمأنينة والشائج الإنسانية .. فأصبحت على شفا جرف هار تنهار بها في نار جهنم .. غير أن الله لطيف بعباده رحيم .. أرحم من أن يدع البشرية تعاني ويلاط طغيان المادية .. وغداً يأذن الله يجيء الإنقاذ، فيشرق فجر الإسلام من جديد، ويملأ الكون نوراً .. ويسود السلام وتعم المحبة .. ويأتي نظام عالمي جديد، قوامه العدل والحرية والمساواة بين كلّ بني آدم.

الإنقاذ وشرطه

نعم غداً يأذن الله يجيء الإنقاذ .. هذه الامة الموحدة شكلاً .. باجتماعها خلال هذه المناسك، تعود إليها وحدتها الفعلية- الإسلامية- فتصبح جماعة واحدة، معتصمة بحبل الله، قائمة بدورها الرسالي، عند تحقيق ركيزتين .. على نحو ما (في

١-١ الصافات: ١٠٢.

٢-٢ الصافات: ١٠٣-١٠٥.

٣-٣ إبراهيم: ٣٧.

ص: ٢٧٧

ظلال القرآن) في بيان آيات فرضية الحج .. أولى هاتين الركيزتين هي ركيزة الإيمان والتقوى. التقوى التي تبلغ أن توفى بحق الله الجليل .. التقوى الدائمة اليقظة، التي لا تغفل ولا تفتقر لحظة من لحظات العمر، حتى يبلغ الكتاب أجله .. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ... اتقوا الله كما يحق له أن يُتقى ولا- تموتنَّ إلّا وأنتم مسلمون .. أما الركيزة الثانية فهي ركيزة الاخوة في الله .. على منهج الله .. لتحقيق منهج الله .. واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا* واذكروا نعمه الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً إنها الاخوة النابعة من التقوى والإسلام .. من بين ثنايا الركيزة الاولى .. إنه تجمع المؤمنين الذين تخفق قلوبهم بالتقوى .. وتتوثق الأواصر بينهم بالاخوة في الله .. لا يكونون محض جماعة متآلفة في الظاهر، وإنما جماعة متآلفة القلوب .. فألف بين قلوبكم .. إنه التآلف المفقود في تجمعات عالم اليوم .. إنه السبيل الأوحى لتوثيق الوشائج الإنسانية بين بنى البشر أجمعين. والامة الوحيدة المرشحة لأداء هذه الرسالة، هي الامة الإسلامية .. كنتم خير امة اخرجت للناس ..

يقول الشهيد سيد قطب في معرض بيان معاني هذه الآية (في ظلال القرآن):

«هذا ما ينبغي أن تدركه الامة المسلمة؛ لتعرف حقيقتها وقيمتها، وتعرف أنها اخرجت لتكون طليعة، ولتكون لها القيادة .. بما أنها هي خير امة. والله يريد أن تكون القيادة للخير لا- للشر في هذه الأرض، ومن ثم لا ينبغي لها أن تتلقى من غيرها من امم الجاهلية، إنما ينبغي دائماً أن تعطى هذه الامم مِمّا لديها، وأن يكون لديها دائماً ما تعطيه .. ما تعطيه من الاعتقاد الصحيح، والتصور الصحيح، والنظام الصحيح، والخلق الصحيح، والمعرفة الصحيحة، والعلم الصحيح.. هذا واجبها الذي يحتمه عليها مكانها، وتحتمه عليها غاية وجودها. واجبها أن تكون في الطليعة دائماً .. في مركز القيادة دائماً .. ولهذا المركز تبعاته، فهو لا يؤخذ ادعاءً، ولا يسلم لها به إلا أن تكون هي أهلاً له .. وفي أول مقتضيات هذا المكان، أن تقوم

ص: ٢٧٨

(الائمة) على صيانة الحياة من الشر والفساد، وأن تكون لها القوة التي تمكنها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. فهي خير امة اخرجت للناس، لا عن مجامله أو محاباه، ولا عن مصادفه أو جزاف- تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً- ... إنما تبوأت امة الإسلام هذا المقام بالعمل الإيجابي لحفظ الحياة البشرية من المنكر، وإقامتها المعروف، مع الايمان الذي يحدّد المعروف والمنكر .. في هذه الآية وصف الله سبحانه وتعالى امة الإسلام بأن صفتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. إن امة الإسلام لا توجد وجوداً حقيقياً إلّا أن تتوافر فيها هذه السمة الأساسية، التي تعرف بها في المجتمع الإنساني .. فإما أن تقوم بالدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- مع الايمان بالله- فهي موجودة وهي مسلمة. وإما أن لا تقوم بشيء من هذا فهي غير موجودة، وغير متحققة فيها صفة الإسلام» ... قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونني فلا يستجيب لكم».

تلك بعض الرؤى .. في مناسك الحج وآيات فريضتها .. بعض واقع المسلمين، وما يجب أن يكون حالهم عليه .. فلنبداً العمل الإيجابي بإنفاذ الواجب الذي يكون به الإنقاذ والفجر الجديد .. ونردّد بصدق التيه ونقاء الطوية: «لييك اللهم لييك» «لييك لا شريك لك لييك» «إن الحمد والنعمه لك والملك» «لا شريك لك».

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم
 جاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/٤١).
 قَالَ الْإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى الرَّضَا - عَلَيْهِ السَّلَامُ: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرًا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ
 كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بِنَادِرُ الْبِحَار - فِي تَلْخِيصِ بَحَارِ الْأَنْوَارِ، لِلْعَلَامَةِ فِيضِ الْإِسْلَامِ، ص ١٥٩؛ عُيُونُ أَخْبَارِ الرَّضَا(ع)، الشَّيْخُ
 الصَّدُوقُ، الْبَابُ ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - رَحِمَهُ اللَّهُ - كان أحدًا من جهابذة هذه
 المدينة، الذي قد اشتهر بشعفه بأهل بيت النبي (صلواتُ الله عليهم) ولاسيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و
 بساحة صاحب الزمان (عجلَ الله تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره و درايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠
 الهجرية القمرية)، مؤسسه وطريقه لم ينطفئ مصباحها، بل تتبّع بأقوى وأحسن موقف كل يوم.
 مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشيطته من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)
 تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عزه - ومع مساعيدته جمع من خريجي الحوزات العلمية و طلاب
 الجوامع، بالليل والنهار، في مجالات شتى: ديتية، ثقافية و علمية...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافته الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و
 عموم الناس إلى التحرر الأذق للمساائل الديتية، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايتي المتبدلة أو الرديئة - في المحاميل
 (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضية واسعة جامع ثقافته على أساس معارف القرآن و أهل البيت
 -عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعة ثقافته القراءة و إغناء أوقات فراغه هواة برامج العلوم
 الإسلامية، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في الجامعة، و...
 - منها العدالة الاجتماعية: التي يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثة متصاعدة، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات -
 في آكناف البلد - و نشر الثقافة الإسلامية و الإيرانية - في أنحاء العالم - من جهة أخرى.
 - من الأنشطة الواسعة للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءة

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقه و مكتبيه، قابله للتشغيل في الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثية الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركة و... الأماكن الديتية، السياحية و...

(د) إبداع الموقع الانترنتي "القائمية" www.Ghaemiyeh.com و عدده مواقع أخرى

(ه) إنتاج المنتجات العرضية، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية

(و) الإطلاق و الدعم العلمي لنظام إجابة الأسئلة الشرعية، الاخلاقية و الاعتقادية (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائي و اليدوي للبلوتوث، ويب كشك، و الرسائل القصيرة SMS

(ح) التعاون الفخري مع عشرات مراكز طبيعية و اعتبارية، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلمية، الجوامع، الأماكن الديتية كمسجد
 جمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسة" الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركين في الجلسة

(ي) إقامة دورات تعليمية عمومية و دورات تربية المربي (حضوراً و افتراضاً) طيلة السنة

المكتب الرئيسي: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / ما بين شارع "بنج رمضان" ومفتق "وفائي" / "بنايه" القائمية

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الإلكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الإلكتروني: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٢-٢٣٥٧٠ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية والمبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزاتية الحالية لهذا المركز، شعبيته، تبرعته، غير حكومية، و غير ربحية، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافي الحجم المتزايد والمتسع للامور الدينية والعلمية الحالية و مشاريع التوسعة الثقافية؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقيه الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكل توفيقاً متزائداً لإعانتهم - في حد التمكن لكل احد منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله ولي التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

